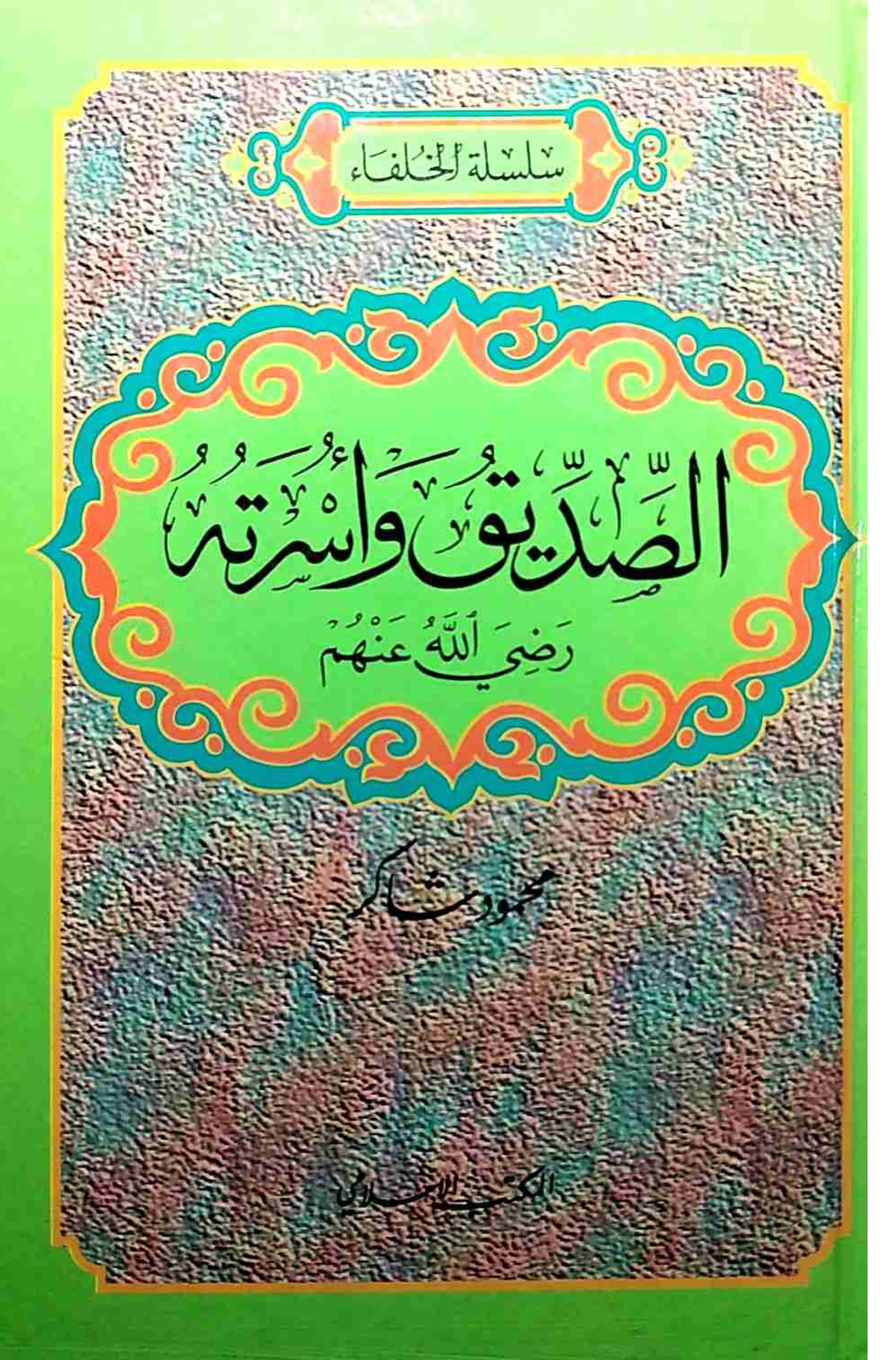
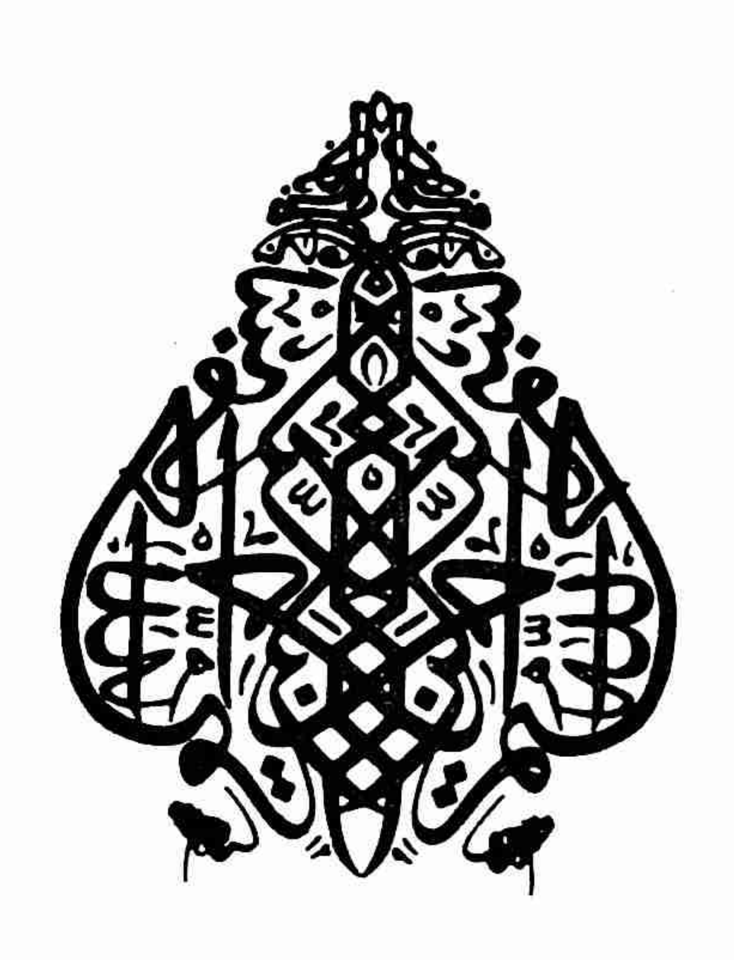

سلسلة الخلفاء
الصديق وأسرته
رضي الله عنهم
محمود شاكر
المكتب الإسلامي

الصِّدِّيقُ وأُسْرَتُهُ

رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ



سلسلة الخلفاء

الصِّدِّيق وأُسْرَتُه

رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٦٥٦٦٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على أفضل الخلق، وسيّد المرسلين، وخاتم النبيّين، محمّد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه، ومن سار على دربه إلى يوم الدين، **أما بعد:**

فقد لا يكون بين الصحابة واحد ليس له موقف بل مواقف مُشرقة تدلّ على رسوخ الإيمان، وثبات العقيدة، وقوّة اليقين، ووضوح التصوّر، وهذه المواقف باستعلاء أصحابها، وارتفاع حرارة الإيمان عندهم جعلت المسلمين بعدهم يردّدون بعضها دائماً، ويعلّمونها لأبنائهم، ويذكرونها لطلابهم، وكلما أرادوا إلقاء الحماسة في المجتمع، وتشجيع الناس على اقتحام الصعاب، والانطلاق إلى الجهاد، والاندفاع نحو المخاطر، والصبر عند الملمات، وعدم الجزع عند الحوادث، ألقوا على أسماعهم ما يناسب المهمّة التي يريدون السير بالأمة نحوها. وقد حُفظت هذه المواقف لكثرة التكرار حتى فقدت مفعولها

نتيجة الحفظ والإعادة، ولكن في الحقيقة، فإنّ فقدان المفعول إنّما حصل بسبب فتور الإيمان، وضعف الحوافز، لأن النفوس المؤمنة تلتهب حماسةً، وتتحرّق اندفاعاً، وتشتعل توثّباً وتغلي حركةً من الداخل بتذكيرها بالجنّة والنار، وسماع ما أُعدّ للمتقين، وما هُيِّئ للمجرمين.

إن مواقف الصحابة كلّها عِبرَ ودروس حتى في مواقف الفشل حكمة، وفي مواقف التعثّر تربية، وفي مواقف الضعف البشريّ تنبيه وتذكير، وفي مواقف الغضب تعليم، وفي مواقف الرغبة في الدنيا وخزة للعودة إلى الله والأمل بما عنده، ورغبة في الآخرة من جديد.

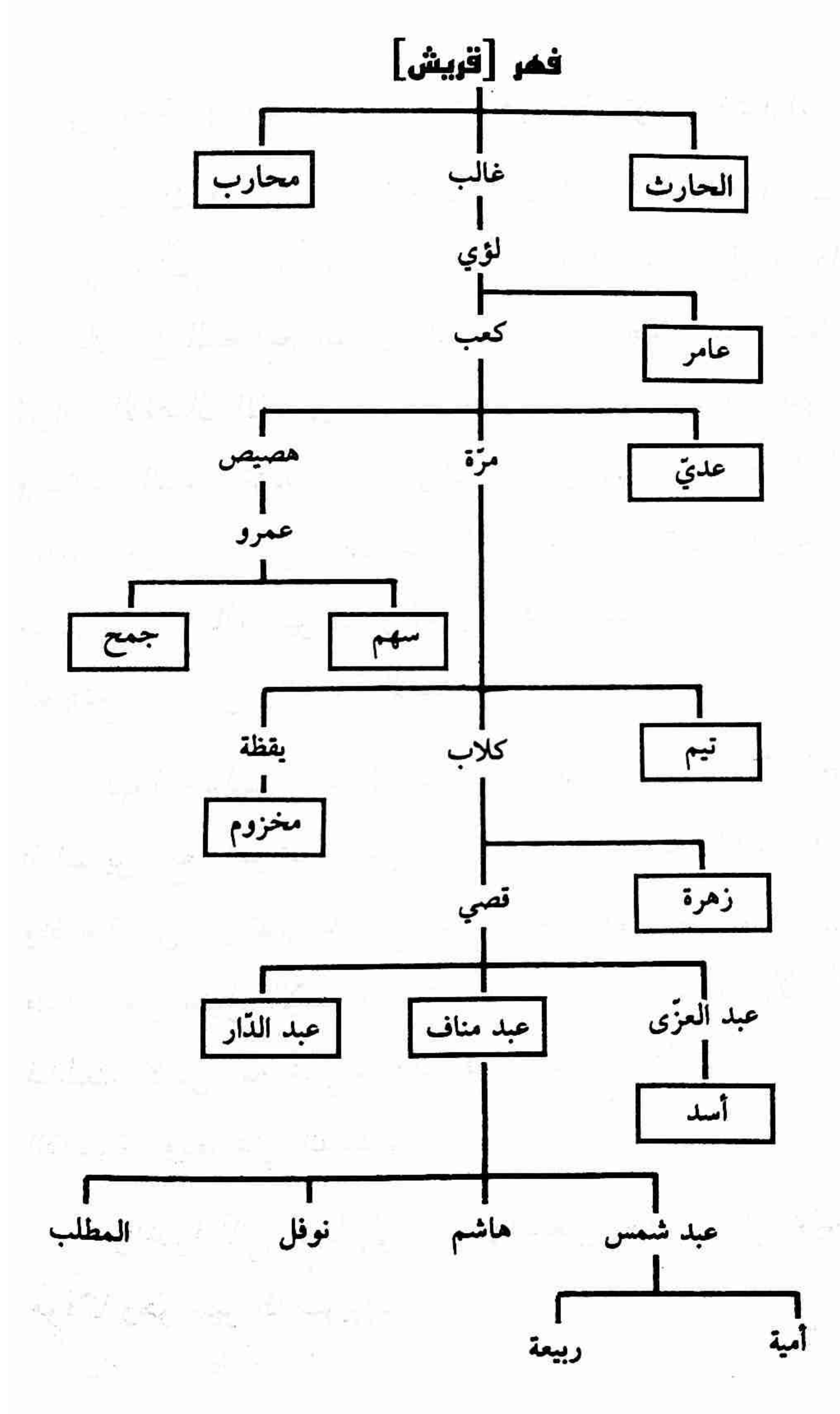
ولذا فقد رأيت أن دراسة حياة الصحابيّ كاملةً في الجوانب جميعها ربّما كانت أفضل من الاهتمام ببعض الصور المشرقة من الاستعلاء بالإيمان، وعدم الاهتمام بجموع الناس، والمواقف البطولية، والرغبة بما عند اللّه، وترك كل ما في الدنيا من متاعٍ ونعيمٍ والتوجّه إلى ما ينتظره من خيرٍ في الآخرة لأنّ هذا كلّه يبدو من خلال دراسة حياة المرء وأخذ الدروس والعبر. وفي هذا ما يجعل القارئ لا يُكرّر مواقف معيّنةً، ويظنّ أنّه يعرفها فيتجاوزها حيث يجد جديداً فيزداد معرفةً،

ويتلقّى تربيةً، ويتعلّم دروساً، ويتخلّص ممّا يتوهمه تكراراً.

وكذلك فقد بدا لي أن دراسة أولئك الرجال الأفذاذ ضمن أسرهم توضّح صوراً تبقى غامضةً فيما لو أُخذ كلّ صحابيٍّ منفصلاً عن المجتمع الصغير القريب الذي يعيش فيه، كما أن قنوات الاتصال الأُسري من مصاهرةٍ وغيرها، ووشائج القربى، وصلات النسب تزيد الأمور وضوحاً، وتعطي الصورة إشراقاً، وتقدّم معرفةً، وتبيّن العلاقات الاجتماعية في تلك الآونة التي عاش فيها رجال خير القرون، وارتبط بعضهم مع بعضٍ فكان المجتمع الفاضل والمدنية الإسلامية السعيدة.

لهذا عملت بعد الاتّكال على الله على دراسة الخلفاء الراشدين مع أسرهم عسى أن يكون في ذلك إعطاء صورةٍ واضحةٍ عن حياتهم ما يشبع نهم النفس إلى المعرفة، ويروي ظمأها من منهل الإسلام الذي نهل منه الصحابة، فإنْ وُفّقت فذلك فضل الله عليّ، وإن قصرت في ذلك فمن نفسي القاصرة، وبضاعتي القليلة.

وأخيراً فإني ألجأ إلى الله، وأستعين به، وأتوكّل عليه فهو مولانا وهو خير الناصرين.


فهر [قريش]
الحارث
غالب
محارب
لؤي
عامر
كعب
عديّ
مرّة
هصيص
عمرو
سهم
جمح
تيم
كلاب
يقظة
مخزوم
زهرة
قصي
عبد العزّى
عبد مناف
عبد الدّار
أسد
عبد شمس
هاشم
نوفل
المطلب
أمية
ربيعة

تَيْمٌ

كَانَتْ قَبِيلَةُ قُرَيْشٍ ٱثْنَيْ عَشَرَ بَطْناً، وَكَانَتْ هٰذِهِ البُطُونُ تَتَبَاهَى فِيمَا بَيْنَهَا بِٱلأَعْمَالِ، وَتَتَفَاخَرُ بِالشَّرَفِ، وَيُكَاثِرُ بَعْضُهَا بَعْضاً بِٱلْعَدَدِ وَٱلأَحْلاَفِ.

ٱسْتَطَاعَ قُصَيُّ بْنُ كِلاَبٍ أَنْ يُعِيدَ لِقُرَيْشٍ مَكَانَتَهَا فِي مَكَّةَ مِنْ خُزَاعَةَ وَصُوفَةَ بَعْدَ أَنْ تَغَلَّبَتَا عَلَيْهَا، وَأَزَاحَتَا جُرْهُمَ عَنْهَا، وَوَضَعَتَا قُرَيْشاً جَانِباً.

وَوَجَدَ قُصَيٌّ أَنَّ وَلَدَهُ عَبْدَ مَنَافٍ قَدِ ٱرْتَفَعَ شَأْنُهُ، وَعَلَتْ مَكَانَتُهُ عَلَى حِينَ لَمْ يَحْصَلْ وَلَدُهُ الأَكْبَرُ عَبْدُ الدَّارِ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الرِّفْعَةِ فَأَرَادَ قُصَيٌّ أَنْ يُعْلِيَ مِنْ مَكَانَةِ وَلَدِهِ عَبْدِ ٱلدَّارِ فَجَعَلَ لَهُ الرِّفَادَةَ، وَالسِّقَايَةَ، وَٱلْحِجَابَةَ، وَٱلنَّدْوَةَ، وَٱللِّوَاءَ، ولَمْ يُعْطِ شَيْئاً مِنْ هٰذَا لأَوْلاَدِهِ الآخَرِينَ عَبْدِ مَنَافٍ، وَعَبْدِ العُزَّى، وَعَبْدٍ.

وَبَعْدَ وَفَاةِ قُصَيٍّ نَازَعَ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ أَبْنَاءَ عُمُومَتِهِمْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ مَا مَنَحَهُمْ قُصَيٌّ، وَٱخْتَلَفَتْ بُطُونُ قُرَيْشٍ مِنْهُمْ مَنْ

دَعَمَ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ وَمِنْهُمْ مَنْ وَقَفَ إِلَى جَانِبِ عَبْدِ الدَّارِ، فَقَدْ وَقَفَ بَنُو أَسَدٍ، وَبَنُو زُهْرَةَ، وَبَنُو تَيْمٍ، وَبَنُو الحَارِثِ بِجَانِبِ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، وَوَقَفَ بَنُو مَخْزُومٍ، وَبَنُو سَهْمٍ، وَبَنُو جُمَحٍ، وَبَنُو عَدِيٍّ إِلَى جَانِبِ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ، عَلَى حِينَ لَمْ يَنْحَزْ بَنُو عَامِرٍ، وَبَنُو مُحَارِبٍ إِلَى أَحَدِ الفَرِيقَيْنِ بَلْ وَقَفُوا عَلَى الحِيَادِ.

وَتَعَاهَدَ أَعْوَانُ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ عَلَى مُنَاصَرَةِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً، وَغَمَسَ قَادَتُهُمْ أَيْدِيَهُمْ بِالطِّيبِ عِنْدَ الكَعْبَةِ، فَعُرِفُوا بِـ «المُطَيَّبُونَ». وَتَحَالَفَ أَعْوَانُ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ كَذٰلِكَ، وَعُرِفُوا بِـ «الأَحْلَافِ».

وَعُبِئَتْ بَعْضُ البُطُونِ مَعَ بَعْضٍ، كَنَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ التَّحَالُفِ، إِذْ عُبِئَتْ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ مَعَ بَنِي سَهْمٍ.

وَعُبِئَتْ بَنُو أَسَدٍ مَعَ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ.

وَعُبِئَتْ بَنُو زُهْرَةَ مَعَ بَنِي جُمَحٍ.

وَعُبِئَتْ بَنُو تَيْمٍ مَعَ بَنِي مَخْزُومٍ.

وَعُبِئَتْ بَنُو الحَارِثِ مَعَ بَنِي عَدِيٍّ.

وَإِنَّ بَعْضَ البُطُونِ قَدْ تَنَافَسَتْ أَفْخَاذُهَا بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ فِي سَبِيلِ المُبَاهَاةِ وَالتَّفَاخُرِ، كَأُمَيَّةَ بنِ عَبْدِ شَمْسٍ

الَّذِي أَخَذَ يُنَافِسُ عَمَّهُ هَاشِماً. وَغَدَا بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو أُمَيَّةَ فِي سِبَاقٍ عَلَى الشَّرَفِ، وَمُبَاهَاةٍ عَلَى المَكَانَةِ حَتَّى جَاءَ الإِسْلَامُ.

وَعِنْدَ بِعْثَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ بَعْضُ سَادَةِ بُطُونِ قُرَيْشٍ قَدْ عُرِفَتْ مَكَانَتُهُمْ بَيْنَ قَبَائِلِ العَرَبِ كُلِّهَا لِبَذْلِهِمْ، أَوْ شَجَاعَتِهِمْ، أَوْ كَثْرَتِهِمْ بِٱلأَمْوَالِ وَٱلأَوْلَادِ، أَوْ لِمَكَانَتِهِمْ فِي قُرَيْشٍ سَيِّدَةِ مَكَّةَ، وَٱلْعَرَبُ يَأْتُونَ إِلَيْهَا حُجَّاجاً، وَيَحِلُّونَ بِهَا زُوَّاراً، وَيَأْتُونَ إِلَيْهَا تُجَّاراً، أَوْ يَحْمِلُونَ إِلَيهَا الرَّقِيقَ لِبَيْعِهِ فِي أَسْوَاقِهَا. كَمَا أَنَّ أَسْوَاقَ عُكَاظٍ وَذِي مَجَنَّةَ كَانَتْ تُقَامُ بِٱلْقُرْبِ مِنْ مَكَّةَ وَتَفِدُ إِلَيْهَا القَبَائِلُ العَرَبِيَّةُ جَمِيعُهَا تَسْمَعُ القَصَائِدَ، وَتَفْخَرُ بِشُعَرَائِهَا، وَتَبِيعُ وَتَشْتَرِي.

لَقَدْ بَرَزَ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ عَبْدُ المُطَّلِبِ بْنُ هَاشِمٍ جَدُّ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَسَادَ عَلَى مَكَّةَ كُلِّهَا، كَمَا ظَهَرَ بَعْضُ أَبْنَائِهِ مِنْ بَعْدِهِ، فَكَانَ لِوَلَدِهِ العَبَّاسِ السِّقَايَةَ، وَكَانَ عَبْدُ العُزَّى (أَبُو لَهَبٍ) وَلَدُهُ الآخَرُ مِنَ التُّجَّارِ.

وبَرَزَ مِنْ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ عُتْبَةُ وَشَيْبَةُ ٱبْنَا رَبِيعَةَ، وَمِنْ بَنِي

أُمَيَّةَ سَعِيدُ بْنُ العَاصِ، وَأَبُو سُفْيَانَ صَخْرُ بْنُ حَرْبٍ.

وظَهَرَ مِنْ بَنِي سَهْمٍ العَاصُ بْنُ وَائِلٍ.

وَمِنْ بَنِي جُمَحٍ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ، وَأُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ.

وَمِنْ بَنِي عَدِيٍّ الخَطَّابُ بْنُ نَفِيلٍ وَالِدُ عُمَرَ، وَزَيْدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ نفيلٍ.

وَمِنْ بَنِي عَامِرٍ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو.

وَمِنْ بَنِي مَخْزُومٍ الوَلِيدُ بْنُ المُغِيرَةِ وَالِدُ خَالِدٍ، وَأَبُو أُمَيَّةَ بْنُ المُغِيرَةِ وَالِدُ أُمِّ المُؤْمِنِينَ أُمِّ سَلَمَةَ الَّذِي كَانَ يُعْرَفُ بِـ«زَادِ الرَّكْبِ» حَيْثُ كَانَ كُلُّ مَنْ يَسيرُ فِي رَكْبٍ فِيهِمْ أَبُو أُمَيَّةَ لاَ يَحْمِلُ زَاداً، إِذْ يُزَوِّدُ أَبُو أُمَيَّةَ الرَّكْبَ كُلَّهُ. وَمِنْهُمْ هِشَامُ بْنُ المُغِيرَةِ، وَابْنُهُ عَمْرُو «أَبُو جَهْلٍ».

وَبَرَزَ عَدَدٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ حَيْثُ كَانَتْ الحِجَابَةُ بِأَيْدِيهِمْ إِضَافَةً إِلَى اللِّوَاءِ، وَكَذَا بَنُو زُهْرَةَ، وَبَنُو أَسَدٍ.

أَمَّا بَنُو تَيْمٍ فَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ مُنَافَسَةٌ، كَمَا لَمْ يَدْخُلُوا حَلَبَتَهَا،

بَلْ كَانُوا مُنْصَرِفِينَ إِلَى التِّجَارَةِ، وَإِلَى أَعْمَالِهِمْ الخَاصَّةِ، وَٱلتِّجَارَةُ تَقْتَضِي الهُدُوءَ وَٱلْمُعَامَلَةَ الحَسَنَةَ كَيْ تَرُوجَ، وَيُقْدِمَ عَلَيْهَا طُلَّابُهَا. وَهٰذَا مَا عُرِفَتْ بِهِ بَنُو تَيْمٍ، حَتَّى قَالَ الشَّاعِرُ فِيهِمْ.

وَيُقْضَى الأَمْرُ حِينَ تَغِيبُ تَيْمٌ   وَلاَ يُسْتَأْذَنُونَ وَهُمْ شُهُودُ

إِشَارَةً إِلَى عَدَمِ مُنَافَسَتِهِمْ لِغَيْرِهِمْ، وَعَدَمِ حُبِّهِمْ صَدَارَةَ المَجَالِسِ، وَزَعَامَةَ القَوْمِ، وَقِيَادَةَ الرَّكْبِ.

وَمِنْ هٰؤُلاَءِ ظَهَرَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

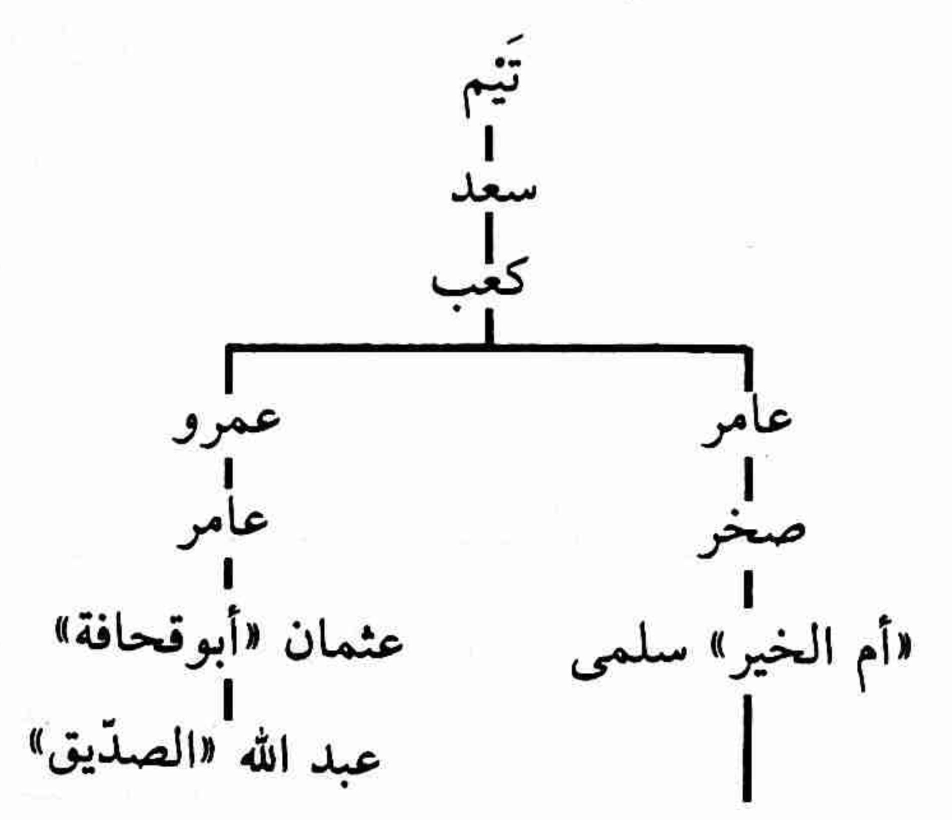
البَابُ الأَوَّل

الصِّدِّيقُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

الفصل الأول

قبل الإسلام

هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُثْمَانَ بْنِ عَامِرِ بْنِ عَمْرِو بْنِ كَعْبِ بْنِ سَعْدِ بنِ تَيْمٍ، وَتَعُودُ أُمُّهُ إِلَى بَنِي تَيْمٍ أَنْفُسِهِمْ فَهِيَ سَلْمَى بِنْتُ صَخْرِ بْنِ عَامِرِ بْنِ كَعْبٍ، فَهِيَ مِنْ بَنِي عُمُومَةِ أَبِيهِ لِذَا لَيْسَ غَرِيباً أَنْ يَحْمِلَ الصِّدِّيقُ صِفَاتِ قَوْمِهِ بَنِي تَيْمٍ فِي الهُدُوءِ، وَحُسْنِ المُعَامَلَةِ، وَٱلْعَمَلِ بِٱلْتِّجَارَةِ.



وُلِدَ أَبُو بَكْرٍ فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ مِنْ عَامِ الفِيلِ، فَهُوَ أَصْغَرُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِسَنَتَيْنِ وَبِضْعَةِ أَشْهُرٍ.

لُقِّبَ «عَتِيق» هَكَذَا كَانَ لَقَبُهُ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: أَبُو قُحَافَةَ كَانَ اسْمُهُ عَتِيقاً. أَيْ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَدْ أَخَذَ لَقَبَ أَبِيهِ[1].

وَسُئِلَتْ عَائِشَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لِمَ سُمِّيَ أَبُو بَكْرٍ عَتِيقاً؟ فَقَالَتْ: نَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «هٰذَا عَتِيقُ اللَّهِ مِنَ النَّارِ»[2].

وَعَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: إِنِّي لَفِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ، وَأَصْحَابُهُ فِي الفِنَاءِ، وَبَيْنِي وَبَيْنَهُمُ السِّتْرُ إِذْ أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى عَتِيقٍ مِنَ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هٰذَا، قَالَتْ: وَإِنَّ ٱسْمَهُ ٱلَّذِي سَمَّاهُ بِهِ أَهْلُهُ لَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُثْمَانَ بْنُ عَامِرِ بْنُ عَمْرٍو، لٰكِنْ غَلَبَ عَلَيْهِ عَتِيقُ[3].

وَقِيلَ: عُرِفَ بِٱلْعَتِيقِ لِجَمَالِ وَجْهِهِ، مِنَ الْعَتَاقَةِ، وَهِيَ

(١) طبقات ابن سعد، ج ٣ ص ١٦٩.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٧٠.
(٣) المصدر نفسه.

الجُودَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ. وَقِيلَ: بَلْ مِنَ العِتْقِ، لأَنَّ أُمَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ فَاسْتَقْبَلَتْ بِهِ الكَعْبَةَ، وَقَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنَّ هٰذَا عَتِيقُكَ مِنَ النَّارِ فَهَبْهُ لِي. فَعَاشَ، فَعُرِفَ بِٱسْمِ عَتِيق... وَقِيلَ غَيْرُ ذٰلِكَ: إِنَّهُ أَحَدُ ثَلاَثَةِ أَبْنَاءٍ هُمْ: عَتِيقٌ، وَمُعْتِقٌ، وَمُعَيْتِيقٌ، سُمُّوا بِذٰلِكَ تفَاؤُلاً بِٱلْعَيْشِ وَٱلْعِتْقِ مِنَ المَوْتِ.

وَعُرِفَ كَمَا قِيلَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ بِٱسْمِ عَبْدِ الكَعْبَةِ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ، ثُمَّ عَبْدِ اللَّهِ فِي الإِسْلَامِ[1].

نَشَأَ الصِّدِّيقُ وَدُوداً أَلِيفاً، يَأْلَفُ وَيُؤْلَفُ، مُنْصَرِفاً إِلَى عَمَلِهِ بِكُلِّيَتِهِ، بَعِيداً عَنِ المَرَحِ وَإِضَاعَةِ الوَقْتِ، لِذَا كَانَ لاَ يَخْتَلِطُ بِأَتْرَابِهِ مِنْ شَبَابِ مَكَّةَ إِلاَّ قَلِيلاً إِذِ ٱعْتَادُوا عَلَى السَّمَرِ، وَتَعَوَّدُوا عَلَى الانْصِرَافِ إِلَى المُتْعَةِ وَٱلْحَدِيثِ عَنِ النِّسَاءِ، وَٱلْكَلَامِ عَنِ الإِمَاءِ، غَيْرَ أَنَّهُ وَجَدَ فِي أَحَدِهِمْ طِبَاعاً شَبِيهَةً بِطِبَاعِهِ، وَأَخْلاَقاً قَرِيبَةً مِنْ أَخْلاَقِهِ، لاَ يُشَارِكُ قُرَيْشاً بِٱلذَّهَابِ إِلَى أَصْنَامِهَا وَلاَ فِي تَقْدِيسِ أَوْثَانِهَا، وَلاَ يَقْبَلُ فِي أَقْوَالِ العَرَّافِينَ الَّذِينَ كَانَتْ لَهُمْ يَوْمَذَاكَ مَكَانَةٌ، كَمَا يَبْتَعِدُ عَنْ سَمَرِ الشَّبَابِ، وَلَهْوِ الأَتْرَابِ. فَنَشَأَتْ بَيْنَ الصِّدِّيقِ وَبَيْنَ ذَاكَ الشَّابِّ، وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الهَاشِمِيُّ مَوَدَّةٌ صَادِقَةٌ وَمَحَبَّةٌ أَكِيدَةٌ.

---

(١) عبقرية الصديق: عباس محمود العقاد.

كَانَ الصِّدِّيقُ يَنْظُرُ إِلَى صَدِيقِهِ نَظْرَةً كُلُّهَا إِعْجَابٌ وَتَقْدِيرٌ، فَهُوَ صَادِقٌ لاَ يَعْرِفُ الكَذِبَ أَبَداً بَلْ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَخْطُرَ عَلَى بَالِهِ، وَهُوَ أَمِينٌ تَتَجَلَّىٰ فِيهِ الأَمَانَةُ بِأَسْمَىٰ مَعَانِيهَا، وَهُوَ مُسْتَقِيمٌ فِي سُلُوكِهِ وَتَصَرُّفَاتِهِ، لاَ يَنْحَازُ إِلَى جِهَةٍ وَلَوْ كَانَتْ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْهِ، وَلاَ يَنْحَرِفُ عَنْ جِهَةٍ وَلَوْ كَانَتْ أَبْعَدَ البَشَرِ عَنْهُ وَأَبْغَضَهُمْ إِلَيْهِ، لاَ يَفْعَلُ شَيْئاً فِي الخَفَاءِ يَخْجَلُ مِنْ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ الخَلْقُ، بَلْ لاَ يَتَفَوَّهُ بِكَلِمَةٍ فِي السِّرِّ لاَ يُحِبُّ أَنْ يَسْمَعَهَا النَّاسُ جَمِيعاً، وَفِي المُقَابِلِ فَإِنَّ مُحَمَّداً يُقَدِّرُ لِصَدِيقِهِ أَخْلاَقَهُ، وَيُحِبُّ مِنْهُ سُلُوكَهُ، وَيُبَادِلُهُ حُبّاً بِحُبٍّ.

وَإِنَّ قُرَيْشاً كُلَّهَا لَتُقَدِّرُ الرَّجُلَيْنِ، وَتَعْرِفُ لَهُمَا مَكَانَتَهُمَا، فَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الهَاشِمِيُّ عِنْدَهَا هُوَ الصَّادِقُ الأَمِينُ، المُسْتَقِيمُ ذُو الحِكْمَةِ، فَقَدْ حَضَرَ حِلْفَ الفُضُولِ مَعَ أَشْيَاخِهَا، وَلَمْ يَزِدْ عُمْرُهُ كَثِيراً عَلَى العِشْرِينَ، وَعِنْدَمَا ٱخْتَلَفُوا عَلَى وَضْعِ الحَجَرِ الأَسْوَدِ فِي بِنَاءِ الكَعْبَةِ، وَٱتَّفَقُوا عَلَى قَبُولِ حُكْمِ أَوَّلِ مَنْ يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ، فَلَمَّا دَخَلَ مُحَمَّدُ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضُوا جَمِيعاً بِهِ حَكَماً وَقَالُوا بِصَوْتٍ وَاحِدٍ: رَضِينَا بِهِ حَكَماً، إِنَّهُ الصَّادِقُ الأَمِينُ.

وَكَانَتْ قُرَيْشٌ تُقَدِّرُ أَبَا بَكْرٍ، فَكَانَ يَتَوَلَّى أَمْرَ الدِّيَّاتِ،

وَيَنُوبُ فِيهَا عَنْ قُرَيْشٍ، فَمَا تَوَلاَّهُ مِنْ هٰذِهِ الدِّيَّاتِ صَدَّقَتْهُ قُرَيْشٌ فِيهِ، وَقَبِلَتْهُ، وَمَا تَوَلاَّهُ غَيْرُهُ خَذَلَتْهُ وَتَرَدَّدَتْ فِي قَبُولِهِ وَإِمْضَائِهِ.

وَلَمَّا كَانَ أَبُو بَكْرٍ بَعِيداً عَنِ اللَّهْوِ لِذَا كَانَ يُشْغِلُ فِكْرَهُ فِي وَقْتِ فَرَاغِهِ بِبُطُونِ قُرَيْشٍ وَأَنْسَابِهَا حَتَّى أَصْبَحَ أَكْثَرَ أَفْرَادِهَا مَعْرِفَةً بِأَنْسَابِهَا وَأَفْخَاذِهَا، وَعَرَفَتْ لَهُ قُرَيْشٌ هٰذَا، وَكَانَ زُعَمَاؤُهَا يَسْأَلُونَهُ وَيَأْخُذُونَ بِرَأْيِهِ وَيَحْتَرِمُونَهُ.

وَكَانَتْ تِجَارَتُهُ رَائِجَةً لِمَحَبَّةِ قُرَيْشٍ لَهُ، وَحُسْنِ مُعَامَلَتِهِ، وَصِدْقِهِ الحَدِيثَ، وَجُودَةِ البِضَاعَةِ.

زَوَاجُ أَبِي بَكْرٍ:

لَمَّا بَلَغَ أَبُو بَكْرٍ الثَّالِثَةَ وَالعِشْرِينَ مِنَ العُمْرِ تَزَوَّجَ أُمَّ رُومَانَ بِنْتَ عَامِرٍ مِنْ كِنَانَةَ، فَأَنْجَبَتْ لَهُ عَبْدَ الرَّحْمٰنِ، وَعَائِشَةَ. وَمَا أَنْ أَنْجَبَتْ لَهُ عَبْدَ الرَّحْمٰن حَتَّى تَزَوَّجَ بِٱمْرَأَةٍ أُخْرَى هِيَ قُتَيْلَةُ بِنْتُ عَبْدِ العُزَّى مِنْ بَنِي عَامِرٍ مِنْ قُرَيْشٍ فَأَنْجَبَتْ لَهُ عَبْدَ اللَّهِ وَأَسْمَاءَ، وَلٰكِنْ طَلَّقَهَا بَعْدَئِذٍ.

وَكَانَ زَوَاجُهُ فِي هَاتَيْنِ المَرَّتَيْنِ قَبْلَ الإِسْلَامِ، وَكَانَ زَوَاجاً سَعِيداً، وَجَدَتِ الأُسْرَةُ فِيهِ الهَنَاءَةَ والطُّمَأْنِينَةَ، وَلَمْ يَحْدُثْ فِيهِ مَا يُنَغِّصُ العَيْشَ، وَلاَ مَا يُشْغِلُ البَالَ، فِيهِ حَنَانُ الأُبُوَّةِ،

وَعَاطِفَةُ البُنُوَّةِ، وَرَحْمَةٌ، وَحُبٌّ، وَسَكَنُ الزَّوْجِيَّةِ.

وَوَجَدَ أَبُو قُحَافَةَ وَأُمُّ الخَيْرِ فِي وَلَدِهِمَا الابْنَ الصَّالِحَ البَارَّ، والرَّجُلَ صَاحِبَ المَكَانَةِ وَالْوَقَارِ، وَالتَّاجِرَ الأَمِينَ المَحْبُوبَ بَيْنَ قَوْمِهِ. وَوَجَدَا فِي زَوْجَتَيْهِ الشَّفَقَةَ وَالخِدْمَةَ والتَّعَاوُنَ. وَرَأَيَا فِي أَحْفَادِهِمَا السُّرُورَ والأُنْسَ. فَالْحَيَاةُ فِي الأُسْرَةِ كَانَتْ عِيشَةً هَنِيئَةً يَغْمُرُهَا الحُبَّ، وَتَطْفَحُ عَلَيْهَا السَّعَادَةُ، وَتُظَلِّلُهَا المَوَدَّةُ رَغْمَ طَلَاقِ الزَّوْجَةِ الثَّانِيَةِ «قُتَيْلَةَ».

الفصل الثاني

الصِّدِّيقُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مَكَّةَ

بُعِثَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَسُولاً، وَكُلِّفَ بِحَمْلِ الأَمَانَةِ وَإِبْلَاغِ الرِّسَالَةِ، وَإِنْذَارِ عَشِيرَتِه الأَقْرَبِينَ حَيْثُ يَعْرِفُونَهُ تَمَامَ المَعْرِفَةِ، وَيَعْلَمُونَ صِدْقَهُ إِذْ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَصْدُقَ مَعَ النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ.

أَبْلَغَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَهْلَ بَيْتِهِ الَّذِينَ يَعِيشُونَ مَعَهُ فَصَدَّقَتْهُ زَوْجُهُ خَدِيجَةُ، وَأَسْلَمَتْ فَكَانَتْ أَوَّلَ النِّسَاءِ إِسْلَاماً، وَأَسْلَمَ ٱبْنُ عَمِّهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَكَانَ يَعِيشُ عِنْدَهُ، فَهُوَ أَوَّلُ الأَوْلَادِ إِسْلَاماً. وَأَسْلَمَ مَوْلَاهُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ فَكَانَ أَوَّلَ المَوَالِي إِسْلاماً.

ثُمَّ ٱنْتَقَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى خَارِجِ بَيْتِهِ فَكَلَّمَ صَدِيقَهُ أَبَا بَكْرٍ فَصَدَّقَهُ، وَأَسْلَمَ فَكَانَ أَوَّلَ الرِّجَالِ إِسْلَاماً. كَيْفَ لاَ يُصَدِّقُهُ وَمَا جَرَّبَ عَلَيْهِ كَذِباً؟ كَيْفَ لاَ يُصَدِّقُهُ

وَهُوَ أَدْرَى النَّاسِ بِهِ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ أَهْلٌ لِلرِّسَالَةِ وَحَمْلِ الأَمَانَةِ؟.
وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا دَعَوْتُ أَحَداً إِلَى الإِسْلَامِ إِلاَّ كَانَتْ مِنْهُ عِنْدَهُ كِبْرَةٌ، وَنَظَرٌ، وَتَرَدُّدٌ، إِلاَّ مَا كَانَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ مَا عَكَمَ عَنْهُ[1] حِينَ ذَكَرْتُهُ لَهُ، وَمَا تَرَدَّدَ فِيهِ»[2].

لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ أَبِي بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، تَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الإِسْلَامِ، حَيْثُ نَجِدُ أَنَّ غَالِبِيَّةَ الَّذِينَ وَقَفُوا فِي وَجْهِ الدَّعْوَةِ كَانَ فِي نُفُوسِهِمْ كِبْرٌ، أَوْ خَافُوا عَلَى مَصَالِحِهِمْ أَنْ تَضِيعَ أَوْ عَلَى شَهَوَاتِهِمْ أَنْ تَزُولَ، أَوْ كَانَ عِنْدَهُمْ خَوْفٌ مِنْ مُوَاجَهَةِ الآخَرِينَ، أَوْ كَانُوا تِبْعاً لِغَيْرِهِمْ يَسِيرُونَ فِي دَرْبِهِمْ وَيَتَلَقَّوْنَ التَّوْجِيهَ مِنْهُمْ، أَوْ كَانَتْ عِنْدَهُمْ عَصَبِيَّةٌ لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّفْكِيرِ وَالسُّلُوكِ، أَوْ عِنْدَهُمْ عُقْمٌ فِي الفِكْرِ لَمْ يَسْتَطِيعُوا فَهْمَ أَهْدَافِ الدَّعْوَةِ الإِسْلَامِيَّةِ وَمَبَادِئِهَا السَّامِيَةِ الَّتِي تَقُومُ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ الوَاحِدِ الأَحَدِ وَنَبْذِ كُلِّ مَا عَدَاهُ مِنْ مَخْلُوقَاتٍ وَأَصْنَامٍ.

لَمْ يَكُنْ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ شَيْءٌ مِنْ هٰذا، فَٱلْكِبْرِيَاءُ تَحُولُ دُونَ سَمَاعِ صَاحِبِهَا لِقَوْلِ غَيْرِهِ أَوْ التَّفْكِيرِ فِيهِ، أَوِ الانْصِيَاعِ إِلَى الحَقِّ مَهْمَا كَانَتْ مَكَانَةُ قَائِلِهِ، كَمَا يَخَافُ صَاحِبُ السِّيَادَةِ ضَيَاعَ

---

(١) ما عكم عنه: ما تأخر عنه.

(٢) سيرة ابن هشام.

مَرْكَزِهِ لِذَا يَرْفُضُ أَنْ يَصِيخَ لِدَعْوَةِ الحَقِّ. وَيَخَافُ صَاحِبُ المَصْلَحَةِ عَلَى مَصْلَحَتِهِ فَيَأْبَى السَّيْرَ فِي الطَّرِيقِ المُسْتَقِيمِ حَيْثُ خَشِيَ زُعَمَاءُ قُرَيْشٍ عَلَى ضَيَاعِ تَسَلُّطِهِمْ عَلَى الضُّعَفَاءِ، وَتَصَرُّفِهِمْ فِي الإِمَاءِ، وَٱسْتِبْدَادِهِمْ بِٱلأَرِقَّاءِ، وَأَكْلِهِمُ الأَمْوَالَ بِٱلْبَاطِلِ، وَخَافَ سَدَنَةُ الأَصْنَامِ عَلَى فِقْدَانِ فَوَائِدِهِمُ الَّتِي يَجْنُونَهَا مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَكَذَا العَرَّافُونَ. وَخَشِيَ الضُّعَفَاءُ مِنْ مُوَاجَهَةِ طُغَاةِ قُرَيْشٍ الَّذِينَ يَرْهَبُونَهُمْ. وَكَذَا خَافَ الجُبَنَاءُ الَّذِينَ لَيْسَ عِنْدَهُمْ ٱسْتِعْدَادٌ مِنَ الوُقُوفِ أَمَامَ أُولٰئِكَ المُتَغَطْرِسِينَ مِنْ سَادَةِ قُرَيْشٍ. وَلاَ شَكَّ فَإِنَّ أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُوهَبُوا عَقْلاً نَيِّراً وَفِكْراً رَاجِحاً لَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنَ التَّمْيِيزِ بَيْنَ مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّاسُ فِي الجَاهِلِيَّةِ وَبَيْنَ الدَّعْوَةِ إِلَى الإِسْلاَمِ لِذَا فَقَدْ تَمَسَّكُوا بِمَا وَجَدُوا عَلَيْهِ آبَاءَهُمْ وَمُجْتَمَعَهُمْ، وَكَذٰلِكَ تَمَسَّكَ أَصْحَابُ العَصَبِيَّاتِ، فَٱلْمُشْرِكُونَ تَعَصَّبُوا لأَصْنَامِهِمْ، وَتَعَصَّبَ أَهْلُ الكِتَابِ لِمَا وَرِثُوهُ مِنْ ضَلاَلاَتٍ وَٱنْحِرَافَاتٍ بَلْ خَشِيَ اليَهُودُ عَلَى فِقْدَانِهِمْ مَا يَجْنُونَ مِنَ المُتَاجَرَةِ بِٱلْجِنْسِ وَٱلْخُمُورِ وَٱلسِّلاَحِ، لِهٰذَا كُلِّهِ أَبَى هٰؤُلاَءِ جَمِيعاً دَعْوَةَ الحَقِّ، وَوَقَفُوا فِي وَجْهِهَا، وَحَاوَلُوا ثَنْيَ حَمَلَتِهَا عَنْ مُهِمَّتِهِمْ.

لَمْ يَكُنْ أَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، صَاحِبَ مَصْلَحَةٍ أَوْ

عَصَبِيَّةٍ، أَوْ شَهْوَةٍ، وَلَمْ يَكُنْ جَبَاناً أَوْ ذَا عَقْلٍ سَقِيمٍ، أَو مُتَكَبِّراً أَوْ تَبْعاً لِغَيْرِهِ، بَلْ كَانَ شُجاعَاً ذَا فِكْرٍ نَاضِجٍ وَرَأْيٍ سَدِيدٍ، وَيَنْطَلِقُ مِنْ قَنَاعَاتِهِ الخَاصَّةِ، وَكَانَ ذَا شَخْصِيَّةٍ قَوِيَّةٍ وَهِمَّةٍ عَالِيَةٍ، إِضَافَةً إِلَى مَعْرِفَتِهِ لِصَاحِبِ الدَّعْوَةِ مَعْرِفَةً تَامَّةً لِذَا أَسْرَعَ مُقْبِلاً عَلَى الدَّعْوَةِ مَصَدِّقاً صَاحِبَهَا وَاضِعاً نَفْسَهُ فِي مُوَاجَهَةِ الطُّغَاةِ مِنْ زُعَمَاءِ قُرَيْشٍ.

كَانَ أَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مَحْبُوباً بَيْنَ قَوْمِهِ فَكَانَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَأْتُونَ إِلَى مَجْلِسِهِ حُبّاً فِي مُجَالَسَتِهِ، أَوْ سُؤَالاً لَهُ فِي بَعْضِ الأُمُورِ الَّتِي يُعَدُّ المَرْجِعَ فِيهَا كالأَنْسَابِ وَالتِّجَارَةِ، فَأَخَذَ يَدْعُو مَنْ يَجِدُ فِيهِ الأَهْلِيَّةَ، وَيَجِدُ فِيهِ الخَيْرَ لِيَكُونَ عِنْوَانَ الدَّعْوَةِ، وَلِيَكُونَ المُسْلِمُونَ خِيرَةَ المُجْتَمَعِ. فَأَسْلَمَ بِدَعْوَتِهِ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ العَوَّامِ، وَعَبْد الرَّحْمٰنِ بْنُ عَوْفٍ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ. وَأَخَذَ الصِّدِّيقُ هٰؤُلاَءِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَخْبَرَهُ بِإِسْلاَمِهِمْ، وَأَعْلَنُوا هُمْ ذٰلِكَ لِرَسُولِهِمُ الكَرِيمِ.

كَمَا أَسْلَمَتْ ٱبْنَتَا الصِّدِّيقِ أَسْمَاءُ وَعَائِشَةُ، وَعَائِشَةُ يَوْمَئِذٍ صَغِيرَةٌ بَلْ نَشَأَتْ عَلَى الإِسْلاَمِ، فَلَمْ تَعْرِفْ أَبَوَيْهَا إِلاَّ مُسْلِمَيْنِ.

جَعَلَ الصِّدِّيقُ مَالَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، يُقَدِّمُهُ لِمَنْ يَرَى أَنَّهُ

بِحَاجَةٍ إِلَيْهِ مِنَ المُسْلِمِينَ، وَيَشْتَرِي مَنْ يُسْلِمْ مِنَ الأَرِقَّاءِ، ثُمَّ يُعْتِقُ مَنِ ٱشْتَرَى.

كَانَ بِلاَلُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَبْداً عِنْدَ بَعْضِ بَنِي جُمَحٍ، فَأَسْلَمَ، فَأَخَذَ سَادَةُ بَنِي جُمَحٍ يُعَذِّبُونَهُ، وَخَاصَّةً أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ، فَيُخْرِجُهُ إِذَا حَمِيَتِ الظَّهِيرَةُ، فَيَطْرَحُهُ عَلَى ظَهْرِهِ فِي بَطْحَاءِ مَكَّةَ، ثُمَّ يَأْمُرُ بِٱلصَّخْرَةِ العَظِيمَةِ فَتُوضَعُ عَلَى صَدْرِهِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: لاَ واللَّهِ لاَ تَزَالَ هٰكَذَا حَتَّى تَمُوتَ، أَوْ تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ، وَتَعْبُدُ اللاَّتَ والعُزَّى، فَيَقُولُ وَهُوَ فِي ذٰلِكَ البَلاَءِ: أَحَدٌ أَحَدٌ.

وَمَرَّ بِهِ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَوْماً، وَهُمْ يَصْنَعُونَ ذٰلِكَ بِهِ، وَكَانَتْ دارُ أَبِي بَكْرٍ فِي بَنِي جُمَحٍ، فَقَالَ لأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ: أَلاَ تَتَّقِي اللَّهَ فِي هٰذَا المِسْكِينِ؟ حَتَّى مَتَى! قَالَ: أَنْتَ الَّذِي أَفْسَدْتَهُ فَأَنْقِذْهُ مِمَّا تَرَىٰ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَفْعَلُ، عِنْدِي غُلاَمٌ أَسْوَدُ أَجْلَدُ مِنْهُ وَأَقْوَى، عَلَى دِينِكَ، أُعْطِيكَهُ بِهِ؛ قَالَ: قَدْ قَبِلْتُ؛ فَقَالَ: هُوَ لَكَ. فَأَعْطَاهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، غُلاَمَهُ ذٰلِكَ، وَأَخَذَ بِلاَلاً فَأَعْتَقَهُ.

ثُمَّ أَعْتَقَ مَعَهُ عَلَى الإِسْلاَمِ قَبْلَ أَنْ يُهَاجِرَ إِلَى المَدِينَةِ سِتَّ رِقَابٍ، بِلاَلُ سَابِعُهُمْ: عَامِرَ بْنَ فُهَيْرَةَ، شَهِدَ بَدْراً وَأُحُداً، وَقُتِلَ يَوْمَ بِئْرِ مَعُونَةَ شَهِيداً، وَأُمَّ عُبَيْسٍ، وَزِنِّيرَةَ، وَأُصِيبَ بَصَرُهَا يَوْمَ

أَعْتَقَهَا، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: مَا أَذْهَبَ بَصَرَهَا إِلاَّ اللاَّتُ وَٱلْعُزَّى؛ فَقَالَتْ: كَذَبُوا وَبَيْتِ اللَّهِ، مَا تَضُرُّ اللاَّتُ وَٱلْعُزَّى وَمَا تَنْفَعَانِ، فَرَدَّ اللَّهُ بَصَرَهَا.

وَأَعْتَقَ النَّهْدِيَّةَ وَبِنْتَهَا، وَكَانَتَا لاِمْرَأَةٍ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ، فَمَرَّ بِهِمَا، وَقَدْ بَعَثَتْهُمَا سَيِّدَتُهُمَا بِطَحِينٍ لَهَا، وَهِيَ تَقُولُ: واللَّهِ لاَ أُعْتِقُكُمَا أَبَداً! فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حِلٌّ[1] يا أُمَّ فُلاَنٍ، فَقَالَتْ: حِلٌّ، أَنْتَ أَفْسَدْتَهُمَا فَأَعْتِقْهُمَا؛ قَالَ: فَبِكَمْ هُمَا؟ قَالَتْ: بِكَذَا وَكَذَا، قَالَ: قَدْ أَخَذْتُهُمَا وَهُمَا حُرَّتَانِ، أَرْجِعَا إِلَيْهَا طَحِينَهَا، قَالَتَا: أَوَ نَفْرُغُ مِنْهُ يَا أَبَا بَكْرٍ، ثُمَّ نَرُدُّهُ إِلَيْهَا؟ قَالَ: وَذٰلِكَ إِنْ شِئْتُمَا.

وَمَرَّ بِجَارِيَةِ بَنِي مُؤَمَّلٍ، حَيٌّ مِنْ بَنِي عَدِيِّ بْنِ كَعْبٍ، وَكَانَتْ مُسْلِمَةً، وَعُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ يُعَذِّبُهَا لِتَتْرُكَ الإِسْلاَمَ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ مُشْرِكٌ، وَهُوَ يَضْرِبُهَا، حَتَّىٰ إِذَا مَلَّ قَالَ: إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ، إِنِّي لَمْ أَتْرُكْكِ إِلاَّ مَلاَلَةً؛ فَتَقُولُ: كَذٰلِكَ فَعَلَ اللَّهُ بِكَ. فَٱبْتَاعَهَا أَبُو بَكْرٍ، فَأَعْتَقَهَا.

قَالَ أَبُو قُحَافَةَ لِوَلَدِهِ أَبِي بَكْرٍ: يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَاكَ تُعْتِقُ رِقَاباً ضِعَافاً، فَلَوْ أَنَّكَ إِذْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ أَعْتَقْتَ رِجَالاً جُلْداً

(١) حلّ: تحلّلي من يمينك واستثني فيها.

يَمْنَعُونَكَ وَيَقُومُونَ دُونَكَ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا أَبَتِ، إِنِّي إِنَّمَا أُرِيدُ مَا أُرِيدُ، لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ[1].

كَانَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَرْبَعُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، فَلَمَّا هَاجَرَ إِلَى المَدِينَةِ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ سِوَى خَمْسَةِ آلاَفِ دِرْهَمٍ، وَأَمَّا ٱلبَاقِي وَهُوَ خَمْسَةٌ وَثَلاَثُونَ أَلْفاً فَقَدْ أَنْفَقَهَا كُلَّهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِلدَّعْوَةِ وَفِي عَتْقِ الرِّقَابِ المُسْلِمَةِ.

وَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَا يُصِيبُ أَصْحَابَهُ مِنَ البَلاَءِ، وَمَا هُوَ فِيهِ مِنَ العَافِيَةِ، بِمَكَانِهِ مِنَ اللَّهِ، وَمِنْ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَنَّهُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَمْنَعَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ البَلاَءِ، قَالَ لَهُمْ: لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَى أَرْضِ الحَبَشَةِ، فَإِنَّ بِهَا مَلِكاً لاَ يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ، وَهِيَ أَرْضُ صِدْقٍ، حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجاً مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ. فَخَرَجَ عِنْدَ ذٰلِكَ المُسْلِمُونَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى أَرْضِ الحَبَشَةِ، مَخَافَةَ الفِتْنَةِ، وَفِرَاراً إِلَى اللَّهِ بِدِينِهِمْ فَكَانَتْ أَوَّلُ هِجْرَةٍ فِي الإِسْلاَمِ[2]، غَيْرَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ مِمَّنْ بَقِيَ فِي مَكَّةَ مَعَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. يُرِيدُ البَقَاءَ بِجَانِبِ

(١) سيرة ابن هشام.
(٢) المصدر نفسه.

رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَٱلْدِّفَاعَ عَنْهُ إِنْ دَعَتِ الحَاجَةُ، وَإِظْهَارَ التَّحَدِّي لِطُغَاةِ قُرَيْشٍ. وَلٰكِنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الأَمْرُ بَعْدَ مُدَّةٍ.

وَحِينَ ضَاقَتْ عَلَيْهِ مَكَّةُ، وَأَصَابَهُ فِيهَا الأَذَى، وَرَأَى مِنْ تَظَاهُرِ قُرَيشٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَصْحَابِهِ مَا رَأَى، ٱسْتَأْذَنَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي الهِجْرَةِ فَأَذِنَ لَهُ، فَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِراً، حَتَّى إِذَا سَارَ مِنْ مَكَّةَ يَوْماً أَوْ يَوْمَيْنِ، لَقِيَهُ ابْنُ الدُّغُنَّةِ، أَخُو بَنِي الحَارِثِ بنِ عَبْدِ مَنَاةِ بنِ كِنَانَةَ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ سَيِّدَ الأَحَابِيشِ، فَقَالَ ابْنُ الدُّغُنَّةِ: أَيْنَ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ قَالَ: أَخْرَجَنِي قَوْمِي وَآذَوْنِي، وَضَيَّقُوا عَلَيَّ؛ قَالَ: وَلِمَ؟ فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَزِينُ العَشِيرَةَ، وَتُعِينُ عَلَى النَّوَائِبِ، وَتَفْعَلُ المَعْرُوفَ، وَتُكْسِبُ المَعْدُومَ، ٱرْجِعْ فَأَنْتَ فِي جِوَارِي. فَرَجَعَ مَعَهُ، حَتَّى إِذَا دَخَلَ مَكَّةَ قَامَ ابنُ الدُّغُنَّةَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنِّي قَدْ أَجَرْتُ ابْنَ أَبِي قُحَافَةَ، فَلاَ يَعْرِضَنَّ لَهُ أَحَدٌ إِلاَّ بِخَيْرٍ، فَكَفُّوا عَنْهُ.

وَكَانَ لأَبِي بَكْرٍ مَسْجِدٌ عِنْدَ بَابِ دَارِهِ فِي بَنِي جُمَحٍ، فَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ، وَكَانَ رَجُلاً رَقِيقاً، إِذَا قَرَأَ القُرْآنَ اسْتَبْكَى، فَيَقِفُ عَلَيْهِ الصِّبْيَانُ وَٱلْعَبِيدُ والنِّسَاءُ يَعْجَبُونَ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ هَيْئَتِهِ. فَمَشَى رِجَالٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى ابْنِ الدُّغُنَّةِ فَقَالُوا لَهُ: يَا بْنَ الدُّغُنَّةِ، إِنَّكَ

لَمْ تُجِرْ هٰذَا الرَّجُلَ لِيُؤْذِينَا! إِنَّهُ رَجُلٌ إِذَا صَلَّى وَقَرَأَ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ يَرِقُّ وَيَبْكِي، وَكَانَتْ لَهُ هَيْئَةٌ وَنَحُو، فَنَحْنُ نَتَخَوَّفُ عَلَى صِبْيَانِنَا وَنِسَائِنَا وَضُعْفَتِنَا أَنْ يَفْتِنَهُمْ، فَأْتِهِ فَمُرْهُ أَنْ يَدخُلَ بَيْتَهُ فَلْيَصْنَعْ فِيهِ مَا شَاءَ. فَمَشَى ابْنُ الدُّغُنَّةِ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا بَكْرٍ، أَنَا لَمْ أُجِرْكَ لِتُؤْذِيَ قَوْمَكَ، إِنَّهُمْ قَدْ كَرِهُوا مَكَانَكَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ، وَتَأَذَّوْا بِذٰلِكَ مِنْكَ، فَٱدْخُلْ بَيْتَكَ، فَٱصْنَعْ فِيهِ مَا أَحْبَبْتَ؛ قَالَ: أَوَ أَرُدُّ عَلَيْكَ جِوَارَكَ وَأَرْضَى بِجِوَارِ اللَّهِ؟ قَالَ: فَٱرْدُدْ عَلَيَّ جِوَارِي؛ قَالَ: قَدْ رَدَدْتُهُ عَلَيْكَ. فَقَامَ ابْنُ الدُّغُنَّةِ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّ ابْنَ أَبِي قُحَافَةَ قَدْ رَدَّ عَلَيَّ جِوَارِي، فَشَأْنُكُمْ بِصَاحِبِكُمْ.

أَيُّ شَجَاعَةٍ هٰذِهِ فِي الوَقْتِ الَّذِي يُؤْذَى فِيهِ المُسْلِمُونَ، وَيَسْتَخْفُونَ بِدِينِهِمْ، يَجْعَلُ أَبُو بَكْرٍ مَسْجِداً فِي بَيْتِهِ وَرَاءَ البَابِ، وَيُصَلِّي بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ، وَيَقْرَأُ القُرْآنَ، وَيَجْتَمِعُ النَّاسُ، وَلاَ يُبَالِي أَحَداً.

وَيُنْفِقُ أَمْوَالَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، لاَ يَخَافُ فَقْراً، فَهُوَ عَلَى يَقِينٍ أَنَّ الأَرْزَاقَ بِيَدِ اللَّهِ، وَأَنَّ المَالَ مَالُ اللَّهِ، والإِنْسَانُ مُسْتَخْلَفٌ عَلَيْهِ، وَٱلْمَالُ وَسِيلَةٌ عِنْدَ المَرْءِ لاَ غَايَةٌ.

وَيَرْفُضُ الجِوَارَ، جِوَارَ ابْنِ الدُّغُنَّةِ عِنْدَمَا يُحِسُّ أَنَّ فِيهِ

مُسَاوَمَةً عَلَى دِينِهِ، وَفِيهِ خَوْفٌ مِنَ النَّاسِ، وَيَرْضَى بِجِوَارِ اللَّهِ، وَيَزِيدُهُ ذٰلِكَ إِيمَاناً.

وَاشْتَدَّ أَذَى المُشْرِكِينَ عَلَى المُسْلِمِينَ، وَكَانَ حِصَارُهُمْ فِي شِعْبِ أَبِي طَالِبٍ، وَكَانَتْ مُقَاطَعَتُهُمْ، ثُمَّ نُقِضَتِ الصَّحِيفَةُ الَّتِي نَصَّتْ عَلَى ذٰلِكَ. وَكَانَتْ بَعْدَها حَادِثَةُ الإِسْرَاءِ وَٱلْمِعْرَاجِ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تَسْلِيَةً لِرَسُولِ اللَّهِ، وَتَطْيِيباً لِخَاطِرِهِ مِمَّا يُعَانِي، وَلَمَّا رَجَعَ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ إِلَى مَكَّةَ، وَأَصْبَحَ غَدَا عَلَى قُرَيْشٍ فَأَخْبَرَهُمُ الخَبَرَ، فَقَالَ أَكْثَرُ النَّاسِ: هٰذَا واللَّهِ الإِمْرُ[1] البَيِّنُ، واللَّهِ إِنَّ العِيرَ لَتَطْرُدُ شَهْراً مِنْ مَكَّةَ إِلَى الشَّامِ مُدْبِرَةً، وَشَهْراً مُقْبِلَةً، أَفَيَذْهَبُ ذَلِكَ مُحَمَّدٌ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ وَيَرْجِعُ إِلَى مَكَّةَ، فَٱرْتَدَّ كَثِيرٌ مِمَّن كَانَ أَسْلَمَ، وَذَهَبَ النَّاسُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَقَالُوا لَهُ: هَلْ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ فِي صَاحِبِكَ، يَزْعُمُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي هٰذِهِ اللَّيْلَةِ بَيْتَ المَقْدِسِ وَصَلَّى فِيهِ، وَرَجَعَ إِلَى مَكَّةَ. فَقَالَ لَهُمْ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكُمْ تَكْذِبُونَ عَلَيْهِ؛ فَقَالُوا: بَلَى، هَا هُوَ ذَاكَ فِي المَسْجِدِ يُحَدِّثُ بِهِ النَّاسَ؛ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: واللَّهِ لَئِنْ كَانَ قَالَهُ لَقَدْ صَدَقَ، فَمَا يُعْجِبُكُمْ مِنْ ذٰلِكَ! فَوَاللَّهِ إِنَّهُ لَيُخْبِرُنِي أَنَّ الخَبَرَ لَيَأْتِيهِ مِنَ اللَّهِ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ فِي سَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ

---

(١) الإمر: العجيب المنكر.

أَوْ نَهَارٍ فَأُصَدِّقُهُ، فَهٰذَا أَبْعَدُ مِمَّا تَعْجَبُونَ مِنْهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ حَتَّى ٱنْتَهَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَحَدَّثْتَ هٰؤُلَاءِ القَوْمَ أَنَّكَ جِئْتَ بَيْتَ المَقْدِسِ هٰذِهِ اللَّيْلَةَ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَصِفْهُ لِي، فَإِنِّي قَدْ جِئْتُهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَرُفِعَ لِي حَتَّى نَظَرْتُ إِلَيْهِ» ـ فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَصِفُهُ لأَبِي بَكْرٍ، وَيَقُولُ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقْتَ، أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، كُلَّمَا وَصَفَ مِنْهُ شَيْئاً، قَالَ: صَدَقْتَ أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، حَتَّى إِذَا انْتَهَى، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأَبِي بَكْرٍ: «وَأَنْتَ يَا أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقُ»؛ فَيَوْمَئِذٍ سَمَّاهُ الصِّدِّيقَ.

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى رُسُوخٍ بالإِيمَانِ، وَقُوَّةٍ بِٱلْمُوَاجَهَةِ، وَشَجَاعَةٍ بِٱلْحَقِّ، وَٱسْتِنَارَةٍ بِٱلفِكْرِ، وَاسْتِعْلَاءٍ بَعَقِيدَتِهِ، لاَ يُبَالِي بِمَا يَجْمَعُهُ لَهُ النَّاسُ، وَبِمَا يُلَوِّحُ بِهِ الطُّغَاةُ وَمَا يُهَدِّدُونَ بِهِ بَلْ يَزِيدُهُ ذٰلِكَ إِيمَاناً وَيَقُولُ حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، فَٱللَّهُ هُوَ القَاهِرُ لِعِبَادِهِ القَادِرُ عَلَى خَلْقِهِ.

الفصل الثالث

أبو بكر المهاجر

اشْتَدَّ أَذَى المُشْرِكِينَ، وَكَثُرَ الَّذِينَ لَبُّوا دَعْوَةَ اللَّهِ، وَسَلَكُوا فِي مَوْكِبِ الحَقِّ. وَبَدَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَبْحَثُ عَنْ مَكَانٍ يَكُونُ قَاعِدَةً لِدَوْلَةِ الإِيمَانِ لِيَتَفَيَّأَ المُسْلِمُونَ ظِلاَلَهَا وَيَرى الآخَرُونَ آثَارَ السَّعَادَةِ فِيهَا مِنْ بَعِيدٍ فَيُقْدِمُونَ إِلَيْهَا مُؤْمِنِينَ فَأَخَذَ يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَى القَبَائِلِ، وَأَخَذَ الطُّغَاةُ يَضَعُونَ العَثَرَاتِ فِي الطَّرِيقِ وَيُلْقُونَ الحِرَابَ عَلَى الدَّرْبِ فَيُهَدِّدُونَ القَبَائِلَ وَيُخَوِّفُونَ العَشَائِرَ، وَيُنَفِّرُونَ الجَمَاعَاتِ، وَشَاءَتْ إِرَادَةُ اللَّهِ أَنْ يَلْتَقِي رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي المَوْسِمِ بِنَفَرٍ مِنْ سُكَّانِ المَدِينَةِ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنَ الطَّوَاغِيتِ فَيُؤْمِنُ أُولَئِكَ النَّفَرُ بِاللَّهِ، وَيَتَعَهَّدُونَ حَمْلَ الدَّعْوَةِ، فَأَخَذَتْ أَشِعَّةُ النُّورِ تَنْتَشِرُ فِي مَدِينَتِهِمْ، وَيَتَبَدَّدُ الظَّلاَمُ تَدْرِيجِيّاً، وَٱسْتَدَارَ العَامُ، وَتَكَرَّرَ اللِّقَاءُ، وَبَايَعَ بَعْضُ أَهْلِ المَدِينَةِ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي العَقَبَةِ، وَسَارَ مَعَهُمْ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ لِيُعَلِّمَهُمْ، فَقَامَ

بِٱلْمُهِمَّةِ وَأَدَّى دَوْرَهُ، وَفِي المَوْسِمِ جَاءَتْ أَعْدَادٌ مِنَ المُسْلِمِينَ مِنَ المَدِينَةِ، وَبَايَعَتْ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى النَّصْرِ والدَّعْمِ، وَعَلَى أَنْ تَكُونَ مَدِينَتُهُمْ قَاعِدَةَ الانْطِلاَقِ لِلدَّعْوَةِ، وَمَقَرَّ الدَّوْلَةِ، فَأَخَذَ المُسْلِمُونَ يُهَاجِرُونَ إِلَيْهَا جَمَاعَاتٍ وَأَفْرَاداً، مِنْهُمْ مَنْ يُهَاجِرُ سِرّاً خَوْفاً مِنْ طُغَاةِ قُرَيْشٍ فَيَتَسَلَّلُ فِي الظَّلاَمِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَخْرُجُ جِهَاراً لاَ يُبَالِي بِقُرَيْشٍ وَمَا جَمَعُوا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْلِنُ هِجْرَتَهُ مُتَحَدِّياً أَيَّ فَرْدٍ يُرِيدُ التَّعَرُّضَ لَهُ، وَيَطْلُبُ مِمَّنْ يَبْغِي ذٰلِكَ الخُرُوجَ إِلَى وَرَاءِ حُدُودِ الحَرَمِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْدِي نَفْسَهُ مِنْ قُرَيْشٍ فَيَدْفَعُ لِطُغَاتِهَا كُلَّ مَا جَمَعَهُ مِنْ أَمْوَالٍ أَثْنَاءَ إِقَامَتِهِ فِي مَكَّةَ مِنْ عَمَلِهِ وَتِجَارَتِهِ وَصُنْعِهِ السُّيُوفَ.

وَيَتَغَاضَى الطُّغَاةُ عَنْ هٰذَا كُلِّهِ، وَيَسْكُتُونَ عَنْ هٰؤُلاَءِ وَأَمْثَالِهِمْ فَمَا هُمْ إِلاَّ أَفْرَاداً، أَثَرُهُمْ مَحْدُودٌ، وَجَمْعُهُمْ مَعْدُودٌ، وَإِنْ كَانَ سَادَةُ قُرَيْشٍ يُرِيدُونَ إِنِ اسْتَطَاعُوا الرِّبْحَ دُونَ عَنَاءٍ فَقَدْ أَخَذُوا أَمْوَالَ صُهَيْبٍ، وَيَرْغَبُونَ فِي التَّعَرُّضِ لإِعَادَةِ بَعْضِ المُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ إِظْهَارِ الغَطْرَسَةِ وَإِبْدَاءِ الجَبَرُوتِ غَيْرَ أَنَّ هَدَفَهُمْ هُوَ صَاحِبُ الدَّعْوَةِ فَٱلْفَتْكُ بِهِ اجْتِثَاثٌ لِلدَّعْوَةِ، وَيَسْهلُ بَعْدَهَا التَّنْكِيلُ بِمَنْ تَبِعَهُ لِذَا تَوَجَّهَتِ الأَنْظَارُ إِلَيْهِ تَرْمُقُهُ وَتَرْقُبُ حَرَكَاتِهِ، وَصَوَّبَتْ السِّهَامَ نَحْوَهُ لِتَنْطَلِقَ سَاعَةَ تَفْكِيرِهِ بِٱلْخُرُوجِ

وَيُمَثِّلُ حَمَلَةَ تِلْكَ السِّهَامِ بُطُونُ قُرَيْشٍ كُلُّهَا لِيَصْعُبَ حَرْبُهَا، وَلِيَعْجَزَ بَنُو هَاشِمٍ عَنِ النَّيْلِ مِنْ ثَأْرِهِمْ، إِنْ حَاوَلُوا ذٰلِكَ.

كَانَ أَشْجَعَ الشُّجْعَانِ، وَأَقْوَى الفُرْسَانِ، وَأَشَدَّ الأَبْطَالِ مَنْ يُفَكِّرُ أَنْ يَكُونَ إِلَى جَانِبِ ذٰلِكَ الهَدَفِ بَلْ أَمَامَهُ يَصُدُّ عَنْهُ إِنْ جَاءَهُ الطَّلَبُ مِنَ الأَمَامِ، وَوَرَاءَهُ إِنْ جَاءَ الطَّلَبُ مِنَ الخَلْفِ، وَعَنِ الجَنْبِ إِنْ وُجِّهَ إِلَيْهِ السَّهْمُ مِنْ تِلْكَ النَّاحِيَةِ، وَأَكْثَرُ مِنْ هٰذَا يَجْعَلُ أَهْلَهُ هَدَفاً لِلأَعْدَاءِ، وَيُشَارِكُونَهُ فِي مُهِمَّتِهِ، وَيَبْذُلُ مَالَهُ رَدّاً عَنِ الهَدَفِ وَدَفْعاً لَهُ. وَلَمْ يَكُنْ هٰذَا نَتِيجَةَ مِحْنَةٍ وَقَعَ فِيهَا لاَ يَجِدُ مَخْرَجاً مِنْهَا إِلاَّ هٰذَا، وَلاَ سَبَبَ فِكْرَةٍ اقْتَنَعَ بِهَا لاَ يَجِدُ فَكَاكاً مِنْهَا إِلاَّ المُضِيَّ بِهَا ثَبَاتاً عَلَى المَبْدَأ، وَمِثَالاً لِصَاحِبِ العَقِيدَةِ، وَكُلِّ مَنْ يَتَعَرَّضُ لِمِحْنَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَحِمَايَةً لِمَكَارِمِ الأَخْلاَقِ وَالدِّفَاعِ عَنِ الأُخُوَّةِ، إِنَّ هٰذَا كُلَّهُ لأَمْرٌ جَيِّدٌ، وَلٰكِنْ أَكْثَرُ مِنْهُ جُودَةً أَنْ يُخَطِّطَ المَرْءُ لِهٰذَا، وَهُوَ مَا فَعَلَهُ الصِّدِّيقُ.

وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ ذَا مَالٍ فَكَانَ حِينَ اسْتَأْذَنَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي الهِجْرَةِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاَ تَعْجَلْ، لَعَلَّ اللَّهَ يَجْعَلُ لَكَ صَاحِباً»، فَطَمِعَ أَبُو بَكْرٍ بِأَنْ يَكُونَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ، إِنَّمَا يَعْنِي نَفْسَهُ، حِينَ قَالَ لَهُ ذٰلِكَ، فَٱبْتَاعَ رَاحِلَتَيْنِ، فَٱحْتَبَسَهُمَا فِي دَارِهِ، يَعْلِفُهُمَا إِعْدَاداً لِذٰلِكَ.

وَعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ، رَضِي اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ لاَ يُخْطِىءُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ يَأْتِيَ بَيْتَ أَبِي بَكْرٍ أَحَدَ طَرَفَي النَّهَارِ، إِمَّا بُكْرَةً وَإِمَّا عَشِيَّةً، حَتَّى إِذَا كَانَ اليَوْمُ الَّذِي أُذِنَ فِيهِ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي الهِجْرَةِ، والخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ مِنْ بَيْنِ ظَهْرَيْ قَوْمِهِ، أَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِٱلْهَاجِرَةِ، فَي سَاعَةٍ كَانَ لاَ يَأْتِي فِيهَا. قَالَتْ: فَلَمَّا رَآهُ أَبُو بَكْرٍ، قَالَ: مَا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هٰذِهِ السَّاعَةَ إِلاَّ لأَمْرٍ حَدَثَ. قَالَتْ: فَلَمَّا دَخَلَ تَأَخَّرَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ عَنْ سَرِيرِهِ. فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَيْسَ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ إِلاَّ أَنَا وَأُخْتِي أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَخْرِجْ عَنِّي مَنْ عِنْدَكَ»؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا هُمَا ابْنَتَايَ، وَمَا ذَاكَ فِدَاكَ أَبِي وأُمِّي! فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ لِي بِٱلْخُرُوجِ وَٱلْهِجْرَةِ». قَالَتْ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: الصُّحْبَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ قَالَ: الصُّحْبَةُ. قَالَتْ: فَوَاللَّهِ مَا شَعَرْتُ قَطُّ قَبْلَ ذٰلِكَ اليَوْمِ أَنَّ أَحَداً يَبْكِي مِنَ الفَرَحِ، حَتَّى رَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ يَبْكِي يَوْمَئِذٍ، ثُمَّ قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ،

إِنَّ هَاتَيْنِ رَاحِلَتَانِ قَدْ كُنْتُ أَعَدَدْتُهُمَا لِهٰذَا. فَٱسْتَأْجَرَا عَبْدَ اللَّهِ بنَ أُرَيْقِطٍ - رَجُلاً مِنْ بَنِي الدِّئْلِ بْنِ بَكْرٍ، وَكَانَتْ أُمُّهُ امْرَأَةً مِنْ بَنِي سَهْمِ بنِ عَمرٍو - وَكَانَ مُشْرِكاً - يَدُلُّهُمَا عَلَى الطَّرِيقِ، فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا، فَكَانَتَا عِنْدَهُ يَرْعَاهُمَا لِمِيعَادِهِمَا.

وَلَمْ يَعْلَمْ بِخُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَحَدٌ حِينَ خَرَجَ، إِلاَّ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وَآلُ أَبِي بَكْرٍ. أَمَّا عَلِيٌّ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَخْبَرَهُ بِخُرُوجِهِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَتَخَلَّفَ بَعْدَهُ بِمَكَّةَ، حَتَّى يُؤَدِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الوَدَائِعَ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَهُ لِلنَّاسِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَيْسَ بِمَكَّةَ أَحَدٌ عِنْدَهُ شَيْءٌ يَخْشَى عَلَيْهِ إِلاَّ وَضَعَهُ عِنْدَهُ، لِمَا يَعْلَمُ مِنْ صِدقِهِ وَأَمَانَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَهَذَا مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ كُلُّ مُسْلِمٍ فِي مُجْتَمَعِهِ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ، مَوْضِعَ ثِقَةٍ وَمَحَبَّةٍ لِمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ خُلُقٍ وَسُلُوكٍ.

هُيِّىءَ الأَمْرُ، وَوُضِعَ المُخَطَّطُ لِلْهِجْرَةِ فِي الذِّهْنِ، وَٱتُّخِذَتِ الأَسْبَابُ، وَلَمَّا جَاءَ الأَمْرُ مِنَ السَّمَاءِ بَدَأَ التَّنْفِيذُ فِي الأَرْضِ، وَكَانَتْ رِعَايَةُ اللَّهِ، وَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَبَا بَكْرٍ يَوْمَ التَّنْفِيذِ، وَخَرَجَا مِنَ البَابِ الخَلْفِيِّ لِدَارِ أَبِي

بَكْرٍ، وَٱنْطَلَقَا إِلَى غَارٍ بِجَبَلِ ثَوْرٍ القَائِمِ أَسْفَلَ مَكَّةَ فَدَخَلاَهُ لَيْلاً، وَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الغَارَ قَبلَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَسَ الغَارَ، لِيَنْظُرَ أَفِيهِ سَبْعٌ أَوْ حَيَّةٌ لِيَقِيَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِنَفْسِهِ.

وَبَقِيَا فِي الغَارِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ قَدْ أَمَرَ ابْنَهُ عَبْدَ اللَّهِ أَنْ يَتَسَمَّعَ لَهُمَا مَا تَقُولُ قُرَيْشٌ فِيهِمَا نَهَاراً، ثُمَّ يَأْتِيهِمَا إِذَا أَمْسَى لِيُخْبِرَهُمَا بِمَا جَرَى فِي ذٰلِكَ النَّهَارِ، وَبِمَا قِيلَ. كَمَا أَمَرَ أَبُو بَكْرٍ مَوْلاَهُ عَامِرَ بنَ فُهَيْرَةَ أَنْ يَرْعَى غَنَمَهُ نَهَاراً مَعَ رُعْيَانِ أَهْلِ مَكَّةَ، فَإِذَا كَانَ المَسَاءُ اتَّجَهَ بِتِلْكَ الأَغْنَامِ نَحْوَ الغَارِ، لِيَأْخُذَا مِنْهَا مَا يُرِيدَانِ مِنْ حَلِيبٍ وَلَحْمٍ. وَيَكُونُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ قَدْ سَارَ مِنْ عِنْدِهِمَا إِلَى مَكَّةَ فَسَيَّرَ عَامِرٌ الغَنَمَ فِي أَثَرِهِ حَتَّى يُعَفِّيَ عَلَيْهِ ذٰلِكَ الأَثَرَ. كَمَا كَانَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ تَأْتِيهِمَا إِذَا أَمْسَتْ بِٱلطَّعَامِ وَبِمَا يُصْلِحُهُمَا مِنْ ثِيَابٍ وَغَيْرِهَا.

وَعِنْدَمَا انْتَهَتِ الأَيَّامُ الثَّلاَثَةُ الَّتِي كَانَتْ مُقَرَّرَةً لِبَقَائِهِمَا فِي الغَارِ جَاءَهُمَا الدَّلِيلُ عَبْدُ اللَّهِ بنُ أُرَيْقِطٍ الَّذِي اسْتَأْجَرَاهُ، وَمَعَهُ الرَّاحِلَتَانِ، كَمَا جَاءَتْ أَسْمَاءُ إِلَيْهِمَا بِطَعَامِ الطَّرِيقِ، غَيْرَ أَنَّهَا نَسِيَتْ أَنْ تَجْعَلَ لِغِلاَفِ ذٰلِكَ الطَّعَامِ عِصَاماً كَيْ يُعَلَّقَ بِرَحْلِ البَعِيرِ. فَلَمَّا ارْتَحَلاَ ذَهَبَتْ لِتُعَلِّقَ الطَّعَامَ فَإِذَا لَيْسَ لَهُ عِصَامٌ،

فَأَخَذَتْ نِطَاقَهَا فَجَعَلَتْ نِصْفَهُ عِصَاماً، والنِّصْفَ الآخَرَ نِطَاقاً، فَسُمِّيَتْ بِذَاتِ النِّطَاقَيْنِ.

وَرَغْمَ مَا بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبَيْنَ الصِّدِّيقِ مِنْ مَحَبَّةٍ وَمَوَدَّةٍ إلاَّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَمْ يَرْغَبْ أَنْ يَكُونَ عَالَةً عَلَى صَاحِبِهِ، حَتَّى لاَ يَكُونَ مُسْلِمٌ عَالَةً عَلَى أَخِيهِ، أَوْ يُفَكِّرَ بِهَذَا، فَٱلرَّسُولُ قدْوَةٌ لأُمَّتِهِ، أُسْوَةٌ لِمَنْ يَأْتِي بَعْدَهُ، لِذَا عِنْدَمَا قَرَّبَ أَبُو بَكْرٍ لَهُ الرَّاحِلَتَيْنِ، وَقَدَّمَ لَهُ أَفْضَلَهُمَا، وَقَالَ لَهُ: ارْكَبْ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنِّي لاَ أَرْكَبُ بَعِيراً لَيْسَ لِي؛ قَالَ: فَهِيَ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي؛ قَالَ: لاَ، وَلٰكِنْ مَا الثَّمَنُ الَّذِي ٱبْتِعْتَهَا بِهِ؟ قَالَ: كَذَا وَكَذَا؛ قَالَ: قَدْ أَخَذْتُهَا بِهِ، قَالَ: هِيَ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَرَكِبَا وَٱنْطَلَقَا، وَأَرْدَفَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَامِرَ بنَ فُهَيْرَةَ خَلْفَهُ لِيَخْدُمَهُمَا فِي الطَّرِيقِ.

لَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ مَكَّةَ مُهَاجِراً إِلَى المَدِينَةِ، جَعَلَتْ قُرَيْشٌ مِائَةَ نَاقَةٍ لِمَنْ رَدَّهُ عَلَيْهِمْ. وَيَرْوِي سُرَاقَةُ بنُ مَالِكٍ قِصَّتَهُ فَيَقُولُ: فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ فِي نَادِي قَوْمِي إِذْ أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنَّا، حَتَّى وَقَفَ عَلَيْنَا، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ

رَأَيْتُ رَكْبَةً ثَلاَثَةً مَرُّوا عَلَيَّ آنِفاً، إِنِّي لأَرَاهُمْ مُحَمَّداً وَأَصْحَابَهُ.
قَالَ: فَأَوْمَأْتُ إِلَيْهِ بِعَيْنِي: أَنِ اسْكُتْ، ثُمَّ قُلْتُ: إِنَّمَا هُمْ بَنُو فُلاَنٍ يَبْتَغُونَ ضَالَّةً لَهُمْ؛ قَالَ: لَعَلَّهُ، ثُمَّ سَكَتَ. قَالَ: ثُمَّ مَكَثْتُ قَلِيلاً، ثُمَّ قُمْتُ فَدَخَلْتُ بَيْتِي، ثُمَّ أَمَرْتُ بِفَرَسِي، فَقُيِّدَ لِي إِلَى بَطْنِ الوَادِي، وَأَمَرْتُ بِسِلاَحِي فَأُخْرِجَ لِيَ مِنْ دُبُرِ حُجْرَتِي، ثُمَّ أَخَذْتُ قِدَاحِي الَّتِي أَسْتَقْسِمُ بِهَا، ثُمَّ انْطَلَقْتُ فَلَبِسْتُ لأْمَتِي، ثُمَّ أَخْرَجْتُ قِدَاحِي فَٱسْتَقْسَمْتُ بِهَا، فَخَرَجَ السَّهْمُ الَّذِي أَكْرَهُ قَالَ: وَكُنْتُ أَرْجُو أَنْ أَرُدَّهُ عَلَى قُرَيْشٍ فَآخُذَ المِائَةَ نَاقَةٍ. قَالَ: فَرَكِبْتُ عَلَى أَثَرِهِ، فَبَيْنَمَا فَرَسِي يَشْتَدُّ بِي عَثَرَ بِي فَسَقَطْتُ عَنْهُ.
قَالَ: فَقُلْتُ: مَا هٰذَا؟ قَالَ: ثُمَّ أَخَذْتُ قِدَاحِي فَٱسْتَقْسَمْتُ بِهَا، فَخَرَجَ السَّهْمُ الَّذِي أَكْرَهُ. قَالَ: فَأَبَيْتُ إِلاَّ أَنْ أَتْبَعَهُ. قَالَ: فَرَكِبْتُ فِي أَثَرِهِ. فَلَمَّا بَدَا لِيَ القَوْمُ وَرَأَيْتُهُمْ، عَثَرَ بِي فَرَسِي، فَذَهَبَتْ يَدَاهُ فِي الأَرْضِ، وَسَقَطْتُ عَنْهُ، ثُمَّ انْتَزَعَ يَدَيْهِ مِنَ الأَرْضِ، وَتَبِعَهُمَا دُخَانٌ كَٱلإِعْصَارِ. قَالَ: فَعَرَفْتُ حِينَ رَأَيْتُ ذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ مُنِعَ مِنِّي، وَأَنَّهُ ظَاهِرٌ. قَالَ: فَنَادَيْتُ القَوْمَ، فَقُلْتُ: أَنَا سُرَاقَةُ بْنُ جُعْشُمَ، انْظُرُونِي أُكَلِّمْكُمْ، فَوَاللَّهِ لاَ أَرِيبُكُمْ، وَلاَ يَأْتِيكُمْ مِنِّي شَيْءٌ تَكْرَهُونَهُ. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأَبِي بَكْرٍ: قُلْ لَهُ: وَمَا تَبْغِي مِنَّا؟ قَالَ: فَقَالَ ذٰلِكَ

أَبُو بَكْرٍ، قَالَ: قُلْتُ: تَكْتُبُ لِي كِتَاباً يَكُونُ آيَةً بَيْنِي وَبَيْنَكَ، قَالَ: اكْتُبْ لَهُ يَا أَبَا بَكْرٍ.

قَالَ: فَكَتَبَ لِي كِتَاباً فِي عَظْمٍ، أَوْ فِي رُقْعَةٍ، أَوْ فِي خَزَفَةٍ، ثُمَّ أَلْقَاهُ إِلَيَّ، فَأَخَذْتُهُ، فَجَعَلْتُهُ فِي كِنَانَتِي ثُمَّ رَجَعْتُ، فَسَكَتُّ فَلَمْ أَذْكُرْ شَيْئاً مِمَّا كَانَ حَتَّى إِذَا كَانَ فَتْحُ مَكَّةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفَرَغَ مِنْ حُنَيْنٍ والطَّائِفِ، خَرَجْتُ وَمَعِيَ الكِتَابُ لأَلْقَاهُ فَلَقِيتُهُ بِالجِعِرَّانَةِ. قَالَ: فَدَخَلْتُ فِي كَتِيبَةٍ مِنْ خَيْلِ الأَنْصَارِ. قَالَ: فَجَعَلُوا يَقْرَعُونَنِي بِٱلرِّمَاحِ، وَيَقُولُونَ: إِلَيْكَ، إِلَيْكَ مَاذَا تُرِيدُ؟ قَالَ: فَدَنَوْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ، وَاللَّهِ لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى سَاقِهِ فِي غَرْزِهِ كَأَنَّهَا جُمَّارَةٌ. قَالَ: فَرَفَعْتُ يَدِي بِٱلْكِتَابِ، ثُمَّ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هٰذَا كِتَابُكَ لِي، أَنَا سُرَاقَةُ بنُ جُعْشُمَ؛ قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَوْمَ وَفَاءٍ وَبِرٍّ، ادْنُهُ. قَالَ: فَدَنَوْتُ مِنْهُ فَأَسْلَمْتُ ثُمَّ تَذَكَّرْتُ شَيْئاً أَسْأَلُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَا أَذْكُرُهُ، إِلاَّ أَنِّي قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الضَّالَّةُ مِنَ الإِبِلِ تَغْشَى حِيَاضِي وَقَدْ مَلأْتُهَا لإِبِلِي، هَلْ لِي مِنْ أَجْرٍ فِي أَنْ أَسْقِيَهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ حَرَّى أَجْرٌ. ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى قَوْمِي، فَسُقْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ،

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، صَدَقَتِي[1].

وَكَانَ الصِّدِّيقُ أَثْنَاءَ الهِجْرَةِ يَسِيرُ أَمَامَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِيَرُدَّ عَنْهُ، خَطَرَ الطَّرِيقِ، فَإِذا تَخَيَّلَ الطَّلَبَ مِنَ الوَرَاءِ رَجَعَ وَسَارَ خَلْفَهُ، فَإِذَا فَكَّرَ بِأَنَّ الطَّلَبَ مِنَ اليَمِينَ سَارَ عَنْ يَمِينِهِ، أَوْ أَنَّ الطَّلَبَ مِنَ الشِّمَالِ مَشَى عَنْ شِمَالِهِ، وَهٰذَا طُولَ الطَّرِيقِ خَوْفاً عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَحِمَايَةً لَهُ.

وَوَصَل الرَّكْبُ إِلَى قُبَاءٍ لاِثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَتْ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الأَوَّلِ، يَوْمَ الاثْنَيْنِ، حِينَ اشْتَدَّ الضُّحَى، وَكادَتِ الشَّمْسُ تَعْتَدِلُ.

وَرَوَى أَحَدُ الأَنْصَارِ فَقَالَ: لَمَّا سَمِعْنَا بِمَخْرَجِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ مَكَّةَ، وَتَوَكَّفْنَا قُدُومَهُ، كُنَّا نَخْرُجُ إِذَا صَلَّيْنَا الصُّبْحَ إِلى ظَاهِرِ حَرَّتِنَا نَنْتَظِرُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَوَاللَّهِ مَا نَبْرَحُ حَتَّى تَغْلِبَنَا الشَّمْسُ عَلَى الظِّلَالِ، فَإِذَا لَمْ نَجِدْ ظِلاًّ دَخَلْنَا، وَذٰلِكَ فِي أَيَّامٍ حَارَّةٍ. حَتَّى إِذَا كَانَ اليَوْمُ الَّذِي قَدِمَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جَلَسْنَا كَمَا كُنَّا نَجْلِسُ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ ظِلٌّ دَخَلْنَا بُيُوتَنَا، وَقَدِمَ

---

(١) سيرة ابن هشام.

رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حِينَ دَخَلْنَا البُيُوتَ، فَكَانَ أَوَّلَ مَن رَآهُ رَجُلٌ مِنَ اليَهُودِ، وَقَدْ رَأَى مَا كُنَّا نَصْنَعُ، وَأَنَّا نَنْتَظِرُ قُدُومَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَيْنَا فَصَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا بَنِي قَيْلَةَ[١]، هٰذَا جَدُّكُمْ قَدْ جَاءَ. قَالَ: فَخَرَجْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ فِي ظِلِّ نَخْلَةٍ، وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي مِثْلِ سِنِّهِ؛ وَأَكْثَرُنَا لَمْ يَكُنْ رَأَى رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَبْلَ ذٰلِكَ، وَرَكِبَهُ[٢] النَّاسُ وَمَا يَعْرِفُونَهُ مِنْ أَبِي بَكْرٍ، حَتَّى زَالَ الظِّلُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ فَأَظَلَّهُ بِرِدَائِهِ، فَعَرَفْنَاهُ عِنْدَ ذٰلِكَ[٣].

نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي قُبَاءٍ عَلَى كُلْثُومِ بنِ هِدْمٍ، وَكَانَ يَجْلِسُ لِلنَّاسِ فِي بَيْتِ سَعْدِ بنِ خَيْثَمَةَ، وَكَانَ يُقَالُ لِبَيْتِ سَعْدِ بْنِ خَيْثَمَةَ: بَيْتُ الأَعْزَابِ.

وَنَزَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَلَى خُبَيْبِ بنِ إِسَافٍ مِنْ بَنِي الحَارِثِ بنِ الخَزْرَجِ، بِالسُّنْحِ، وَيُقَالُ: إِنَّ مَنْزِلَهُ

(١) بنو قيلة: هم الأنصار، وقيلة: اسم جدة كانت لهم.
(٢) ركبه الناس: ازدحموا عليه.
(٣) سيرة ابن هشام

كَانَ عَلَى خَارِجَةَ بنِ زَيْدِ بنِ أَبِي زُهَيْرٍ مِنْ بَنِي الحَارِثِ بنِ الخَزْرَجِ.

وَفِي طَرِيقِ الهِجْرَةِ التَقَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِقَافِلَةٍ مِنَ المُسْلِمِينَ عَائِدَةٍ مِنَ الشَّامِ، تَحْمِلُ مِمَّا تَحْمِلُ ثِيَاباً، وَفِيهَا الزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ فَكَسَاهُمَا ثِيَاباً بِيضاً، فَدَخَلاَ المَدِينَةَ لاَبِسَيْنَ مِنْهَا، وَالقَافِلَةُ هِيَ لِطَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ.

الفصل الرابع

مَعَ رَسُولِ اللهِ، في دارِ الهِجْرَةِ

بَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي قُبَاءَ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ [الاثْنَيْنِ، الثُّلاَثَاءِ، الأَرْبِعَاءِ، الخَمِيسِ]، وَخَرَجَ يَوْمَ الجُمُعَةِ، وَأَسَّسَ مَسْجِدَ قُبَاءَ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَوَّلَ مَنْ وَضَعَ حَجَراً فِي قِبْلَتِهِ، ثُمَّ جَاءَ أَبُو بَكْرٍ بِحَجَرٍ فَوَضَعَهُ إِلَى جَانِبِ حَجَرِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ أَخَذَ النَّاسُ فِي البُنْيَانِ، وَكَانَ مَسْجِدُ قُبَاءَ أَوَّلَ مَسْجِدٍ بُنِيَ فِي الإِسْلاَمِ. وَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الجُمُعَةَ فِي بَطْنِ وَادِي رَانُونَاءَ أَوَّلِ المَدِينَةِ، فَكَانَتْ أَوَّلَ جُمْعَةٍ صَلاَّهَا بِٱلْمَدِينَةِ. وَاعْتَرَضَتْهُ القَبَائِلُ، كُلٌّ مِنْهَا يُرِيدُ أَنْ يَنْزِلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عِنْدَهَا. وَبَرَكَتْ نَاقَتُهُ فِي مِرْبَدِ بَنِي مَالِكِ بنِ النَّجَّارِ، وَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ هُمَا: سَهْلٌ وَسُهَيْلٌ ابْنَي عَمْرٍو، وَكَانَا فِي حِجْرِ مُعَاذِ بنِ عَفْرَاءَ. وَنَزَلَ بَعْدَهَا فِي دَارِ خَالِدِ بنِ زَيْدٍ أَبِي أَيُّوبَ.

وَبُنِيَ المَسْجِدُ فِي المِرْبَدِ بَعْدَ أَنْ أَرْضَى صَاحِبَيْهِ الغُلاَمَيْنِ، وَكَذَا بُنِيَتْ مَسَاكِنُهُ.

وَادَعَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَهُودَ، وَآخَى بَيْنَ المُسْلِمِينَ مِنْ مُهَاجِرِينَ وَأَنْصَارٍ، وَلَمَّا كَانَ الأَنْصَارُ أَكْثَرَ عَدَداً مِنَ المُهَاجِرِينَ لِذَا لاَ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ المُؤَاخَاةُ دَائِماً بَيْنَ مُهَاجِرِيٍّ وَأَنْصَارِيٍّ، فَقَدْ تَكُونُ بَيْنَ مُهَاجِرٍ وَمُهَاجِرٍ، وَقَدْ تَكُونُ بَيْنَ أَنْصَارِيٍّ وَأَنْصَارِيٍّ، وَتَكُونُ أَيْضاً بَيْنَ مُهَاجِرِيٍّ وَأَنْصَارِيٍّ، وَهِيَ الغَالِبُ. لِذَا شَاعَتْ بَيْنَ النَّاسِ أَنَّ المُؤَاخَاةَ كَانَتْ بَيْنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، فَكُلُّ مُهَاجِرٍ أَخٌ لِوَاحِدٍ مِنَ الأَنْصَارِ، وَزَادَ مِنْ عُمُومِ هذِهِ الشَّائِعَةِ أَنَّ بَعْضَ كُتَّابِ السِّيَرِ أَوْرَدُوا اصْطِلاَحَ «المُؤَاخَاةُ بَيْنَ المُهَاجِرِينَ وَٱلأَنْصَارِ» بِنَاءً عَلَى مَا أَوْرَدَهُ الإِمَامُ البُخَارِيُّ، رَحِمَهُ اللَّهُ، حَيْثُ أَنَّ كَلِمَةَ «المُسْلِمِينَ» كَانَتْ تُرَادِفُ كَلِمَةَ «المُهَاجِرِينَ والأَنْصَارَ» فَتَمَسَّكَ بَعْضُ الكُتَّابِ بِٱللَّفْظِ دُونَ النَّظَرِ إِلَى مَا تَمَّ، وَبِالنَّظَرِ إِلَى الصَّحَابَةِ الَّذِينَ تَمَّت المُؤَاخَاةُ بَيْنَهُمْ نَعْرِفُ الوَاقِعَ وَٱلْمَعْنَى. وَحَتَّى لاَ تَحْمِلَ مَعْنَى المُسَاعَدَةِ فَقَطُ، وَإِنْ كَانَتْ تَشْمُلُ بَعْضَ جَوَانِبِهَا، لِذَا كَانَتْ مُؤَاخَاةُ أَصْحَابِ الصِّلَةِ مِنَ المُهَاجِرِينَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ. فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ، سَيِّدَ المُرْسَلِينَ، وَإِمَامَ المُتَّقِينَ، وَرَسُولَ رَبِّ العَالَمِينَ، الَّذِي لَيْسَ لَهُ خَطِيرٌ وَلاَ نَظِيرٌ مِنَ العِبَادِ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَخَوَيْنِ، وَكَانَ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، أَسَدُ اللَّهِ، وَأَسَدُ رَسُولِهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَمُّ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَخَوَيْنِ وَآخَى بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، فَرَآهُمَا يَوْماً مُقْبِلَيْنِ، فَقَالَ: «إِنَّ هٰذَيْنِ لَسَيِّدَا كُهُولِ أَهْلِ الجَنَّةِ مِنَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ كُهُولُهُمْ وَشَبَابُهُمْ إِلاَّ النَبِيِّينَ وَٱلْمُرْسَلِينَ». وَفِي رِوَايَةٍ: فَأَقْبَلاَ، أَحَدُهُمَا آخِذٌ بِيَدِ صَاحِبِهِ، فَقَالَ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى سَيِّدَيْ كُهُولِ أَهْلِ الجَنَّةِ مِنَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ إِلاَّ النَّبِيينَ والمُرْسَلِينَ فَلْيَنْظُرْ إِلى هٰذَيْنِ المُقْبِلَيْنِ»[١].

وَعَنِ الزُّهْرِيِّ أَنَّهُ لَمَّا أَقْطَعَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الدُّورَ بِالمَدِينَةِ جَعَلَ لأَبِي بَكْرٍ مَوْضِعَ دَارِهِ عِنْدَ المَسْجِدِ، وَهِيَ الدَّارُ الَّتِي صَارَتْ لآلِ مَعْمَرٍ.

أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُرْسِلُ السَّرَايَا

---

(١) طبقات ابن سعد. وفي بعض السير أن رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، قد آخى بين أبي بكرٍ وبين خارجة بن زيد بن أبي زهير، أخي بلحارث بن الخزرج.

إِلَى المَنَاطِقِ التِّي حَوْلَ المَدِينَةِ فِي سَبِيلِ التَّعَرُّفِ عَلَى الأَرْضِ، وَالاتِّصَالِ بِٱلْقَبَائِلِ النَّازِلَةِ فِي تِلْكَ الجِهَاتِ لِعَقْدِ الأَحْلاَفِ بَيْنَهَا، أَوِ التَّفَاهُمِ عَلَى الأَقَلِّ، وَلإِثْبَاتِ الوُجُودِ، وَهٰذَا يَقْضِي التَّعَرُّضَ لِقَوَافِلِ قُرَيْشٍ، كَيْ تَحْسِبَ لِلْمُسْلِمِينَ حِسَاباً، وَكُلُّ هٰذَا يَتَطَلَّبُ أَنْ يَكُونَ جُنُودُ السَّرَايَا مِنَ المهَاجِرِينَ فَقَطْ، حَيْثُ أَنَّ الأَنْصَارَ يَعْرِفُونَ الأَرْضَ، وَعَلَى صِلَةٍ بِٱلْقَبَائِلِ، كَمَا أَنَّ قُرَيْشاً تَهَابُهُمْ مِنَ القَبَائِلِ، وَلاَ يُرِيدُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ يَكُونَ الأَنْصَارُ رَأْسَ الحَرْبَةِ بَلْ يَرْغَبُ فِي أَنْ يُثْبِتَ أَنَّ لِلْمُهَاجِرِينَ دَوْرَهُمْ، وَلَهُمْ وَزْنَهُمْ، وَهُمْ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِلْمُوَاجَهَةِ وَالقِتَالِ.

لَمْ يُشَارِكْ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي هَذِهِ السَّرَايَا رَغْبَةً مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي إِبْقَائِهِ إِلَى جَانِبِهِ، وَحُبّاً مِنْ أَبِي بَكْرٍ بِٱلْبَقَاءِ بِالقُرْبِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَسْمَعُ مِنْهُ وَيَتَأَدَّبُ، وَيَتَعَلَّمُ مَا يَأْتِي بِهِ الوَحْيُ لِرَسُولِ اللَّهِ. غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ يَنْطَلِقُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي الغَزَوَاتِ الَّتِي يَسِيرُ فِيهَا.

وَمِنَ السَّرَايَا الَّتِي لَمْ يُشَارِكْ فِيهَا أَبُو بَكْرٍ سَرِيَّةُ عَبْدِ اللَّهِ بنِ جَحْشٍ الَّتِي انْطَلَقَتْ فِي رَجَبٍ مِنَ السَّنَةِ الثَّانِيَةِ لِلْهِجْرَةِ، وَتَضُمُّ ثَمَانِيَةَ رَهْطٍ، وَمُهِمَّتُهَا الوُصُولُ إِلَى نَخْلَةَ بَيْنَ الطَّائِفِ وَمَكَّةَ،

وَرَصْدُ قُرَيْشٍ، وَمَعْرِفَةُ أَخْبَارِهَا. فَلَمَّا نَزَلَتْ نَخْلَةَ، مَرَّتْ بِهَا عِيرٌ لِقُرَيْشٍ تحْمِلُ زَبِيباً وَأَدماً، فَلَمَّا رَأَتْ قَافِلَةُ قُرَيْشٍ جَمَاعَةَ عَبْدِ اللَّهِ بنِ جَحْشٍ هَابُوهُمْ فِي بِدَايَةِ الأَمْرِ، فَلَمَّا رَأَوْا أَحَدَهُمْ قَدْ حَلَقَ رَأْسَهُ ظَنُّوا أَنَّهُمْ عُمَّارٌ فَاطْمَأَنُّوا إِلَيْهِمْ. وَتَشَاوَرَ المُسْلِمُونَ فِيمَا يَفْعَلُونَ فَإِنْ هَاجَمُوهُمْ وَقَاتَلُوهُمْ فَإِنَّمَا يَكُونُ قِتَالُهُمْ فِي الشَّهْرِ الحَرَامِ، إِذْ كَانَ اليَوْمَ الأَخِيرَ مِنْ شَهْرِ رَجَبٍ وَإِنْ تَرَكُوهُمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فَإِنَّهُمْ يَدْخُلُونَ فِي الحَرَمِ وَيَمْتَنِعُونَ بِهِ، فَتَرَدَّدَ القَوْمُ، ثُمَّ شَجَّعُوا أَنْفُسَهُمْ، وَهَجَمُوا عَلَيْهِمْ، فَقَتَلُوا اثْنَيْنِ مِنْهُمْ، وَأَخَذُوا العِيرَ وَمَا تَحْمِلُ، وَسَارُوا بِالعِيرِ وَالأَسِيرَيْنِ إِلَى المَدِينَةِ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَمَرْتُكُمْ بِقِتَالٍ فِي الشَّهْرِ الحَرَامِ»، وَعَنَّفَهُمْ إِخْوَانُهُمْ المُسْلِمُونَ فِيمَا صَنَعُوا، وَأَشَاعَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ مُحَمَّداً قَدِ اسْتَحَلَّ وَأَصْحَابُهُ الشَّهْرَ الحَرَامَ، فَسَفَكُوا فِيهِ الدَّمَ، وَأَخَذُوا فِيهِ الأَمْوَالَ، وَأَسَرُوا فِيهِ الرِّجَالَ، وَرَدَّ عَلَيْهِمْ بَعْضُ المُسْلِمِينَ مِمَّنْ كَانَ فِي مَكَّةَ أَنَّ ذٰلِكَ كَانَ فِي شَعْبَانَ، وَأَنَّ مَا أَصَابُوا لَمْ يَكُنْ فِي رَجَبٍ.

وَكَثُرَ الحَدِيثُ فِي هَذِهِ السَّرِيَّةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ

ٱلْقَتْلِ ﴿٢١٧﴾ . . .﴾(١) . وَهِيَ أَوَّلُ غَنِيمَةٍ غَنِمَهَا المُسْلِمُونَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ فِي هَذِهِ المُنَاسَبَةِ:

تَعُدُّونَ قَتْلاً فِي الحَرَامِ عَظِيمَةً   وَأَعْظَمُ مِنْهُ لَوْ يَرى الرُّشْدَ رَاشِدُ
صُدُودُكُمْ عَمَّا يَقُولُ مُحَمَّدٌ   وَكُفْرٌ بِهِ وَاللَّهُ رَاءٍ وَشَاهِدُ
وَإِخْرَاجُكُمْ مِنْ مَسْجِدِ اللَّهِ أَهْلَهُ   لِئَلاَّ يُرى لِلَّهِ فِي البَيْتِ سَاجِدُ
فَإِنَّا وَإِنْ عَيَّرْتُمُونَا بِقَتْلِهِ   وَأَرْجَفَ بِالإِسْلاَمِ بَاغٍ وَحَاسِدُ
سَقَيْنَا مِنِ ابْنِ الحَضْرَمِيِّ رِمَاحَنَا   بِنَخْلَةَ لَمَّا أَوْقَدَ الحَرْبَ وَاقِدُ(٢)
دَماً وَابْنُ عَبْدِ اللَّهِ عُثْمَانُ(٣) بَيْنَنَا   يُنَازِعُهُ غُلٌّ مِنَ القَدِّ عَانِدُ(٤)

لَمْ يَتَخَلَّفِ الصِّدِّيقُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ غَزْوَةٍ غَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَلْ كَانَ بِجَانِبِهِ فِي أَوْقَاتِ الرَّاحَةِ وَفِي أَحْرَجِ سَاعَاتِ القِتَالِ، إِذَا حَمِيَ الوَطِيسُ، وَاحْمَرَّتِ الحَدَقُ، وَارْتَفَعَ غُبَارُ المَعْرَكَةِ بِحَرَكَةِ الخَيْلِ، وَاكْفَهَرَّ الجَوُّ، يَحْمِيهِ بِنَفْسِهِ، وَيَتَّقِي عَنْهُ الضَّرَبَاتِ.

---

(١) سورة البقرة ٢١٧.
(٢) واقد بن عبد الله هو الذي قتل عمرو بن الحضرمي.
(٣) عثمان بن عبد الله كان أسيراً بيد المسلمين.
(٤) وتنسب هذه القصيدة لعبد الله بن جحشٍ، ولم ينسب لأبي بكر سوى بيت في مدح طلحة بن عبيدالله:
يا طلحة بن عبيد اللّه قد وجبت   لك الجنان وبوّئت المها العينا

فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ:

لَقَدْ كَانَ عَتَادُ المُسْلِمِينَ ضَئِيلاً، وَرَوَاحِلُهُمْ قَلِيلَةً، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعَبْدُ الرَّحْمٰنِ بنُ عَوْفٍ يَعْتَقِبُونَ بَعِيراً، حَيْثُ لَمْ يَزِدْ عَدَدُ إِبِلِ المُسْلِمِينَ يَوْمَذَاكَ عَلَى سَبْعِينَ بَعِيراً.

وَعِنْدَمَا بَلَغَ المُسْلِمِينَ خَبَرُ مَسِيرِ قُرَيْشٍ، وَهُمْ إِنَّمَا خَرَجُوا لِمُلاَقَاةِ العِيرِ، عِيرِ أَبِي سُفْيَانَ القَادِمَةِ مِنَ الشَّامِ لاَ لِمُلاَقَاةِ قُرَيْشٍ، لِذَا وَقَفَ رَسُولُ اللَّه، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَٱسْتَشَارَ أَصْحَابَهُ، فَوَقَفَ أَبُو بَكْرٍ وَتَكَلَّمَ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ، فَأَبْدَى إِمْكَانِيَّةَ المُوَاجِهَةِ، وَالصَّبْرَ عَلَى المَكَارِهِ، وَالثِّقَةَ بِنَصْرِ اللَّهِ، وَلَيْسَ الأَمْرُ بِالكَثْرَةِ، وَلاَ بِالعُدَّةِ، وَلٰكِنْ بِمَنْ يَكُنِ اللَّهُ مَعَهُ وَيُؤَيِّدُهُ، ثُمَّ تَكَلَّمَ عُمَرُ والمِقْدَادُ فَأَحْسَنَا، ثُمَّ تَكَلَّمَ الأَنْصَارُ فَلَمْ يَكُنِ اسْتِعْدَادُهُمْ بِأَقَلَّ مِنِ اسْتِعْدَادِ إِخْوَانِهِمُ المُهَاجِرِينَ، وَلاَ حَمَاسَتُهُمْ لِلِّقَاءِ بِأَقَلَّ مِنْ حَمَاسَةِ إِخْوَانِهِمْ، إِذْ كُلُّ مُسْلِمٍ كَانَ يَبْغِي الشَّهَادَةَ، وَيَرْغَبُ فِي قِتَالِ الكُفَّارِ، والعَمَلِ عَلَى حَصْدِ رُؤُوسِ المُجْرِمِينَ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ.

وَوَصَلَ المُسْلِمُونَ إِلَى قُرْبِ بَدْرٍ، وَرَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ وَأَبُو بَكْرٍ، وَسَارَا حَتَّى وَقَفَا عَلَى شَيْخٍ مِنَ العَرَبِ، فَسَأَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَنْ قُرَيْشٍ، وَعَنْ مُحَمَّدٍ

وَأَصْحَابِهِ، وَمَا بَلَغَهُ عَنْهُمْ، فَقَالَ الشَّيْخُ: لاَ أُخْبِرُكُمَا حَتَّى تُخْبِرَانِي مِمَّنَ أَنْتُمَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا أَخْبَرْتَنَا أَخْبَرْنَاكَ»، قَالَ: أَذَاكَ بِذَاكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ الشَّيْخُ: فَإِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ مُحَمَّداً وَأَصْحَابَهُ خَرَجُوا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كَانَ صَدَقَ الَّذِي أَخْبَرَنِي، فَهُمْ اليَوْمَ بِمَكَانِ كَذَا وَكَذَا، لِلْمَكَانِ الَّذِي بِهِ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وَبَلَغَنِي أَنَّ قُرَيْشَاً خَرَجُوا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كَانَ الَّذِي أَخْبَرَنِي صَدَقَنِي، فَهُمُ اليَوْمَ بِمَكَانِ كَذَا وَكَذَا، لِلْمَكَانِ الَّذِي فِيهِ قُرَيْشٌ. فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ خَبَرِهِ، قَالَ: مِمَّنْ أَنْتُمَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَحْنُ مِنْ مَاءٍ»، ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهُ. قَالَ: يَقُولُ الشَّيْخُ: مَا مِنْ مَاءٍ!! مِنْ مَاءِ العِرَاقِ؟[1].

وَبَعْدَ أَنْ سَوَّى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصُّفُوفَ، وَكَانَتِ المُبَارَزَةُ، رَجَعَ إِلَى العَرِيشِ الَّذِي بُنِيَ لَهُ، وَلَيْسَ مَعَهُ إِلاَّ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وَرَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُنَاشِدُ رَبَّهُ مَا وَعَدَهُ مِنَ النَّصْرِ، وَيَقُولُ فِيمَا يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ العِصَابَةُ اليَوْمَ لاَ تُعْبَدُ. فَيَقُولُ لَهُ أَبُو بَكْرٍ بِقَلْبٍ مُؤْمِنٍ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ، مُطْمَئِنٍّ بِمَكَانَتِهِ عِنْدَ رَبِّهِ، وَاثِقٍ بِنَصْرِ اللَّهِ

---

(١) سيرة ابن هشام.

لَهُ: يا نَبِيَّ اللَّهِ! بَعْضَ مُنَاشَدِتِكَ رَبَّكَ، فَإِنَّ اللَّهَ مُنْجِزٌ لَكَ مَا وَعَدَكَ. وَقَدْ خَفَقَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خَفْقَةً وَهُوَ فِي العَرِيشِ، ثُمَّ انْتَبَهَ فَقَالَ: «أَبْشِرْ يَا أَبَا بَكْرٍ، أَتَاكَ نَصْرُ اللَّهِ، هَذَا جِبْرِيلُ آخِذٌ بِعِنَانِ فَرَسٍ يَقُودُهُ، عَلَى ثَنَايَا النَّقْعِ».

انْتَصَرَ المُسْلِمُونَ فِي بَدْرٍ نَصْراً مُؤَزَّراً، وَقَتَلُوا مِنَ المُشْرِكِينَ سَبْعِينَ مِنْ صَنَادِيدِهِمْ وَرُؤُوسِ الكُفْرِ فِيهِمْ، وَأَسَرُوا مِثْلَهُمْ. وَسَأَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَعْضَ أَصْحَابِهِ فِي مُعَامَلَةِ الأَسْرَى. فَكَانَ رَأْيُ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ، وَعَبْدِ اللَّهِ بنِ رَوَاحَةَ، وَسَعْدِ بنِ مُعَاذٍ، وَعَبْدِ اللَّهِ بنِ جَحْشٍ، وَعَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ القَتْلَ، وَإِنِ اخْتَلَفَتِ الأَسَالِيبُ إِذْ يَرَى كُلُّ وَاحِدٍ أُسْلُوباً مُعَيَّناً فِي القَتْلِ، أَمَّا أَبُو بَكْرٍ فَقَدْ قَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَؤُلَاءِ أَهْلُكَ وَقَوْمُكَ قَدْ أَعْطَاكَ اللَّهُ الظَّفَرَ وَالنَّصْرَ عَلَيْهِمْ، أَرَى أَنْ تَسْتَبْقِيَهُمْ، وَتَأْخُذَ الفِدَاءَ مِنْهُمْ، فَيَكُونُ مَا أَخَذْنَا مِنْهُمْ قُوَّةً لَنَا عَلَى الكُفَّارِ، وَعَسَى أَنْ يَهْدِيَهُمُ اللَّهُ بِكَ فَيَكُونُوا لَكَ عَضُداً». ذٰلِكَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ الوَحِيدَ مِنْ بَيْنِ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ دَوْرَ العَبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، إِذْ كَانَ مُسْلِماً، يُخْفِي إِسْلَامَهُ عَنْ قُرَيْشٍ، وَهُوَ عَيْنٌ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَيْهَا. فَلَوْ قُتِلَ الأَسْرَى لَوَجَبَ أَنْ يُقْتَلَ

العَبَّاسُ مَعَهُمْ، وَلاَ يَصِحُّ قَتْلُ رَجُلٍ مُسْلِمٍ دُونَ سَبَبٍ، لِذَا لاَ بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ الاسْتِبْقَاءُ لَهُمْ جَمِيعاً وَأَخْذُ الفِدَاءِ.

وَيَبْدُو هٰذَا مِنْ كَلاَمِ العَبَّاسِ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حِينَ طَالَبَهُ بِالفِدَاءِ حَيْثُ قَالَ لَهُ: «وَلٰكِنِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، كُنْتُ امْرَأً مُسْلِماً»، فَأَجَابَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلٰكِنَّ ظَاهِرَكَ كَانَ عَلَيْنَا». جَوَابٌ فِيهِ الحِكْمَةُ كُلُّ الحِكْمَةِ، إِذْ لَوْ قَالَ لَهُ: (نَعَمْ) لاَنْتَهَتْ مُهِمَّتُهُ، وَلَوْ قَالَ لَهُ: (لاَ) لَنَفَى عَنْهُ الإِيمَانَ. وَلاَ يَصِحُّ نَفْيُ الإِيمَانِ عَنْ مُؤْمِنٍ. كَمَا أَنَّ العَبَّاسَ عِنْدَمَا قَالَ هٰذَا الكَلاَمَ يَعْرِفُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَعْرِفُ حَقِيقَةَ الأَمْرِ، وَهُوَ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَكْذِبَ عَلَيْهِ أَوْ يَخْدَعَهُ[1]. وَكَانَ العَبَّاسُ مَرْجِعَ المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ المُسْلِمِينَ فِي

(١) كما يبدو إسلام العبّاس من عدم قتاله في بدرٍ، واستسلامه للأسر دون أية مقاومةٍ. وأمّا ما يشاع وهو السائد بين النّاس من أن الله عاتب رسوله في أخذ الفداء فهذا خطأ. فإن الآية التي يستشهدون بها: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنفال: ٦٧]. وقد نزلت هذه الآية لحادثةٍ جرت أثناء سير المعركة، ذلك أن المسلمين لما وضعوا أيديهم يأسرون، ورسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، في العريش، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش الذي فيه رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، متوشّح السيف، في نفرٍ =

مَكَّةَ. وَيَقُولُ أَبُو رَافِعٍ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُنْتُ غُلَاماً لِلْعَبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَكَانَ الإِسْلَامُ قَدْ دَخَلَنَا أَهْلَ البَيْتِ، فَأَسْلَمَ العَبَّاسُ، وَأَسْلَمَتْ أُمُّ الفَضْلِ، وَأَسْلَمْتُ، وَكَانَ العَبَّاسُ يَهَابُ قَوْمَهُ، وَيَكْرَهُ خِلَافَهُمْ، وَيَكْتُمُ إِسْلَامَهُ».

= من الأنصار يحرسون رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، يخافون عليه كرّة العدو، ورأى رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، في وجه سعد بن معاذٍ الكراهية لما يصنع الناس. فقال رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم: «والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم»؛ قال: أجل، والله يا رسول الله، كانت أوّل وقعةٍ أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان في القتل بأهل الشرك أحبّ إليّ من استبقاء الرجال. وبهذه المناسبة كانت هذه الآية. أمّا العتاب فكان في أخذ الغنائم (الأنفال) التي كانت مدار السورة كلّها. حيث لم تكن الغنائم تحلّ للأنبياء قبل رسول الله، محمّد بن عبد الله، صلّى الله عليه وسلّم، الذي يقول: « نصرت بالرعب، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأعطيت جوامع الكلم، وأحلت لي المغانم ولم تحلل لنبيٍّ قبلي، وأعطيت الشفاعة، خمس لم يؤتهن نبيّ قبلي»، وكانت الآية: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٨ - ٦٩].

فِي أُحُـدٍ:

نَهَضَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَعْدَ تَرَاجُعِ المُسْلِمِينَ يَوْمَ أُحُدٍ إِلَى الشِّعْبِ، وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ بنُ الخَطَّـابِ، وَعَلِـيُّ بـنُ أَبِـي طَـالِـبٍ، وَطَلْحَـةُ بـنُ عُبَيْـدِ اللَّـهِ، وَالزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ، وَالحَارِثُ بنُ الصُّمَّةِ، وَرَهْطٌ مِنَ المُسْلِمِينَ، يَحْمُونَهُ وَيُدَافِعُونَ عَنْهُ فِيمَا إِذَا تَقَدَّمَ مِنْهُ أَحَدُ المُشْرِكِينَ.

فِي دَارِ بَنِي النَّضِيرِ:

وَعِنْدَمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى بَنِي النَّضِيرِ فِي السَّنَةِ الرَّابِعَةِ يَسْتَعِينُهُمْ فِي دِيَةِ القَتِيلَيْنِ اللَّذَيْنِ قَتَلَهُمَا عَمْرُو بنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ، لِلْجِوَارِ الَّذِي عَقَدَهُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَمَا أَنَّ حِلْفاً كَانَ بَيْنَ بَنِي النَّضِيرِ وَبَيْنَ بَنِي عَامِرٍ الَّذِينَ مِنْهُمُ القَتِيلاَنِ. فَهَمَّ بَنُو النَّضِيرِ بِالغَدْرِ بِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعَلِيٌّ. فَأَتَاهُ الخَبَرُ مِنَ السَّمَاءِ، فَقَامَ وَرَجَعَ وَمَنْ مَعَهُ إِلَى المَدِينَةِ، وَعَادَ إِلَيْهِمْ وَحَاصَرَهُمْ ثُمَّ أَجْلاَهُمْ عَنِ المَدِينَةِ.

الأَمِيرُ أَبُو بَكْرٍ:

بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَبَا بَكْرٍ، رَضِيَ

اللَّهُ عَنْهُ، أَمِيراً عَلَى سَرِيَّةٍ فِي شَهْرِ شَعْبَانَ سَنَةَ سَبْعٍ، بِاتِّجَاهِ نَجْدٍ، فَبَيَّتُوا جَمَاعَةً مِنْ هَوَازِنَ، وَقَتَلُوهُمْ، وَكَانَ شِعَارُ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَذَاكَ: أَمِتْ، أَمِتْ. وَقَدِ انْتَصَرَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى هَوَازِنَ، وَعَادُوا سَالِمِينَ.

فِي الحُدَيْبِيَةِ:

لَمَّا انْتَهَى أَمْرُ الصُّلْحِ، وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ كِتَابَةُ ذٰلِكَ، وَثَبَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، فَأَتَى أَبَا بَكْرٍ، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَيْسَ بِرَسُولِ اللَّهِ؟ قَالَ: بَلَى؛ قَالَ: أَوَلَسْنَا بِٱلْمُسْلِمِينَ؟ قَالَ: بَلَى؛ قَالَ: أَوَلَيْسُوا بِالمُشْرِكِينَ؟ قَالَ: بَلَى؛ قَالَ: فَعَلاَمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا عُمَرُ، الْزَمْ غَرْزَهُ، فَإِنِّي أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ؛ قَالَ عُمَرُ: وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، ثُمَّ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَلَسْتَ بِرَسُولِ اللَّهِ؟ قَالَ: بَلَى؛ قَالَ: أَوَلَسْنَا بِٱلْمُسْلِمِينَ؟ قَالَ: بَلَى؛ قَالَ: أَوَلَيْسُوا بِٱلْمُشْرِكِينَ؟ قَالَ: بَلَى؛ قَالَ: فَعَلاَمَ الدَّنِيَّةُ فِي دِينِنَا؟ قَالَ: أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، لَنْ أُخَالِفَ أَمْرَهُ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي! قَالَ: فَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ: مَا زِلْتُ أَتَصَدَّقُ وَأَصُومُ وَأُصَلِّي وَأُعْتِقُ، مِنَ الَّذِي صَنَعْتُ يَوْمَئِذٍ! مَخَافَةَ كَلاَمِي الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ، حَتَّى رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ خَيْراً.

ثُمَّ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلِيَّ بنَ أَبِي طَالِبٍ، فَكَتَبَ كِتَابَ الصُّلْحِ، وَانْتَهَى الأَمْرُ، وَشَهِدَ عَلَى كِتَابِ الصُّلْحِ مِنَ المُسْلِمِينَ: أَبُو بَكْرٍ، وَعمَرُ بْنُ الخَطَّابِ، وَعَبْدُ الرَّحْمٰنِ بنُ عَوْفٍ، وَسَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بنُ سُهَيْلِ بنِ عَمْرٍو، وَمَحْمُودُ بنُ مَسْلَمَةَ، وَعَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ، وَكَانَ هُوَ كَاتِبُ الصَّحِيفَةِ.

فِي الغَزْوِ:

بَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّ جَمْعاً مِنْ بَلِيٍّ وَقُضَاعَةَ قَدْ تَجَمَّعُوا يُرِيدُونَ التَوَغُّلَ فِي دِيَارِ الإِسْلَامِ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَمْرو بنَ العَاصِ، وَعَقَدَ لَهُ لِوَاءً أَبْيَضَ، وَجَعَلَ مَعَهُ رَايَةً سَوْدَاءَ، وَبَعَثَهُ فِي ثَلَاثِمِائَةٍ مِنْ سُرَاةِ الأَنْصَارِ وَالمُهَاجِرِينَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَسْتَعِينَ بِمَنْ يَمُرُّ بِهِمْ مِنْ العَرَبِ. وَكَانَتْ أُمُّ العَاصِ بنِ وَائِلٍ وَالِدِ عَمْرٍو مِنْ بَلِيٍّ، حَتَّى إِذَا كَانَ عَلَى مَاءٍ بِأَرْضِ جُذَامٍ يُقَالُ لَهُ السُّلْسُلْ، وَبِذٰلِكَ سُمِّيَتْ تِلْكَ الغَزْوَةُ «ذَاتِ السَّلَاسِلِ» بَعَثَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَسْتَمِدُّهُ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَدَّهُ بِأَبِي عُبَيْدَةَ بنِ الجَرَّاحِ وَمَعَهُ سَادَةُ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَمِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، وَيَزِيدُ عَدَدُهُمْ

عَلَى المِائَتَيْنِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَكُونُوا جَمِيعاً وَلاَ يَخْتَلِفَا. وَسَارُوا حَتَّى لَحِقُوا بِعَمْرِو بنِ العَاصِ. فَأَرَادَ أَبُو عُبَيْدَةَ أَنْ يَؤُمَّ النَّاسَ، وَيَتَقَدَّمَ عَمْراً، فَقَالَ لَهُ عَمْرُو: إِنَّمَا قَدِمْتَ عَلَيَّ مَدَداً لِي، وَلَيْسَ لَكَ أَنْ تَؤُمَّنِي، وَأَنَا الأَمِيرُ، وَإِنَّمَا أَرْسَلَكَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَيَّ مَدَداً. فَقَالَ لَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ: اعْلَمْ يَا عَمْرُو أَنَّ آخِرَ مَا عَهِدَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ قَالَ: «إِذَا قَدِمْتَ عَلَى صَاحِبِكَ فَتَطَاوَعَا وَلاَ تَخْتَلِفَا»، وَإِنَّكَ واللَّهِ إِنْ عَصَيْتَنِي لأُطِيعَنَّكَ، فَكَانَ عَمْرُو يُصَلِّي بِالنَّاسِ.

«كَانَ رَافِعُ بنُ أَبِي رَافِعٍ يَقُولُ: كُنْتُ فِيمَنْ نَفَرَ مَعَ أَبِي عُبَيْدَةَ بنِ الجَرَّاحِ، وَكُنْتُ رَجُلاً فِي الجَاهِلِيَّةِ أُغِيرُ عَلَى أَمْوَالِ النَّاسِ، فَكُنْتُ أَجْمَعُ المَاءَ فِي البَيْضِ - بَيْضِ النَّعَامِ - فَأَجْعَلُهَا فِي أَمَاكِنَ أَعْرِفُهَا، فَإِذَا مَرَرْتُ بِهَا وَقَدْ ظَمِئْتُ اسْتَخْرَجْتُهَا فَشَرِبْتُ مِنْهَا، فَلَمَّا نَفَرْتُ فِي ذٰلِكَ البَعْثِ قُلْتُ: وَاللَّهِ لأَخْتَارَنَّ لِنَفْسِي صَاحِباً يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهِ. فَاخْتَرْتُ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ فَصَحِبْتُهُ، وَكَانَتْ لَهُ عَبَاءَةٌ فَدَكِيَّةٌ، فَإِذَا رَكِبَ خَلَّهَا عَلَيْهِ بِخِلاَلٍ، وَإِذَا نَزَلْنَا بَسَطَهَا. فَلَمَّا قَفَلْنَا قُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ! رَحِمَكَ اللَّهُ! عَلِّمْنِي شَيْئاً يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهِ. قَالَ: قَدْ كُنْتُ فَاعِلاً وَلَوْ لَمْ تَسْأَلْنِي؛ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ، وَأَقِمِ الصَّلاَةَ، وَآتِ الزَّكَاةَ، وَصُمْ

رَمَضَانَ، وَحُجَّ البَيْتَ وَاعْتَمِرْ، وَلاَ تَتَأَمَّرْ عَلَى اثْنَيْنِ مِنَ المُسْلِمِينَ. قَالَ: قُلْتُ: أَمَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ مِنَ الصَّلاَةِ والصَّوْمِ والحَجِّ فَأَنَا فَاعِلُهُ، وَأَمَّا الإِمَارَةَ فَإِنِّي رَأَيْتُ النَّاسَ لاَ يُصِيبُونَ هَذَا الشَّرَفَ وَهَذَا الغِنَى وَهَذِهِ المَنْزِلَةِ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعِنْدَ النَّاسِ إِلاَّ بِهَا. قَالَ: إِنَّكَ اسْتَنْصَحْتَنِي فَجَهَدْتُ لَكَ نَفْسِي. إِنَّ النَّاسَ دَخَلُوا فِي الإِسْلاَمِ طَوْعاً وَكَرْهاً فَأَجَارَهُمُ اللَّهُ مِنَ الظُّلْمِ، وَهُمْ عُوَّادُ اللَّهِ وَجِيرَانُ اللَّهِ، وَفِي أَمَانَتِهِ، فَمَنْ أَخْفَرَ فَإِنَّمَا يُخْفِرُ اللَّهَ فِي جِيرَانِهِ، وَإِنَّ شَاةَ أَحَدِكُمْ أَوْ بَعِيرَهُ لَيَذْهَبُ فَيَظَلُّ نَاتِئاً عَضَلُهُ غَضَباً لِجَارِهِ، وَاللَّهُ مِنْ وَرَاءِ جَارِهِ. قَالَ: فَلَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، جِئْتُهُ فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَمْ تَنْهَنِي أَنْ أَتَأَمَّرَ عَلَى اثْنَيْنِ؟ قَالَ: بَلَى، وَأَنَا عَلَى ذٰلِكَ! ! قَالَ: فَمَا لَكَ تَأَمَّرْتَ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ؟ قَالَ: اخْتَلَفَ النَّاسُ وَخَشِيتُ عَلَيْهِمُ الهَلاَكَ، وَدَعَوْا إِلَيَّ فَلَمْ أَجِدْ لِذَلِكَ بُدّاً»[1]. أُولٰئِكَ الَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ لِمَنْصِبٍ، أَوْ مَكَانَةٍ، أَوْ مَالٍ، أَوْ مَصْلَحَةٍ، أَوْ شَهْوَةٍ، أَوْ أَيِّ غَرَضٍ مِنْ أَغْرَاضِ الدُّنْيَا، وَلٰكِنْ إِذَا وَجَدَ خِدْمَةَ المُسْلِمِينَ فِي تَوْلِيَتِهِ أَذْعَنَ وَرَضِيَ، تَارِكاً رَغْبَتَهُ وَهَوَاهُ فِي سَبِيلِ فَائِدَةِ المُسْلِمِينَ، وَهَذَا شَأْنُ أَبِي بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) المغازي للواقدي الجزء الثاني ٧٧١ - ٧٧٣.

وَكَانَ عَوْفُ بنُ مَالِكٍ الأَشْجَعِيُّ رَفِيقاً لأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، مَعَهُمَا فِي رَحْلِهِمَا، فَخَرَجَ عَوْفٌ يَوْماً فِي العَسْكَرِ فَمَرَّ بِقَوْمٍ بِأَيْدِيهِمْ جَزُورٌ قَدْ عَجَزُوا عَنْ عَمَلِهَا، فَكَانَ عَوْفٌ عَالِماً بِالجُزُرِ فَقَالَ: أَتُعْطُونِي عَلَيْهَا وَأَقْسِمُهَا بَيْنَكُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ نُعْطِيكَ عُشَيْراً مِنْهَا. فَنَحَرَهَا ثُمَّ جَزَّأَهَا بَيْنَهُمْ، وَأَعْطَوْهُ جُزْءاً مِنْهَا فَأَخَذَهُ فَأَتَى بِهِ أَصْحَابَهُ، فَطَبَخُوهُ وَأَكَلُوا مِنْهُ. فَلَمَّا فَرَغُوا قَالَ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا اللَّحْمُ؟ فَأَخْبَرَهُمَا فَقَالاَ: وَاللَّهِ مَا أَحْسَنْتَ حِينَ أَطْعَمْتَنَا هَذَا. ثُمَّ قَامَا يَتَقَيَّآنِ. فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فَعَلَ ذَلِكَ الجَيْشُ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، لِعَوْفٍ: تَعَجَّلْتَ أَجْرَكَ! ثُمَّ أَتَى أَبُو عُبَيْدَةَ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ.

فَالمُسْلِمُ يَحْرِصُ الحِرْصَ كُلَّهُ فِي مَعْرِفَةِ مَصْدَرِ مَا يَأْكُلُ، وَيَتَأَكَّدُ مِنْ حِلِّ ذَلِكَ، وَيَجْهَدُ فِي أَنْ لاَ يَدْخُلَ جَوْفَهُ إِلاَّ الحَلاَلُ، وَكَانَتِ الثِّقَةُ قَائِمَةً بِمَا جَاءَ بِهِ عَوْفٌ مِنَ اللَّحْمِ، لِذَا أَقْبَلُوا عَلَى الطَّعَامِ، فَلَمَّا سَأَلَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَأَخْبَرَهُمَا الخَبَرَ شَكَّا لأَنَّ القَوْمَ كَانُوا قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى نَحْرِ الجَزُورِ دُونَ الحَاجَةِ إِلَى ذَلِكَ. وَهَذَا مَا جَعَلَ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ يَتَقَيَّآنِ مَا فِي جَوْفَيْهِمَا إِذْ لَمْ يَجِدَا وَسِيلَةً سِوَى ذَلِكَ، وَكَذَا فَعَلَ بَقِيَّةُ المُسْلِمِينَ. وَفِي

هَذَا تَرْبِيَةٌ لِلآخَرِينَ لِلسُّؤَالِ عَنْ مَصْدَرِ الطَّعَامِ الَّذِي يَتَغَذَّوْنَ بِهِ قَبْلَ تَنَاوُلِهِ فَإِنْ كَانَ مِنْ مَصْدَرٍ حَلاَلٍ أَكَلُوا وَإِلاَّ امْتَنَعُوا وَفَتَّشُوا عَنْ طَعَامٍ آخَرَ.

كَمَا تَعَلَّمَ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ كَيْفِيَّةَ السُّؤَالِ، وَجَلْبِ الرِّزْقِ لِلْعِيَالِ، وَلِلرِّفْقَةِ، وَمَا يَجِبُ أَنْ يَفْعَلَهُ.

فِي خَيْبَرَ:

بَعْدَ أَنْ صَالَحَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قُرَيْشاً فِي الحُدَيْبِيَّةِ التَفَتَ إِلَى الشَّمَالِ جِهَةِ خَيْبَرَ لِيُؤَدِّبَ يَهُودَ الَّذِينَ مَا فَتِئُوا يَحِيكُونَ المُؤَامَرَاتِ عَلَى المُسْلِمِينَ، وَيُحَزِّبُونَ الأَحْزَابَ ضِدَّهُمْ، وَوَصَلَ إِلَى خَيْبَرَ وَأَخَذَتِ الحُصُونُ تُفْتَحُ لَهُ بِالقُوَّةِ، وَبَقِيَتْ بَعْضُ الحُصُونِ، وَقَدِ امْتَنَعَتْ فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ بِرَايَتِهِ، وَكَانَتْ بَيْضَاءَ فَلَمْ يَكُ فَتْحٌ، وَقَدْ جَهِدَ، ثُمَّ بَعَثَ عُمَرَ بِالرَّايَةِ، فَلَمْ يَكُ فَتْحٌ، وَقَدْ جَهِدَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَداً رَجُلاً يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ، لَيْسَ بِفَرَّارٍ». فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلِيّاً رِضْوَانُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَهُوَ أَرْمَدُ، فَتَفَلَ فِي عَيْنِهِ، ثُمَّ قَالَ: «خُذْ هَذِهِ الرَّايَةَ، فَامْضِ بِهَا حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ»، فَانْطَلَقَ عَلِيٌّ بِالرَّايَةِ

حَتَّى فتحَ اللَّهُ عَلَيْهِ.

لَمْ يَبْقَ مِنْ خَيْبَرَ إِلاَّ حِصْنَا «الوَطِيحُ» و «السَّلاَلِمُ» وَبَعَثَ أَهْلُ «فَدَكَ» وَفْداً يَطْلُبُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، الصُّلْحَ بِأَنْ يُسَيِّرَ يَهُودَ، وَيَحْقِنَ دِمَاءَهُمْ، وَيُخَلُّوا لَهُ الأَمْوَالَ، فَفَعَلَ، فَلَمَّا نَزَلَ أَهْلُ خَيْبَرَ عَلَى ذَلِكَ، سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ يُعَامِلَهُمْ فِي الأَمْوَالِ عَلَى النِّصْفِ، وَقَالُوا: نَحْنُ أَعْلَمُ بِهَا مِنْكُمْ، وَأَعْمَرُ لَهَا، فَصَالَحَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى النِّصْفِ، عَلَى أَنَّا أَذَا شِئْنَا أَنْ نُخْرِجَكُمْ أَخْرَجْنَاكُمْ، فَصَالَحَهُ أَهْلُ فَدَكَ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ، فَكَانَتْ خَيْبَرُ فَيْئاً بَيْنَ المُسْلِمِينَ، وَكَانَتْ فَدَكُ خَالِصَةً لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأَنَّهُمْ لَمْ يَجْلِبُوا عَلَيْهَا بِخَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ.

وَأَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِائَةَ وَسَقٍ لأَبِي بَكْرٍ مِنَ التَّمْرِ فِيمَنْ أَعْطَى مِنْ حِصْنِ «الكَتِيبَةِ»، وَهِيَ فِي وَادِي خَاصٍ.

فِي حُنَيْنٍ:

وَقَدْ أُعْجِبَ المُسْلِمُونَ بِكَثْرَتِهِمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ، فَعُوقِبُوا بِالهَزِيمَةِ حَتَّى ثَابُوا إِلَى رُشْدِهِمْ فَانْتَصَرُوا. وَذَلِكَ أَنَّ المُشْرِكِينَ

كَانُوا قَدْ سَبَقُوا المُسْلِمِينَ إِلَى الوَادِي، وَكَمَنُوا لَهُمْ فِي جَوَانِبِهِ، وَبَيْنَمَا كَانَ المُسْلِمُونَ يَنْحَدِرُونَ بِهِ قَبْلَ انْبِلاَجِ الصُّبْحِ إِذْ بِالعَدُوِّ يَنْقَضُّ عَلَيْهِمْ، فَأَخَذَتْهُمُ المُفَاجَأَةُ وَالهُجُومُ المُبَاغِتُ فَانْشَمَرَ النَّاسُ رَاجِعِينَ لاَ يَلْوِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ. وَثَبَتَ أَبُو بَكْرٍ مَعَ مَنْ ثَبَتَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَمْثَالَ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ، وَعَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ، وَالعَبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، والفَضْلِ بنِ العَبَّاسِ، وَالمُغِيرَةِ أَبِي سُفْيَانَ بنِ الحَارِثِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَجَعْفَرَ بنِ أَبِي سُفْيَانَ بنِ الحَارِثِ، وَرَبِيعَةَ بنِ الحَارِثِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَأُسَامَةَ بنِ زَيْدٍ، وَأَيْمَنَ بنِ عُبَيْدٍ (ابْنُ أُمِّ أَيْمَنَ) أَخِي أُسَامَةَ لأُمِّهِ، وَقَدِ اسْتُشْهِدَ يَوْمَذَاكَ.

أَخَذَ العَبَّاسُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ يَصْرُخُ بِالنَّاسِ: يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، يَا مَعْشَرَ المُهَاجِرِينَ، فَثَابَ النَّاسُ، وَالْتَفُّوا حَوْلَ رَسُولِهِم، وَعَاوَدُوا الكَرَّةَ، فَانْتَصَرُوا بِإِذْنِ اللَّه. وَأَخَذُوا المَغَانِمَ الكَثِيرَةَ وَالسَّبَايَا، وَقَدْ جُمِعَتْ فِي الجِعْرَانَةِ.

فِي تَبُوكَ:

دَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رَايَتَهُ العُظْمَى يَوْمَ تَبُوكَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، وَكَانَتْ سَوْدَاءَ. وَكَانَ ذَلِكَ فِي شَهْرِ رَجَبٍ مِنَ السَّنَةِ التَّاسِعَةِ لِلْهِجْرَةِ.

حَجُّ أَبِي بَكْرٍ بِالمُسْلِمِينَ:

بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَبَا بَكْرٍ أَمِيراً عَلَى الحَجِّ فِي السَّنَةِ التَّاسِعَةِ لِيُقِيمَ لِلْمُسْلِمِينَ حَجَّهُمْ، وَالنَّاسُ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ عَلَى مَنَازِلِهِمْ مِنْ حَجِّهِمْ، فَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ المُسْلِمِينَ.

وَبَعْدَ أَنْ خَرَجَ نَزَلَتْ سُورَةُ «بَرَاءَةٌ» فِي نَقْضِ مَا بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبَيْنَ المُشْرِكِينَ مِنَ العَهْدِ، الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ: أَنْ لاَ يُصَدَّ عَنِ البَيْتِ أَحَدٌ جَاءَهُ، وَلاَ يَخَافُ أَحَدٌ فِي الشَّهْرِ الحَرَامِ، وَكَانَ ذَلِكَ عَهْداً عامّاً بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ، وَكَانَتْ بَيْنَ ذَلِكَ عُهُودٌ خَاصَّةٌ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبَيْنَ قَبَائِلَ مِنَ العَرَبِ إِلَى آجَالٍ مُعَيَّنَةٍ.

قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ بَعَثْتَ بِمَا نَزَلَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ: «لاَ يُؤَدِّي عَنِّي إِلاَّ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي»، ثُمَّ دَعَا عَلِيَّ بنَ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لَهُ: اخْرُجْ بِهَذِهِ القِصَّةِ مِنْ صَدْرِ سُورَةِ «بَرَاءَةٌ» وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ يَوْمَ النَّحْرِ إِذَا اجْتَمَعُوا بِـ «مِنَى»، أَنَّهُ لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ كَافِرٌ، وَلاَ يَحُجُّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ، وَلاَ يَطُوفُ بِالبَيْتِ

عُرْيَانٌ، وَمَنْ كَانَ لَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَهْدٌ فَهُوَ إِلَى مُدَّتِهِ. فَخَرَجَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ، رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ، عَلَى نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، «العَضْبَاء»، حَتَّى أَدْرَكَ أَبَا بَكْرٍ بِالطَّرِيقِ، فَلَمَّا رَآهُ أَبُو بَكْرٍ بِالطَّرِيقِ قَالَ: أَأَمِيرٌ أَمْ مَأْمُورٌ؟ فَقَالَ: بَلْ مَأْمُورٌ، ثُمَّ مَضَيَا. فَأَقَامَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّاسِ الحَجَّ، والعَرَبُ إِذْ ذَاكَ فِي تِلْكَ السَّنَةِ عَلَى مَنَازِلِهِمْ مِنَ الحَجِّ، الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا فِي الجَاهِلِيَّةِ. حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ النَّحْرِ، قَامَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَأَذَّنَ فِي النَّاسِ بِالَّذِي أَمَرَهُ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ كَافِرٌ، وَلاَ يَحُجُّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ، وَلاَ يطُوفُ بِالبَيْتِ عُرْيَانٌ، وَمَنْ لَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَهْدٌ فَهُوَ إِلَى مُدَّتِهِ؛ وَأَجَّلَ النَّاسَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ مِنْ يَوْمٍ أَذَّنَ فِيهِمْ لِيَرْجِعَ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى مَأْمَنِهِمْ أَوْ بِلاَدِهِمْ، ثُمَّ لاَ عَهْدَ لِمُشْرِكٍ وَلاَ ذِمَّةَ إِلاَّ أَحَدٌ كَانَ لَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَهْدٌ إِلَى مُدَّةٍ، فَهُوَ إِلَى مُدَّتِهِ. فَلَمْ يَحُجَّ بَعْدَ ذَلِكَ العَامِ مُشْرِكٌ، وَلَمْ يَطُفْ بِالبَيْتِ عُرْيَانٌ.

الفصل الخامس

مكانة أبي بكر

الصِّدِّيقُ أَعْظَمُ المُسْلِمِينَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ صَاحِبُهُ، وَصِدِّيقُهُ، وَخَلِيلُهُ، وَخَلِيفَتُهُ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبَا بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً مِنْ أُمَّتِي لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، إِلاَّ خُلَّةَ الإِسْلاَمِ، لاَ يَبْقَيَنَّ فِي المَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلاَّ خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ»[1].

وَعَنْ عَمْرِو بنِ العَاصِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ بَعَثَهُ عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السَّلاَسِلِ، فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «عَائِشَةُ»، فَقُلْتُ: مِنَ الرِّجَالِ؟ قَالَ: «أَبُوهَا»، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ»، فَعَدَّ رِجَالاً[2].

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كُنَّا فِي زَمَنِ

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لاَ نَعْدِلُ بِأَبِي بَكْرٍ أَحَداً، ثُمَّ عُمَرَ، ثُمَّ عُثْمَانَ، ثُمَّ نَتْرُكُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لاَ نُفَاضِلُ بَيْنَهُمْ[١].

عَنْ مُحَمَّدِ بنِ الحَنَفِيَّةِ، قَالَ: قُلْتُ لأَبِي: أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: أَبُو بَكْرٍ، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ عُمَرُ، وَخَشِيتُ أَنْ يَقُولَ عُثْمَانُ، قُلْتُ: ثُمَّ أَنْتَ؟ قَالَ: مَا أَنَا إِلاَّ رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ[٢].

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، قَالَ: أَتَتِ امْرَأَةٌ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَرَهَا أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ، قَالَتْ: أَرَأَيْتَ إِنْ جِئْتُ وَلَمْ أَجِدْكَ؟ كَأَنَّهَا تَقُولُ: المَوْتُ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ لَمْ تَجِدِينِي فَأْتِي أَبَا بَكْرٍ»[٣].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ اليَوْمَ صَائِماً؟» قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا. قَالَ: «فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمُ اليَوْمَ جَنَازَةً؟» قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا. قَالَ: «فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ اليَومَ مِسْكِيناً؟» قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

(٣) متفق عليه.

قَالَ: «فَمَنْ عَادَ مِنكُمُ اليَوْمَ مَرِيضاً؟» قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلاَّ دَخَلَ الجَنَّةَ»[1].

الإِنْفَـــاقُ:

كَانَ أَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ذَا مَالٍ كَثِيرٍ، وَقَدْ جَعَلَهُ كُلَّهُ لِلدَّعْوَةِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَكَانَ يُقَدِّمُ لِرَسُولِ اللَّهِ، مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الدَّعْوَةُ، كَمَا أَنَّهُ كَانَ يَشْتَرِي الرِّقَابَ الَّتِي أَسْلَمَتْ لِيُنْقِذَهَا مِمَّا تُعَانِي مِنَ العَذَابِ عَلَى أَيْدِي أَوْلِيَائِهَا الكُفَّارِ، ثُمَّ يُعْتِقُهَا، لاَ يَبْتَغِي سِوَى رِضَاءِ اللَّهِ.

عَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَمَرَنَا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ نَتَصَدَّقَ، وَوَافَقَ ذٰلِكَ مِنِّي مَالاً، فَقُلْتُ: اليَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ - إِنْ سَبَقْتُهُ - قَالَ: فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟» قُلْتُ: مِثْلَهُ. وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدِهِ. فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟» قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، قُلْتُ: لاَ أَسْبِقُهُ إِلَى شَيْءٍ أَبَداً[2].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي.

صِـدْقُ الإِيمَـانِ:

كَانَ أَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ذَا إِيمَانٍ قَوِيٍّ، حَتَّى كَانَ إِيمَانُهُ كَالجِبَالِ الرَّاسِخَةِ. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ: «إِنَّ قَوْمِي لاَ يُصَدِّقُونِي، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: يُصَدِّقُكَ أَبُو بَكْرٍ، وَهُوَ الصِّدِّيقُ»[1].

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ جَالِساً عِنْدَ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذْ أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ آخِذاً بِطَرَفِ ثَوْبِهِ، حَتَّى أَبْدَى عَنْ رُكْبَتِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ». فَسَلَّمَ وَقَالَ: إِنِّي كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ الخَطَّابِ شَيْءٌ فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ ثُمَّ نَدِمْتُ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي فَأَبَى عَلَيَّ، فَأَقْبَلْتُ إِلَيْكَ، فَقَالَ: «يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ»، ثَلاَثاً، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ نَدِمَ فَأَتَى مَنْزِلَ أَبِي بَكْرٍ، فَسَأَلَ: أَثَمَّ أَبُو بَكْرٍ؟ فَقَالُوا: لاَ، فَأَتَى إِلَى النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَلَّمَ، فَجَعَلَ وَجْهَ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَتَمَعَّرُ، حَتَّى أَشْفَقَ أَبُو بَكْرٍ، فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَاللَّهُ أَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ، مَرَّتَيْنِ. فَقَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ

(١) رواه الطبراني في الأوسط.

بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ صَدَقَ، وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي» مَرَّتَيْنِ، فَمَا أُوذِيَ بَعْدَهَا[1].

عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ، قَالَ: أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا وَأَحَبُّنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2].

وَعَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: لاَ يَنْبَغِي لِقَوْمٍ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ أَنْ يَؤُمَّهُمْ غَيْرُهُ[3].

الشَّجَاعَةُ:

شَجَاعَةُ الرِّجَالِ أَنْوَاعٌ، وَكُلُّهَا بُطُولَةٌ وَشَجَاعَةٌ، مِنَ الأَبْطَالِ مَنْ يَنْتَقِلُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ يَضْرِبُ بِالسَّيْفِ، وَيَطْعَنُ بِالرُّمْحِ وَيَتَلَقَّى الضَّرَبَاتِ لاَ يُبَالِي بِالخَصْمِ، يَفِرُّ أَمَامَهُ الأَبْطَالُ، وَيُجَنْدِلُ الرِّجَالَ وَكَأَنَّهُ لاَ يَهْتَمُّ بِمَن أَمَامَهُ، وَهَؤُلاَءِ يُعْرَفُ مَكَانُهُمْ، وَيَشْتَهِرُونَ فِي الحُرُوبِ وَذَلِكَ مِثْلُ حَمْزَةَ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَعَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ، وَخَالِدِ بنِ الوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) رواه الترمذي.

عَنْهُمْ جَمِيعاً، وَهَؤُلاَءِ هُمُ الَّذِينَ يَعْرِفُ النَّاسُ شَجَاعَتَهُمْ، وَيَتَكَلَّمُونَ دَائِماً عَنْهُمْ.

وَمِنَ الأَبْطَالِ مَنْ يَثْبُتُ مَكَانَهُ لاَ يَتَزَحْزَحُ عَنْهُ وَلَوْ جَاءَ جَيْشٌ بِكَامِلِهِ يُرِيدُ دَحْرَهُ لَمَا تَمَكَّنَ، يَصُدُّ مَنْ يُحَاوِلُ التَّقَدُّمَ، وَيَرُدُّ مَنْ يَعْمَلُ عَلَى نَيْلِ هَدَفٍ مِنْ قَائِدٍ أَوْ بَطَلٍ. وَمِنْ هٰؤُلاَءِ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وَعُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جَمِيعاً، وَنَعْرِفُ كُلُّنَا أَنَّ هَؤُلاَءِ وَأَمْثَالَهُمْ قَدْ بَقُوا بِجَانِبِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حِينَ تَفَرَّقَ عَنْهُ النَّاسُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَثَبَتُوا فِي مَوَاضِعِهِمْ بِالقُرْبِ مِنْهُ يَوْمَ وَلَّى النَّاسُ الأَدْبَارَ فِي حُنَيْنٍ. وَهُمْ مَعَهُ فِي كُلِّ مَيْدَانٍ، وَيُحِيطُونَ بِهِ فِي كُلِّ سَاحَةٍ، وَهُوَ دَائِماً فِي مُقَدِّمَةِ المُقَاتِلِينَ، وَفِي طَلِيعَةِ الأَبْطَالِ بَلْ يَلُوذُونَ بِهِ إِذَا حَمِيَ الوَطِيسُ وَاحْمَرَّتِ الحَدَقُ. وَهَؤُلاَءِ عَلَى رَأْسِ قَائِمَةِ الشُّجْعَانِ، وَإِنْ كَانُوا لاَ يُذْكَرُونَ إِلاَّ قَلِيلاً، وَلأَنَّ صَرْعَاهُمْ قَلِيلَةٌ حَيْثُ لاَ يَتَحَرَّكُونَ، وَإِنَّمَا مُهِمَّتُهُمُ الأَسَاسِيَّةُ هِيَ حِمَايَةُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَأَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِذَنْ مِنْ أَكْثَرِ الرِّجَالِ شَجَاعَةً.

وَمِنَ الأَبْطَالِ مَنْ يَتَقَدَّمُ فِي صُفُوفِ الأَعْدَاءِ يَضْرِبُ يَمْنَةً وَيَسْرَةً لاَ يُبَالِي بِالعَدُوِّ، وَيَسْتَمِرُّ فِي تَقَدُّمِهِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ

آخِرِهِمْ، وَمِنْ هٰؤُلاَءِ الزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. فَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ كَثِيرٍ، فَاجْتَمَعَ إِلَيهِ - إِلَى الزُّبَيْرِ - جَمَاعَةٌ مِنَ الأَبْطَالِ يَوْمَئِذٍ فَقَالُوا: أَلاَ تَحْمِلُ فَنَحْمِلَ مَعَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّكُمْ لاَ تَثْبُتُونَ، فَقَالُوا: بَلَى. فَحَمَلَ وَحَمَلُوا، فَلَمَّا وَاجَهُوا صُفُوفَ الرُّومِ أَحْجَمُوا وَأَقْدَم هُوَ، فَٱخْتَرَقَ صُفُوفَ الرُّومِ حَتَّى خَرَجَ مِنَ الجَانِبِ الآخَرِ، وَعَادَ إِلَى أَصْحَابِهِ. ثُمَّ جَاءُوا إِلَيْهِ مَرَّةً ثَانِيَةً فَفَعَلَ كَمَا فَعَلَ فِي الأُولَى، وَجُرِحَ يَوْمَئِذٍ جُرْحَيْنِ فِي كَتِفِهِ.

كَمَا يَجِبُ أَلاَّ نَنْسَى أَنَّ الإِنْفَاقَ بِسخَاءٍ شَجَاعَةٌ، فَالمَالُ عِنْدَ الكَثِيرِينَ يُعَادِلُ النَّفْسَ، وَالجِهَادُ إِنَّمَا هُوَ بِالمَالِ وَالنَّفْسِ، وَقَدْ عُرِفَ عَدَدٌ مِنَ الأَغْنِيَاءِ مِنَ الصَّحَابَةِ بِكَرَمِهِمْ وَجُودِهِمْ، وَبَذْلِهِمُ المَالَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وَعُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ، وَعَبْدُ الرَّحْمٰنِ بنُ عَوْفٍ، وَقَيْسُ بنُ سَعْدٍ، وَالكَثِيرُ مِنَ المُسْلِمِين، وَرَأَيْنَا إِنْفَاقَ الصِّدِّيقُ وَجَوَابَهُ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عِنْدَمَا سَأَلَهُ مَاذَا أَبْقَيْتَ لِعِيَالِكَ بَعْدَ أَنْ بَذَلَ مَالَهُ كُلَّهَ «أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»، فَشَجَاعَةُ أَبِي بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَلَّ نَظِيرُهَا فِي جَوَانِبِ التَّضْحِيَةِ كُلِّهَا.

الفصل السادس

بيعة أبي بكر

بَدَأَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَشْكُو مِنْ وَجَعِهِ الَّذي قَبَضَهُ اللَّهُ فِيهِ، فِي أَوَائِلِ شَهْرِ رَبِيعِ الأَوَّلِ مِنَ السَّنَةِ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ. وَقَدْ خَرَجَ عَاصِباً رَأْسَهُ، تَخُطُّ قَدَمَاهُ، يَسْتَنِدُ مِنْ جِهَةٍ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَمِنَ الجِهَةِ الأُخْرَى عَلَى الفَضْلِ بنِ العَبَّاسِ حَتَّى دَخَلَ بَيْتَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ لِتُمَرِّضَهُ وَتَقُومَ عَلَى خِدْمَتِهِ.

اشْتَدَّ الوَجَعُ بِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: هَرِيقُوا عَلَيَّ سَبْعَ قِرَبٍ مِنْ آبَارٍ شَتَّى، حَتَّى أَخْرُجَ إِلَى النَّاسِ فَأَعْهَدَ إِلَيْهِمْ. فَصَبُّوا عَلَيْهِ المَاءَ حَتَّى طَفِقَ يَقُولُ: حَسْبُكُمْ حَسْبُكُمْ. فَخَرَجَ عَاصِباً رَأْسَهُ حَتَّى جَلَسَ عَلَى المِنْبَرِ، وَكَانَ أَوَّلُ مَا تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ صَلَّى عَلَى أَصْحَابِ أُحُدٍ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، فَأَكْثَرَ الصَّلَاةَ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ عَبْداً مِنْ عِبَادِ اللَّهِ خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ. فَفَهِمَهَا أَبُو بَكْرٍ،

وَعَرَفَ أَنَّ نَفْسَهُ يُرِيدُ، فَبَكَى، وَقَالَ: بَلْ نَحْنُ نَفْدِيكَ بِأَنْفُسِنَا وَأَبْنَائِنَا، فَقَالَ: عَلَى رِسْلِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، ثُمَّ قَالَ: انْظُرُوا هَذِهِ الأَبْوَابِ اللاَّفِظَةِ فِي المَسْجِدِ، فَسُدُّوهَا إِلاَّ بَيْتَ أَبِي بَكْرٍ، فَإِنِّي لاَ أَعْلَمُ أَحَداً كَانَ أَفْضَلَ فِي الصُّحْبَةِ عِنْدِي يَداً مِنْهُ.

وَكَانَ مِمَّا قَالَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي ذَاكَ المَوْقِفِ: فَإِنِّي لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنَ العِبَادِ خَلِيلاً لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً، وَلٰكِنْ صُحْبَةٌ وَأَخَاءُ إِيمَانٍ حَتَّى يَجْمَعَ اللَّهُ بَيْنَنَا عِنْدَهُ.

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ يَوْمَذَاكَ: يَا مَعْشَرَ المُهَاجِرِينَ، اسْتَوْصُوا بِالأَنْصَارِ خَيْراً، فَإِنَّ النَّاسَ يَزِيدُونَ، وَإِنَّ الأَنْصَارَ عَلَى هَيْئَتِهَا لاَ تَزِيدُ، وَإِنَّهُمْ كَانُوا عَيْبَتِي الَّتِي أَوَيْتُ إِلَيْهَا، فَأَحْسِنُوا إِلَى مُحْسِنِهِمْ، وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ.

وَمِمَّا ذُكِرَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الخِلاَفَةَ لِلْمُهَاجِرِينَ، وَيُشِيرُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى أَبِي بَكْرٍ فِيمَا تَكَلَّمَ. وَمَنْ وَلِيَ الأَمْرَ فَعَلَيْهِ أَنْ يَسْتَوْصِيَ بِالأَنْصَارِ خَيْراً.

وَعَنْ أُمِّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَثِيراً مَا أَسْمَعُهُ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَقْبِضْ نَبِيّاً حَتَّى يُخَيِّرَهُ»، قَالَتْ: فَلَمَّا حَضَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ، كَانَ آخِرُ كَلِمَةٍ سَمِعْتُهَا مِنْهُ وَهُوَ يَقُولُ: بَلِ الرَّفِيقُ الأَعْلَى مِنَ الجَنَّةِ، قَالَتْ: فَقُلْتُ إِذَنْ وَاللَّهِ لاَ يَخْتَارُنَا، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ الَّذِي كَانَ يَقُولُ لَنَا: إِنَّ نَبِيّاً لَمْ يُقْبَضْ حَتَّى يُخَيَّرَ.

وَلَمَّا زَادَتْ شِدَّةُ الوَجَعِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ. قَالَتْ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ رَقِيقٌ، ضَعِيفُ الصَّوْتِ، كَثِيرُ البُكَاءِ إِذَا قَرَأَ القُرْآنَ. قَالَ: مُرُوهُ فَلْيُصَلِّ بالنَّاسِ. قَالَتْ: فَعُدْتُ بِمِثْلِ قَوْلِي، فَقَالَ: إِنَّكُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ، فَمُرُوهُ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ، قَالَتْ: فَواللَّهِ مَا أَقُولُ ذٰلِكَ إِلاَّ أَنِّي كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ يُصْرَفَ ذٰلِكَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ، وَعَرَفْتُ أَنَّ النَّاسَ لاَ يُحِبُّونَ رَجُلاً قَامَ مَقَامَهُ أَبَداً، وَأَنَّ النَّاسَ سَيَتَشَاءَمُونَ بِهِ فِي كُلِّ حَدْثٍ كَانَ، فَكُنْتُ أُحِبُّ أَنْ يُصْرَفَ ذَلِكَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ.

وَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الاثْنَيْنِ الَّذِي قَبَضَ اللَّهُ فِيهِ رَسُولَهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خَرَجَ الرَّسُولُ إِلَى النَّاسِ، وَهُمْ يُصَلُّونَ الصُّبْحَ، فَرَفَعَ السِّتْرَ، وَفَتَحَ البَابَ، فَقَامَ عَلَى بَابِ عَائِشَةَ، فَكَادَ المُسْلِمُونَ يُفْتَنُونَ فِي صَلاَتِهِمْ بِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حِينَ رَأَوْهُ، فَرَحاً بِهِ وَتَفَرَّجُوا، فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ أَنِ اثْبُتُوا عَلَى صَلاَتِكُمْ؛ قَالَ: فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

سُرُوراً لِمَا رَأَى مِنْ هَيْئَتِهِمْ فِي صَلاَتِهِمْ، وَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَحْسَنَ هَيْئَةً مِنْهُ تِلْكَ السَّاعَةَ، قَالَ: ثُمَّ رَجَعَ وَانْصَرَفَ النَّاسُ، وَهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ أَفْرَقَ مِنْ وَجَعِهِ، فَرَجَعَ أَبُو بَكْرٍ إِلى أَهْلِهِ بِالسُّنْحِ.

وَرَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ الاثْنَيْنِ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَاصِباً رَأْسَهُ إِلَى الصُّبْحِ، وَأَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ، فَلَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تَفَرَّجَ النَّاسُ، فَعَرَفَ أَبُو بَكْرٍ أَنَّ النَّاسَ لَمْ يَصْنَعُوا ذَلِكَ إِلاَّ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَكَصَ عَنْ مُصَلاَّهُ، فَدَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي ظَهْرِهِ، وَقَالَ: صَلِّ بِالنَّاسِ، وَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى جَنْبِهِ، فَصَلَّى قَاعِداً عَنْ يَمِينِ أَبِي بَكْرٍ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الصَّلاَةِ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَكَلَّمَهُمْ رَافِعاً صَوْتَهُ حَتَّى خَرَجَ صَوْتُهُ مِنْ بَابِ المَسْجِدِ، يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ، سُعِّرَتِ النَّارُ، وَأَقْبَلَتِ الفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ، وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا تَمَسَّكُونَ عَلَيَّ بِشَيْءٍ، إِنِّي لَمْ أُحِلَّ إِلاَّ مَا أَحَلَّ القُرْآنُ، وَلَمْ أُحَرِّمْ إِلاَّ مَا حَرَّمَ القُرْآنُ.

قَالَ: فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ

كَلاَمِهِ، قَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! إِنِّي أَرَاكَ قَدْ أَصْبَحْتَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ كَمَا نُحِبُّ، وَاليَوْمُ يَوْمُ بِنْتِ خَارِجَةَ، أَفَآتِيهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، ثُمَّ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى أَهْلِهِ بِالسُّنْحِ.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ زَمْعَةَ، قَالَ: لَمَّا اسْتُعِزَّ بِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَا عِنْدَهُ بِنَفَرٍ مِنَ المُسْلِمِينَ، قَالَ: دَعَاهُ بِلاَلٌ إِلَى الصَّلاَةِ، فَقَالَ: مُرُوا مَنْ يُصَلِّي بِالنَّاسِ. قَالَ: فَخَرَجْتُ فَإِذَا عُمَرُ فِي النَّاسِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ غَائِباً، فَقُلْتُ: قُمْ يَا عُمَرُ فَصَلِّ بِالنَّاسِ. قَالَ: فَقَامَ، فَلَمَّا كَبَّرَ سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، صَوْتَهُ، وَكَانَ عُمَرُ رَجُلاً مِجْهَراً، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَأَيْنَ أَبُو بَكْرٍ؟ يَأْبَى اللَّهُ ذَلِكَ وَالمُسْلِمُونَ، يَأْبَى اللَّهُ ذَلِكَ وَالمُسْلِمُونَ، قَالَ: فَبُعِثَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَجَاءَ بَعْدَ أَنْ صَلَّى عُمَرُ تِلْكَ الصَّلاَةَ، فَصَلَّى بِالنَّاسِ. قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بنُ زَمْعَةَ: قَالَ لِي عُمَرُ: وَيْحَكَ، مَاذَا صَنَعْتَ بِي يَا ابْنَ زَمْعَةَ؟ وَاللَّهِ مَا ظَنَنْتُ حِينَ أَمَرْتَنِي إِلاَّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَمَرَكَ بِذَلِكَ، وَلَوْلاَ ذَلِكَ مَا صَلَّيْتُ بِالنَّاسِ. قَالَ: قُلْتُ: وَاللَّهِ مَا أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِذَلِكَ، وَلَكِنِّي حِينَ لَمْ أَرَ أَبَا بَكْرٍ رَأَيْتُكَ أَحَقَّ مَنْ حَضَرَ بِالصَّلاَةِ بِالنَّاسِ.

الاسْتِخْـلاَفُ:

يَبْدُو مِنْ كُلِّ مَا ذُكِرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُرِيدُ أَنْ يُسْتَخْلَفَ أَبُو بَكْرٍ، غَيْرَ أَنَّهُ لاَ يُرِيدُ أَنْ يُصَرِّحَ بِذَلِكَ حَتَّى لاَ يُصْبِحَ الاسْتِخْلاَفُ قَاعِدَةً يَسِيرُ عَلَيْهَا المُسْلِمُونَ، فَعَمَلُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سُنَّةٌ يَجِبُ عَلَى المُسْلِمِينَ أَنْ يَتَقَيَّدُوا بِهَا، وَلاَ يَنْحَرِفُوا عَنْهَا أَبَداً. وَالاسْتِخْلاَفُ أَمْرٌ يَتَبَايَنُ مَعَ قَوَاعِدِ الإِسْلاَمِ وَتَعَالِيمِهِ لِذَا لَمْ يَرْغَبْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِالتَّصْرِيحِ بِهِ غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ أَبُو بَكْرٍ خَلِيفَةً لَهُ.

إِنَّ إِمَامَةَ المُسْلِمِينَ بِالصَّلاَةِ أَوَّلُ مَظْهَرٍ لِلْخَلِيفَةِ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ»، وَقَدْ أَكَّدَ عَلَى ذَلِكَ. وَعِنْدَمَا سَمِعَ صَوْتَ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ يُصَلِّي بِالنَّاسِ لِغِيَابِ أَبِي بَكْرٍ، وَاسْتِئْذَانِهِ بِالمَبِيتِ بِالسُّنْحِ عِنْدَ زَوْجِهِ حَبِيبَةَ بِنْتِ خَارِجَةَ حَيْثُ كَانَ ذَلِكَ اليَوْمُ يَوْمَهَا، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ غَضِبَ عِنْدَ سَمَاعِ صَوْتِ عُمَرَ، وَقَالَ: فَأَيْنَ أَبُو بَكْرٍ؟ يَأْبَى اللَّهُ ذَلِكَ وَالمُسْلِمُونَ، أَيْ يُرِيدُ أَنْ يُصَلِّيَ أَبُو بَكْرٍ بِالْمُسْلِمِينَ، أَيْ يُرِيدُهُ إِمَاماً لَهُمْ، وَخَلِيفَةً عَلَيْهِمْ. وَقَدْ بُعِثَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَجَاءَ وَأَصْبَحَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَ تِلْكَ الصَّلاَةِ الَّتِي

صَلاَّهَا عُمَرُ يُصَلِّي بِالنَّاسِ دُونَ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَحَدٌ أَوْ يَأْمُرَ أَوْ يُشِيرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأَحَدٍ مِنَ المُسْلِمِينَ غَيْرِ أَبِي بَكْرٍ.

وَمَا أَشَاعَتْهُ الرَّافِضَةُ عَنْ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى عَلِيٍّ بنِ أَبِي طَالِبٍ، فَهُوَ افْتِرَاءٌ بَيِّنٌ إِذْ أَنَّ وَصِيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِلْمُؤْمِنِينَ إِنَّمَا هِيَ مِنَ الدِّينِ الَّذِي يَجِبُ أَلاَّ يَحِيدَ عَنْهُ أَحَدٌ مِنَ المُسْلِمِينَ. فَالْحَيَدَانُ عَنْهُ إِنَّمَا هُوَ اتِّهَامٌ لِلْمُسْلِمِينَ كَافَّةً، وَطَعْنٌ فِي إِيمَانِ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جَمِيعِهِمْ. فَكَيْفَ يَقْبَلُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي تَرْكِ هَذِهِ الوَصِيَّةِ، وَهُوَ الَّذِي لَمْ يُعْرَفْ عَنْهُ أَنَّهُ تَوَقَّفَ لَحْظَةً عَنْ أَمْرٍ مِنْ أَوَامِرِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أَمِنْ أَجْلِ دُنْيَا وَهُوَ الَّذِي عُرِفَ عَنْهُ أَنَّهُ زَاهِدٌ فِي الدُّنْيَا، وَأَوَّلُهَا الإِمْرَةُ؟ ثُمَّ كَيْفَ يَقْبَلُ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ السُّكُوتَ عَنْ هَذِهِ الوَصِيَّةِ وَهُوَ الَّذِي لاَ يَخْشَى فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لائِمٍ؟ وَإِذَا ذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ بَايَعَ فِي الظَّاهِرِ، فَمَتَى كَانَ عَلِيٌّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَالصَّحَابَةُ جَمِيعاً يُظْهِرُونَ غَيْرَ مَا يُبْطِنُونَ؟ وَمَعْنَى هَذَا اتِّهَامُهُمْ بِالنِّفَاقِ، وَنَعُوذُ باللَّهِ مِنْ هَذَا الكَلاَمِ فَإِنَّ الإِسْلاَمَ قَدْ وَصَلَ إِلَيْنَا عَنْ طَرِيقِهِمْ.

وَفَاةُ رَسُولِ اللَّهِ:

تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَوْمَ الاثْنَيْنِ الثَّانِي عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الأَوَّلِ مِنَ السَّنَةِ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ لِلْهِجْرَةِ فَوِلادَتُهُ، وَهِجْرَتُهُ، وَوَفَاتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي اليَوْمِ نَفْسِهِ.

وَلَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَامَ عُمَرُ ابنُ الخَطَّابِ، فَقَالَ: إِنَّ رِجَالاً مِنَ المُنَافِقِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ تُوُفِّيَ، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَاللَّهِ مَا مَاتَ، وَلَكِنَّهُ ذَهَبَ إِلَى رَبِّه كَمَا ذَهَبَ مُوسَى بنُ عِمْرَانَ، فَقَدْ غَابَ عَنْ قَوْمِهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِمْ بَعْدَ أَنْ قِيلَ قَدْ مَاتَ: وَوَاللَّهِ لَيَرْجِعَنَّ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَمَا رَجَعَ مُوسَى، فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِيَ رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ زَعَمُوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ مَاتَ.

وَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتى نَزَلَ عَلَى بَابِ المَسْجِدِ حِينَ بَلَغَهُ الخَبَرُ، وَعُمَرُ يُكَلِّمُ النَّاسَ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي بَيْتِ عَائِشَةَ، وَرَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مُسَجَّىً فِي نَاحِيَةِ البَيْتِ،

عَلَيْهِ بُرْدُ حِبَرَةٍ، فَأَقْبَلَ حَتَّى كَشَفَ عَنْ وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ فَقَبَّلَهُ، ثُمَّ قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، أَمَّا المَوْتَةُ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكَ فَقَدْ ذُقْتَهَا، ثُمَّ لَنْ تُصِيبَكَ بَعْدَهَا مَوْتَةٌ أَبداً، ثُمَّ رَدَّ البُرْدَ عَلَى وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ خَرَجَ وَعُمَرُ يُكَلِّمُ النَّاسَ، فَقَالَ: عَلَى رِسْلِكَ يَا عُمَرُ، أَنْصِتْ، فَأَبَى إِلاَّ أَنْ يَتَكَلَّمَ، فَلَمَّا رَآهُ أَبُو بَكْرٍ لاَ يُنْصِتُ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَلَمَّا سَمِعَ النَّاسُ كَلاَمَهُ أَقْبَلُوا عَلَيْهِ وَتَرَكُوا عُمَرَ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ؛ ثُمَّ قَالَ:

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّداً فَإِنَّ مُحَمَّداً قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ، ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾[1].

فَوَاللَّهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ حَتَّى تَلاَهَا أَبُو بَكْرٍ يَوْمَئِذٍ، وَأَخَذَهَا النَّاسُ عَنْ أَبِي بَكْرٍ، فَإِنَّمَا هِيَ فِي أَفْوَاهِهِمْ. فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: قَالَ عُمَرُ: وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلاَّ أَنْ سَمِعْتُ

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٤٤.

أَبَا بَكْرٍ تلاَهَا فَعَقِرْتُ[1] حَتَّى وَقَعْتُ إِلَى الأَرْضِ مَا تَحْمِلُنِي رِجْلاَيَ، وَعَرَفْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ مَاتَ[2].

الأَنْصَارُ:

شَعَرَ الأَنْصَارُ، وَهُمْ أَهْلُ المَدِينَةِ، أَنَّهُمْ بِحَاجَةٍ مَاسَّةٍ إِلَى اخْتِيَارِ خَلِيفَةٍ مِنْهُمْ، يَتَوَلَّى شُؤُونَ المَدِينَةِ وَأَمْرَ المُسْلِمِينَ، فَمَدِينَتُهُمْ مُهَدَّدَةٌ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنَ الأَعْرَابِ وَرِجَالِ القَبَائِلِ، إِذْ يَعْرِفُونَ أَنَّ كَثِيراً مِنَ الأَعْرَابِ حَوْلَ المَدِينَةِ وَكَثِيراً مِنَ القَبَائِلِ لَمْ تُؤْمِنْ، وَلَمْ يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِهَا، وَإِنَّمَا أَسْلَمَتْ بِلِسَانِهَا خَوْفاً مِنَ القُوَّةِ الَّتِي بَلَغَتْهَا الدَّوْلَةُ الإِسْلاَمِيَّةُ أَيَّامَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾[3]. وَقَدْ ظَهَرَتِ الرِّدَّةُ فِي بَعْضِ المَنَاطِقِ قُبَيْلَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) عقرت: دهشت.

(٢) سيرة ابن هشام.

(٣) سورة التوبة، الآية ١٠١.

شَعَرَ الأَنْصَارُ أَنَّهُمْ هُمُ المُهَدَّدُونَ قَبْلَ غَيْرِهِمْ مِنْ قِبَلِ الأَعْرَابِ وَرِجَالِ القَبَائِلِ لأَنَّهُمْ كَانُوا دَعَامَةَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُمُ الَّذِينَ نَصَرُوهُ، وَفَتَحُوا بُيُوتَهُمْ لِلْمُهَاجِرِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، وَاسْتَطَاعُوا مَعَ المُهَاجِرِينَ أَنْ يُكَوِّنُوا الدَّوْلَةَ الإِسْلاَمِيَّةَ الأُولَى أَيَّامَ النَّبِيِّ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاَةِ وَالسَّلاَمِ، وَالَّتِي تَمَكَّنَتْ مِنْ إِخْضَاعِ الأَعْرَابِ وَالسَّيْطَرَةِ عَلَى دِيَارِ القَبَائِلِ.

وَشَعَرَ الأَنْصَارُ أَنَّ المُهَاجِرِينَ رُبَّمَا تَرَكُوا المَدِينَةَ، وَرَجَعُوا إِلَى بَلَدِهِمُ الأَوَّلِ مَكَّةَ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُمْ لَمْ يُهَاجِرُوا بِالأَصْلِ إِلاَّ مِنْ أَجْلِهِ وَأَجْلِ عَقِيدَتِهِمْ، وَقَدْ خَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ عِنْدَمَا كَانَ سُكَّانُهَا عَلَى الشِّرْكِ، فَلَمَّا دَانُوا بِالإِسْلاَمِ، وَدَخَلُوا فِي دِينِ اللَّهِ، فَمِنَ المُحْتَمَلِ أَنْ يَعُودَ المُهَاجِرُونَ إِلَى دِيَارِهِمْ وَقَدْ تَرَكُوا فِيهَا بُيُوتَهُمْ، وَأَمْلاَكَهُمْ، وَغَادَرُوا أَهْلِيهِمْ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ الأَهْلُ. وَعِنْدَهَا يَبْقَى الأَنْصَارُ وَحْدَهُمْ فِي وَجْهِ الأَعْرَابِ وَالقَبَائِلِ. لَقَدْ خَطَرَ هَذَا فِي بَالِ الأَنْصَارِ مِنْذُ أَنْ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَكَّةَ فَاتِحاً فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ لِلْهِجْرَةِ، وَكَانُوا هُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي ذَلِكَ الفَتْحِ. وَقَدْ كَلَّمُوا رَسُولَ اللَّهِ،

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَوْمَذَاكَ بَعْدَ تَوْزِيعِ غَنَائِمِ هَوَازِنَ وَثَقِيفٍ فِي الجِعْرَانَةِ بَعْدَ غَزْوَةِ حُنَيْنٍ لَمَّا أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ العَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ العَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ، وَجَدَ هَذَا الحَيُّ مِنَ الأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ، حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُمُ القَالَةُ؛ حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ: لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ قَوْمَهُ!! فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ هَذَا الحَيَّ مِنَ الأَنْصَارِ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ، قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَاماً فِي قَبَائِلِ العَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الحَيِّ مِنَ الأَنْصَارِ شَيْءٌ، فَقَالَ: فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ! قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا أَنَا إِلاَّ مِنْ قَوْمِي! قَالَ: فَٱجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي الحَظِيرَةِ، قَالَ: فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ الأَنْصَارَ فِي تِلْكَ الحَظِيرَةِ، قَالَ: فَجَاءَهُ رِجَالٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ، فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا، وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا إِلَيْهِ أَتَاهُ سَعْدٌ فَقَالَ: قَدِ اجْتَمَعَ إِلَيْكَ هَذَا الحَيُّ مِنَ الأَنْصَارِ، فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، مَقَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ، وَمَوْجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ! أَلَمْ آتِكُمْ ضُلاَّلاً فَهَدَاكُمُ اللَّهُ؛ وَعَالَةً

فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ، وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ! قَالُوا: بَلَى، لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ المَنُّ وَالفَضْلُ! فَقَالَ: أَلاَ تُجِيبُونِي يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ! قَالُوا: وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ المَنُّ وَالفَضْلُ! قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَصَدَقْتُمْ، وَلَصُدِّقْتُمْ، أَتَيْتَنَا مُكَذَّباً فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيداً فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلاً فَآسَيْنَاكَ، وَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ فِي لَعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ قَوْماً لِيُسْلِمُوا، وَوَكَّلْتُكُمْ إِلَى إِسْلاَمِكُمْ! أَفَلاَ تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاءِ وَالبَعِيرِ، وَتَرْجِعُوا بِرَسُولِ اللَّهِ إِلَى رِحَالِكُمْ! فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْلاَ الهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْباً وَسَلَكَتِ الأَنْصَارُ شِعْباً لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَارِ! اللَّهُمَّ ارْحَمِ الأَنْصَارِ وَأَبْنَاءَ الأَنْصَارِ وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ.

قَالَ: فَبَكَى القَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْماً وَحَظّاً، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَفَرَّقُوا[١].

إِذَنْ يُمْكِنْ أَنْ يَعُودَ المُهَاجِرُونَ إِلَى مَكَّةَ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ـ حَسْبَ تَقْدِيرِ الأَنْصَارِ ـ لِذَا

(١) تاريخ الطبري وسيرة ابن هشام.

فَإِنَّ الأَنْصَارَ يَعُدُّونَ أَنْفُسَهُمْ هُمُ المَسْؤُولُونَ بِالدَّرَجَةِ الأُولَى عَنْ إِيجَادِ خَلِيفَةٍ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِغَضِّ النَّظَرِ عَنْ وُجُودِ المُهَاجِرِينَ أَوْ غِيَابِهِمْ، هَذَا الأَمْرُ هُوَ الَّذِي جَعَلَهُمْ يَلْتَقُونَ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ وَحْدَهُمْ، وَلَمْ تُعْوِزْهُمُ الشُّورَى، فَالخَزْرَجُ هُمْ أَكْثَرُ الأَنْصَارِ، وَسَيِّدُهُمْ هُوَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، أَحَدُ كِبَارِ الصَّحَابَةِ، وَمِنَ الَّذِينَ تُوُفِّيَ عَنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ، لِذَا فَقَدِ اتَّفَقُوا عَلَى بَيْعَتِهِ.

المُهَاجِـرُونَ:

كَانَ المُهَاجِرُونَ أَكْثَرَ بُعْداً عَنْ مَوْضُوعِ الخِلاَفَةِ، إِذْ شُغِلَ بَعْضُهُمْ بِوَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَدَفْنِهِ، وَلاَ تَزَالُ عِنْدَ بَعْضِهِمْ صَدْمَةٌ مِنْ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ، وَيَمْلأُ ذَلِكَ نَفْسَهُ، وَلَمْ يُفَكِّرْ بَعْضُهُمْ بِٱخْتِيَارِ خَلِيفَةٍ بَعْدُ إِذْ أَنَّ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَمْ يُدْفَنْ بَعْدُ، فَلَمْ يُفَكِّرْ إِلاَّ بِهَذَا المَوْضُوعِ، وَلَمْ يَبْحَثْ بِمَوْضُوعٍ فِيهِ خِلاَفٌ حَيْثُ أَنَّ هَذَا المَوْضُوعَ هُوَ آخِرُ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ الاخْتِلاَفُ ـ حَسْبَ رَأْيِهِ ـ . وَبَيْنَمَا عَدَدٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي بَيْتِهِ يَعْمَلُونَ عَلَى تَرْحِيلِهِ إِذْ بِرَجُلٍ يُنَادِي مِنْ وَرَاءِ الجِدَارِ: اخْرُجْ إِلَيَّ يَا ابْنَ الخَطَّابِ. فَقَالَ عُمَرُ: إِلَيْكَ عَنِّي فَإِنَّا عَنْكَ مَشَاغِيلُ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَدْ حَدَثَ

أَمْرٌ لاَ بُدَّ مِنْكَ فِيهِ: إِنَّ الأَنْصَارَ قَدِ اجْتَمَعُوا فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ، فَأَدْرِكُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يُحْدِثُوا أَمْراً يَكُونُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ حَرْبٌ. فَقَالَ عُمَرُ لأَبِي بَكْرٍ: انْطَلِقْ بِنَا إِلَى إِخْوَانِنَا مِنْ هٰؤُلاَءِ الأَنْصَارِ. وَأَدْرَكَا هُنَا، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قِيمَةَ وُجُودِ الخَلِيفَةِ لِتَسْيِيرِ الأُمُورِ وَشُؤُونِ النَّاسِ احْتِسَاباً لِكُلِّ حَادِثٍ. وَسَارَا بِاتِّجَاهِ سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ فَوَجَدَا أَبَا عُبَيْدَةَ بنَ الجَرَّاحِ، فَأَخَذَاهُ مَعَهُمَا. وَوَجَدُوا فِي طَرِيقِهِمْ رَجُلَيْنِ مِنَ الأَنْصَارِ، هُمَا: عُوَيْمُ بنُ سَاعِدَةَ[١]، وَمَعْنُ بنُ عَدِيٍّ[٢]، فَسَأَلُوهُمَا فَقَالاَ: لاَ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تَقْرَبُوهُمْ يَا مَعْشَرَ المُهَاجِرِينَ، اقْضُوا أَمْرَكُمْ بَيْنَكُمْ، فَإِنِ اتَّفَقْتُمْ فِيمَا بَيْنَكُمْ لَنْ يَكُونَ خِلاَفٌ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الأَنْصَارِ. إِلاَّ أَنَّ المُهَاجِرِينَ قَدْ تَابَعُوا السَّيْرَ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ. وَمِنْ هَذَا يَبْدُو أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ خِلاَفٌ بَيْنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَإِنَّمَا دَعَتِ الضَّرُورَةُ إِلَى لِقَاءِ الأَنْصَارِ.

سَقِيفَةُ بَنِي سَاعِدَةَ:

اجْتَمَعَ الأَنْصَارُ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ، وَقَالُوا: نُوَلِّي هَذَا

(١) عويم بن ساعدة: حضر بيعتي العقبة، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله، ﷺ، وتوفي في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) معن بن عديٍّ حضر بيعة العقبة الثانية، وآخى رسول الله، ﷺ، بينه وبين زيد بن الخطاب وشهد المشاهد كلها مع رسول الله، واستشهد يوم اليمامة مع زيد.

الأَمْرَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ، وَأَخْرَجُوا سَعْداً وَهُوَ مَرِيضٌ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا قَالَ لابْنِهِ: إِنِّي لاَ أَقْدِرُ لِشَكْوَايَ أَنْ أُسْمِعَ القَوْمَ كُلَّهُمْ كَلاَمِي، وَلَكِنَّكَ تَلَقَّ مِنِّي قَوْلِي فَأَسْمِعْهُمُوهُ، فَكَانَ يَتكَلَّمُ وَيَحْفَظُ الرَّجُلُ قَوْلَهُ، فَيَرْفَعُ صَوْتَهُ فَيُسْمِعُ أَصْحَابَهُ، فَقَالَ بَعْدَ أَنْ حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ:

يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ لَكُمْ سَابِقَةٌ فِي الدِّينِ، وَفَضِيلَةٌ فِي الإِسْلاَمِ، لَيْسَتْ لِقَبِيلَةٍ مِنَ العَرَبِ: إِنَّ مُحَمَّداً، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَبِثَ بِضْعَ عَشْرَةَ سَنَةً فِي قَوْمِهِ، يَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ الرَّحْمٰنِ، وَخَلْعِ الأَنْدَادِ وَالأَوْثَانِ، فَمَا آمَنَ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ إِلاَّ رِجَالٌ قَلِيلٌ، مَا كَانُوا يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يَمْنَعُوا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلاَ أَنْ يَعِزُّوا دِينَهُ، وَلاَ أَنْ يَدْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ ضَيْماً عَمُّوا بِهِ. حَتَّى إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِكُمُ الفَضِيلَةَ، سَاقَ إِلَيْكُمُ الكَرَامَةَ، وَخَصَّكُمْ بِالنِّعْمَةِ، فَرَزَقَكُمُ اللَّهُ الإِيمَانَ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، والمَنْعَ لَهُ وَلأَصْحَابِهِ، وَالإِعْزَازَ لَهُ وَلِدِينِهِ، وَالجِهَادَ لأَعْدَائِهِ، فَكُنْتُمْ أَشَدَّ النَّاسِ عَلَى عَدُوِّهِ مِنْكُمْ، وَأَثْقَلَهُمْ عَلَى عَدُوِّهِ مِنْ غَيْرِكُمْ حَتَّى اسْتَقَامَتِ العَرَبُ لأَمْرِ اللَّهِ طَوْعاً وَكَرْهاً، وَأَعْطَى البَعِيدُ المَقَادَةَ صَاغِراً دَاخِراً، حَتَّى أَغْنَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ بِكُمُ الأَرْضَ، وَدَانَتْ لَهُ بِأَسْيَافِكُمُ العَرَبُ، وَتَوَفَّاهُ اللَّهُ

وَهُوَ عَنْكُمْ رَاضٍ، وَبِكُمْ قَرِيرَ العَيْنِ.

وَهَذَا يَدُلُّ أَيْضاً عَلَى أَنَّ الأَنْصَارَ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ سَيَكُونُونَ هَدَفَ العَرَبِ الأَمْرَ الَّذِي جَعَلَهُمْ يُفَكِّرُونَ بِمُبَايَعَةِ خَلِيفَةٍ بِشَكْلٍ سَرِيعٍ. كَمَا أَنَّ سَعْدَ بنَ عُبَادَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لَمْ يَكُنْ طَامِعاً فِي مُلْكٍ، وَإِنَّمَا حُمِلَ إِلَى السَّقِيفَةِ حَمْلاً، وَهُوَ مَرِيضٌ، وَلَمْ تُعْرَضْ عَلَيْهِ الخِلاَفَةُ لِرَغْبَةٍ عِنْدَهُ، وَإِنَّمَا بِصِفَتِهِ سَيِّدَ الأَنْصَارِ.

جَاءَ المُهَاجِرُونَ إِلَى سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ وَالأَنْصَارُ مُجْتَمِعُونَ فِيهَا، وَجَلَسُوا إِلَى جَانِبِهِمْ. فَقَامَ خَطِيبُ الأَنْصَارِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ فَنَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ وَكَتِيبَةُ الإِسْلاَمِ، وَأَنْتُمْ يَا مَعْشَرَ المُهَاجِرِينَ حَيٌّ مِنَّا، وَقَدْ دَفَّتْ إِلَيْنَا دَافَّةٌ مِنْكُمْ، فَإِذَا أَنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَخْتَزِلُونَا مِنْ أَصْلِنَا، وَتَحْضُنُوا الأَمْرَ مِنْ دُونِنَا (وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا اسْتَعْمَلَ رَجُلاً مِنْكُمْ، قَرَنَ مَعَهُ رَجُلاً مِنَّا، فَأَرَى أَنْ يَلِيَ الأَمْرَ رَجُلاَنِ أَحَدُهُمَا مِنْكُمْ وَالآخَرُ مِنَّا).

يَقُولُ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَلَمَّا قَضَى الأَنْصَارِيُّ مَقَالَتَهُ أَرَدْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ، وَكُنْتُ قَدْ زَوَّرْتُ فِي نَفْسِي مَقَالَةً أَعْجَبَتْنِي أُرِيدُ أَنْ أَقُومَ بِهَا بَيْنَ يَدَيْ أَبِي بَكْرٍ، فَلَمَّا أَرَدْتُ

أَنْ أَتَكَلَّمَ قَالَ: أَبُو بَكْرٍ عَلَى رِسْلِكَ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُغْضِبَهُ، وَلَقَدْ كَانَ أَحْلَمَ مِنِّي وَأَوْقَرَ، فتكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ، فَوَاللَّهِ مَا ترَكَ مِنْ كَلِمَةٍ أَعْجَبَتْنِي مِمَّا كُنْتُ قَدْ زَوَّرْتُ فِي نَفْسِي إِلاَّ أَتَى بِمِثْلِهَا أَوْ أَفْضَلَ مِنْهَا فِي بَدِيهَتِهِ، وَلَمْ يَدَعْ شَيْئاً أُنْزِلَ فِي الأَنْصَارِ أَوْ ذَكَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلاَّ ذَكَرَهُ. فَقَالَ: لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: لَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِياً وَسَلَكَ الأَنْصَارُ وَادِياً لَسَلَكْتُ وَادِيَ الأَنْصَارِ، وَمَا ذَكَرْتُ فِيكُمْ مِنْ خَيْرٍ فَأَنْتُمْ أَهْلُهُ. وَلَكِنَّ العَرَبَ لاَ تَعْرِفُ هَذَ الأَمْرَ إِلاَّ لِهَذَا الحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ. هُمْ أَوْسَطُ العَرَبِ دَاراً وَأَنْسَاباً، وَقَدْ رَضِيتُ لَكُمْ أَحَدَ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ، فَبَايِعُوا أَيُّهما شِئْتُمْ (وَأَخَذَ بِيَدِي وَيَدِ أَبِي عُبَيْدَةَ)، فَواللَّهِ مَا كَرِهْتُ مِنْ مَقَالَتِهِ غَيْرَهُ، وَلأَنْ أُقَدَّمَ فَتُضْرَبَ عُنُقِي لاَ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مِنْ إِثْمٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَأَمَّرَ عَلَى قَوْمٍ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ.

فَلَمَّا قَضَى أَبُو بَكْرٍ مَقَالَتَهُ، قَالَتِ الأَنْصَارُ: وَاللَّهِ مَا نَحْسُدُكُمْ عَلَى خَيْرٍ سَاقَهُ اللَّهُ إِلَيْكُمْ، وَلاَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَىٰ أَحَبَّ إِلَيْنَا وَلاَ أَرْضَى عِنْدَنَا مِنْكُمْ، وَلَكِنْ نُشْفِقُ مِمَّا بَعْدَ اليَوْمِ، فَلَوْ جَعَلْتُمُ اليَوْمَ رَجُلاً مِنْكُمْ فَإِذَا هَلَكَ اخْتَرْنَا رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ فَجَعَلْنَاهُ مَكَانَهُ، فَإِذَا هَلَكَ اخْتَرْنَا رَجُلاً مِنَ المُهَاجِرِينَ

فَجَعَلْنَاهُ مَكَانَهُ كَذٰلِكَ أَبداً. وَكَانَ ذَلِكَ أَجْدَرَ أَنْ يُشْفِقَ القُرَشِيُّ إِنْ زَاغَ أَنْ يَنْقَضَّ عَلَيْهِ الأَنْصَارِيُّ، وَأَنْ يُشْفِقَ الأَنْصَارِيُّ إِنْ زَاغَ أَنْ يَنْقَضَّ عَلَيْهِ القُرَشِيُّ.

وَيَبْدُو مِنْ هَذَا أَنَّ أَبَا بَكْرٍ لَمْ يَكُنْ يَرْغَبُ بَالإِمْرَةِ وَالخِلاَفَةِ، فَفِي الوَقْتِ الَّذِي يُقَرِّرُ فِيهِ الأَمْرَ وَلاَ مَجَالَ فِيهِ إِلَى التَّرَاجُعِ، يُرَشِّحُ وَيَدْعُو إِلَى البَيْعَةِ، وَكُلُّ مَا أُشِيعَ ضِدَّ هَذَا فَهُوَ افْتِرَاءٌ بَيِّنٌ، وَاتبَاعٌ لِلْهَوى. كَمَا يَبْدُو مِنْ هَذَا أَنَّ الأَنْصَارَ لَمَّا وَجَدُوا أَنَّ المُهَاجِرِينَ بَاقُونَ فِي المَدِينَةِ رَأَوْا أَنَّ الحَقَّ لَهُمْ، وَأَنَّ الخِلاَفَةَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ بَيْنَهُمْ، وَلَكِنْ أَصْبَحَ فِي الأَمْرِ شَيْءٌ مِنَ الحَرَجِ، فَإِنَّ بَيْعَةَ سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ قَدْ تَمَّتْ، وَالخَلِيفَةُ أَضْحَى قَرِيباً مِنَ القِيَامِ بِوَاجِبِهِ، إِلاَّ أَنَّ الحَقَّ لِلْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِالأَمْرِ، فَالخَطَأُ قَدْ وَقَعَ مِنْ قِبَلِ الأَنْصَارِ لِلإِسْرَاعِ بِالأَمْرِ دُونَ مُشَاوَرَةِ المُهَاجِرِينَ، وَالرُّجُوعُ إِلَى الحَقِّ أَمْرٌ لاَ بُدَّ مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ صَعْباً فِي حَالَةٍ كَهَذِهِ، إِذْ فِيهَا اسْتِهْتَارٌ بِالخَلِيفَةِ المُزْمَعِ عَلَى مُبَايَعَتِهِ، وَهُوَ زَعِيمُ الأَنْصَارِ، إِذْ لاَ بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ التَّرَاجُعُ بِشَكْلٍ تَدْرِيجِيٍّ، فَالنُّفُوسُ بَشَرِيَّةٌ، وَلاَ بُدَّ مِنْ مُعَامَلَتِهَا حَسْبَ الفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَهَا اللَّهُ عَلَيْهَا، إِذَنْ يَجِبُ أَنْ تَسْتَمِرَّ المُنَاقَشَةُ، وَيَتَرَاجَعَ الأَنْصَارُ بِهُدُوءٍ.

ثُمَّ قَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بَعْدَ أَنْ سَمِعَ مَقَالَةَ الأَنْصَارِ: لاَ يَنْبَغِي هَذَا الأَمْرُ وَلاَ يَصْلُحُ إلاَّ لِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ، وَلَنْ تَرْضَى العَرَبُ إلاَّ بِهِ، وَلَنْ تَعْرِفَ الإِمَارَةَ إلاَّ لَهُ، وَاللَّهِ مَا يُخَالِفُنَا أَحَدٌ إلاَّ قَتَلْنَاهُ.

ثُمَّ وَقَفَ الحُبَابُ بنُ المُنْذِرِ الأَنْصَارِيُّ، وَكَرَّرَ مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ.

فَقَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ: هَيْهَاتَ لاَ يَجْتَمِعُ اثْنَانِ فِي قَرْنٍ، وَاللَّهِ لاَ تَرْضَى العَرَبُ أَنْ يُؤَمِّرُوكُمْ وَنَبِيُّها مِنْ غَيْرِكُمْ، وَلٰكِنَّ العَرَبَ لاَ تَمْتَنِعُ أَنْ تُوَلِّيَ أَمْرَهَا مَنْ كَانَتِ النُّبُوَّةُ فِيهِمْ، وَوَلِيُّ أُمُورِهَا مِنْهُمْ، وَلَنَا بِذٰلِكَ عَلَى مَنْ أَبَى مِنَ العَرَبِ الحُجَّةُ الظَّاهِرَةُ وَالسُّلْطَانُ المُبِينُ، مَنْ ذَا يُنَازِعُنَا سُلْطَانَ مُحَمَّدٍ وَإِمَارَتَهُ وَنَحْنُ أَوْلِيَاؤُهُ وَعَشِيرَتُهُ إلاَّ مُدْلٍ بِبَاطِلٍ، أَوْ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ، أَوْ مُتَوَرِّطٍ فِي هَلَكَةٍ.

وَأَصَرَّ الحُبَابُ بنُ المُنْذِرِ عَلَى مَوْقِفِهِ، وَدَعَا الأَنْصَارَ إِلَى التَّمَسُّكِ بِهٰذَا الرَّأْيِ.

فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ: يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ! إِنَّكُمْ أَوَّلُ مَنْ نَصَرَ وَآزَرَ، فَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ مَنْ بَدَّلَ وَغَيَّرَ.

فَقَامَ بَشِيرُ بنُ سَعْد الأَنْصارِيُّ فقَالَ: يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ! إِنَّا وَاللَّهِ لَئِنْ كِنَّا أُولِي فَضِيلَةٍ فِي جِهَادِ المُشْرِكِينَ، وَسَابِقَةٍ فِي هَذَا الدِّينِ، مَا أَرَدْنَا بِهِ إِلاَّ رِضَاءَ رَبِّنَا، وَطَاعَةَ نَبِيِّنَا، وَالكَدْحَ لأَنْفُسِنَا، فَمَا يَنْبَغِي أَنْ نَسْتَطِيلَ بِذَلِكَ، وَلاَ نَبْتَغِي بِهِ مِنَ الدُّنْيَا عَرَضاً، فَإِنَّ اللَّهَ وَلِيُّ المِنَّةِ عَلَيْنَا بِذَلِكَ. أَلاَ إِنَّ مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ قُرَيْشٍ، وَقَوْمُهُ أَحَقُّ بِهِ وَأَوْلَى، وَلاَ يَرَانِي اللَّهُ أُنَازِعُهُمْ فِي هَذَا الأَمْرِ أَبَداً. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلاَ تُخَالِفُوهُمْ وَلاَ تُنَازِعُوهُمْ.

وَقَامَ أُسَيْدُ بنُ حُضَيْرٍ، وَأَظْهَرَ مَا يَدْعُو إِلَى تَرْكِ الأَنْصَارِ لِهَذَا الأَمْرِ، وَالمُبَايَعَةِ لِلْمُهَاجِرِينَ، فَأَبْدَى مَا يُمْكِنُ عَلَيْهِ أَنْ يَحْدُثَ مِنْ خِلاَفٍ بَيْنَ الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ فِيمَا إِذَا تَسَلَّمَتِ الأَنْصَارُ الأَمْرَ، لِذَا دَعَا إِلَى بَيْعَةِ المُهَاجِرِينَ.

وَرَوَى النَّسَائِيُّ وَالحَاكِمُ أَنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ قَدْ قَالَ لِلأَنْصَارِ يَوْمَذَاكَ: أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدَّمَ أَبَا بَكْرٍ لِلْصَّلاَةِ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: فَأَيُّكُم تَطِيبُ نَفْسُهُ أَنْ يَتَقَدَّمَ مَنْ قَدَّمَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

قَالُوا: لاَ أَحَدَ.

ثُمَّ قَامَ زَيْدُ بنُ ثَابِتٍ الأَنْصَارِيُّ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ مِنَ المُهَاجِرِينَ، وَإِنَّ الإِمَامَ إِنَّمَا يَكُونُ مِنَ المُهَاجِرِينَ، وَنَحْنُ أَنْصَارُهُ كَمَا كُنَّا أَنْصَارَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: جَزَاكُمُ اللَّهُ مِنْ حَيٍّ خَيْراً، وَثَبَّتَ قَائِلَكُمْ، أَمَا وَاللَّهِ لَوْ قُلْتُمْ غَيْرَ ذَلِكَ لَمَا صَالَحْنَاكُمْ. ثُمَّ قَالَ لِعُمَرَ بنِ الخَطَّابِ: ابْسُطْ يَدَكَ نُبَايِعْ لَكَ. فَقَالَ عُمَرُ: أَنْتَ أَفْضَلُ مِنِّي. قَالَ: أَنْتَ أَقْوَى مِنِّي. فَقَالَ عُمَرُ: فَإِنَّ قُوَّتِي لَكَ مَعَ فَضْلِكَ. وَقَالَ عُمَرُ وَأَبُو عُبَيْدَةَ: لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ يَكُونَ فَوْقَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، أَنْتَ صَاحِبُ الغَارِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، وثَانِي اثْنَيْنِ، وَأَمَّرَكَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حِينَ اشْتَكَى فَصَلَّيْتَ بِالنَّاسِ، فَأَنْتَ أَحَقُّ بِهَذَا الأَمْرِ.

وَوَثَبَ عُمَرُ فَأَخَذَ بِيَدِ أَبِي بَكْرٍ، وَقَامَ أُسَيْدُ بنُ حُضَيْرٍ، وَبَشِيرُ بنُ سَعْدٍ يَسْتَبِقَانِ لِلْبَيْعَةِ، وَوَثَبَ أَهلُ السَّقِيفَةِ يَبْتَدِرُونَ البَيْعَةَ، فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ لَمْ يُبَايِعْ فِي السَّقِيفَةِ سِوَى سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ، وَمَا مَنَعَهُ أَنْ يُبَايِعَ سِوَى جَرَاحَةِ وَضْعِهِ، وَصِحَّةِ جِسْمِهِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَكَلَّمْ بِشَيْءٍ.

وَفِي اليَوْمِ الثَّانِي مِنْ بَيْعَةِ أَبِي بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ دُعِيَ إِلَى الصَّلاَةِ، وَوَقَفَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى المِنْبَرِ، وَقَامَ عُمَرُ وَتَكَلَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَبْلَهُ، فَقَالَ بَعْدَ أَنْ حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ: أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ كُنْتُ قُلْتُ لَكُمْ بِالأَمْسِ مَقَالَةً مَا كَانَتْ إِلاَّ عَنْ رَأْيِي، وَمَا وَجَدْتُهَا فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَا كَانَتْ عَهْداً عَهِدَهُ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرَى رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سَيُدَبِّرُ أَمْرَنَا حَتَّى يَكُونَ آخِرُنَا. وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَبْقَى مَعَكُمْ كِتَابَهُ الَّذِي بِهِ هَدَى رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ هَدَاكُمْ لِمَا كَانَ هَدَاهُ لَهُ. وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ جَمَعَ أَمْرَكُمْ عَلَى خَيْرِكُمْ، صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ، وَأَوْلَى النَّاسِ بِأُمُورِكُمْ فَقُومُوا فَبَايِعُوا.

فَبَايَعَ النَّاسُ بَيْعَةً عَامَّةً بَعْدَ بَيْعَةِ سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ.

ثُمَّ تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ بَعْدَ أَنْ حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ: أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ، فَإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي وَإِنْ أَسَأْتُ فَقَوِّمُونِي، الصِّدْقُ أَمَانَةٌ، وَالكَذِبُ خِيَانَةٌ، وَالضَّعِيفُ فِيكُمْ قَوِيٌّ عِنْدِي حَتَّى أَرُدَّ إِلَيْهِ حَقَّهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَىٰ، وَالقَوِيُّ فِيكُمْ ضَعِيفٌ عِنْدِي حَتَّى

آخُذَ مِنْهُ الحَقَّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَىٰ. لاَ يَدَعُ قَوْمٌ الجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلاَّ ضَرَبَهُمُ اللَّهُ بِالذُّلِّ، وَلاَ تَشِيعُ الفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ إِلاَّ عَمَّهُمُ اللَّهُ بِالبَلاَءِ، أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِذَا عَصَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلاَ طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ، قُومُوا إِلَى صَلاَتِكُمْ يَرْحَمُكُمُ اللَّهُ.

الفصل السابع

السهام المسمومة

مِنْ بَيْعَةِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَتَوَصَّلُ المَرْءُ المُنْصِفُ إِلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ خِلَافٌ مُسْتَحْكَمٌ بَيْنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ عَلَى مَوْضُوعِ الخِلَافَةِ، كَمَا يُصَوِّرُهُ أَصْحَابُ الأَهْوَاءِ، وَإِنَّمَا وَقَعَ خطأٌ مِنَ الأَنْصَارِ بِمَا توقَّعُوهُ مِنْ إِمْكَانِيَّةِ عَوْدَةِ المُهَاجِرِينَ إِلَى مَكَّةَ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمِنْ تعرُّضِ المَدِينَةِ وَأَهْلِهَا بَعْدَئِذٍ لِغَارَاتِ الأَعْرَابِ وَهُجُومِ القَبَائِلِ بَعْدَ عَوْدَةِ المُهَاجِرِينَ انْتِقَاماً مِنْ أَهْلِهَا الَّذِينَ آوَوْا رَسُولَ اللَّهِ وَنَصَرُوهُ، وَفَتَحُوا بُيُوتَهُمْ لِلْمُهَاجِرِينَ، فتَأَسَّسَتْ الدَّوْلَةُ الإِسْلَامِيَّةُ نَتِيجَةَ ذَلِكَ فَكَانَتْ قَوِيَّةً اسْتَطَاعَتْ إِخْضَاعَ الأَعْرَابِ لِسُلْطَانِهَا، وَتَمَكَّنَتْ مِنْ فَرْضِ هَيْبَتِهَا عَلَيْهِمْ، وَجَعَلَتْهُمْ يَدِينُونَ بِالإِسْلَامِ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً.

وَقَدْ آنَ الآوَانُ لِلأَعْرَابِ بِالاِنْتِقَامِ حَيْثُ تُوُفِّيَتْ تِلْكَ الشَّخْصِيَّةُ الفَذَّةُ الَّتِي قَادَتْ تِلْكَ الدَّوْلَةَ العِمْلَاقَةَ، فَوَحَّدَتْ بَيْنَ

الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ، وَآخَتْ بَيْنَ المُسْلِمِينَ جَمِيعاً فَكَانُوا كِتْلَةً وَاحِـدَةً لاَ فَـرْقَ بَيْـنَ مُهـاجِـرِيٍّ وَأَنْصَـارِيٍّ، أَوْ بَيْـنَ أَوْسِـيٍّ وَخَزْرَجِيٍّ، أَوْ بَيْنَ رَجُلٍ مِنْ قَبِيلَةٍ وَآخَرَ مِنْ قَبِيلَةٍ ثَانِيَةٍ، بَلْ وَادَعَتْ يَهُودَ الَّذِينَ كَانُوا بُؤْرَةَ الفَسَادِ، وَمَرْكَزَ إِثَارَةِ الفِتَنِ، وَسَبَبَ البَلاَءِ، وَمُثِيرِي الخِلاَفِ فَقَبِلُوا المُوَادَعَةَ عِنْدَمَا رَأَوْا القُوَّةَ، فَأَصْبَحَتِ المَدِينَةُ بَعْدَئِذٍ قَلْعَةً حَصِينَةً يَصْعُبُ اقْتِحَامُهَا، وَمُنْطَلَقَ إِرْسَالِ الجُيُوشِ الَّتِي لاَ تَعْرِفُ الهَزِيمَةَ، وَلاَ تَعْرِفُ الأُمَمُ وَالشُّعُوب قَبْلَ يَوْمِهِمْ ذَاكَ مِثْلَ تِلْكَ الجُيُوشِ. تِلْكَ هِيَ شَخْصِيَّةُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَهِيَ النُّبُوَّةُ.

حَانَ الوَقْتُ لِلأَعْرَابِ لِيَنَالُوا الثَّأْرَ بَعْدَ أَنْ يَعُودَ المُهَاجِرُونَ إِلَى مَكَّةَ فَتَخْلُو المَدِينَةُ مِنْ عَدَدٍ غَيْرِ قَلِيلٍ مِن مُقَاتِلِيهَا فَيُمْكِنُ النَّيْلُ بَعْدَ أَنْ كَانَ الدُّنُوُّ مِنْهَا أَمْراً صَعْباً. كَمَا أَنَّ الخِلاَفَ سَيَعُودُ مِنْ جَدِيدٍ بَيْنَ الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ، وَيَعُودُ اليَهُودُ لِيُشْعِلُوا نَارَهُ وَيَزِيدُوا مِنْ أُوَارِهِ بِبَيْعِ السِّلاَحِ لِكِلاَ الطَّرَفَيْنِ، وَإِثَارَةِ الفِتْنَةِ بَيْنَ الجَانِبَيْنِ، وَتَشْجِيعِ كِلاَ الفَرِيقَيْنِ، وَالاِنْضِمَامِ بِفِئَةٍ إِلَى كُلِّ خَصْمٍ، أَيْ يَعُودُ وَضْعُ المَدِينَةِ إِلَى سَابِقِ عَهْدِهِ قَبْلَ الإِسْلاَمِ، وَقَبْلَ هِجْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَجَاءَتِ الفُرْصَةُ لأَعْدَاءِ المَدِينَةِ وَأَهْلِهَا إِذْ ظَهَرَتْ بَوَادِرُ

الرِّدَّةِ قُبَيْلَ وَفَاةَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَسَتَزْدَادُ بَلْ سَتَعُمُّ أَرْجَاءً وَاسِعَةً وَسَيَلْتَقِي الأَعْدَاءُ جَمِيعاً بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ، وَيَقُومُونَ بِالهُجُومِ عَلَى المَدِينَةِ.

هَذِهِ الصُّوَرُ تَمَثَّلَتْ أَمَامَ أَعْيُنِ الأَنْصَارِ فَرَأَوْا ضَرُورَةَ السُّرْعَةِ لِتَنْظِيمِ أُمُورِهِمْ، وَوَحْدَةِ صُفُوفِهِمْ لإِمْكَانِيَّةِ الوُقُوفِ فِي وَجْهِ التَّيَّارِ المُرْتَقَبِ الزَّاخِرِ المُتَدَفِّقِ نَحْوَ مَدِينَتِهِمْ. هٰذِهِ السُّرْعَةُ، وَعَدَمُ الرُّجُوعِ إِلَى الشُّورَى، وَعَدَمُ مُبَاحَثَةِ المُهَاجِرِينَ جَعَلَهُمْ يَقَعُونَ بِالغَلَطِ، وَهَذَا الغَلَطُ أَدَّى إِلَى تَوَجُّسٍ نَتِيجَةَ الخَوْفِ المَاثِلِ فِي المُخَيِّلَةِ.

فَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ لِهَذِهِ الأُمَّةَ الخَيْرَ وَالوَحْدَةَ قَيَّضَ لَهُمُ اللِّقَاءَ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ، وَجَرَى الحِوَارُ، فَتَبَدَّدَ الضَّبَابُ العَالِقُ فِي الجَوِّ، وَانْقَشَعَ الغَيْمُ، وَصَفَا الأَمْرُ، وَتَمَّتِ البَيْعَةُ لأَفْضَلِ المُسْلِمِينَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَسَادَ الوِئَامُ. وَلَمْ يَتَأَخَّرْ عَنِ البَيْعَةِ إِلاَّ الَّذِينَ كَانُوا مَشْغُولِينَ بِتَجْهِيزِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا انْتَهُوا مِنْ ذَلِكَ بَايَعُوا، وَلَمْ يَتَخَلَّفْ مِنْهُمْ أَحَدٌ. وَأَمَّا مَا كَانَ مِنْ سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ الَّذِي تَأَخَّرَ قَلِيلاً لِمَرَضِهِ، ثُمَّ بَايَعَ، وَخَرَجَ مُجَاهِداً إِلَى الشَّامِ، وَاسْتُشْهِدَ بَعْدَ قَلِيلٍ مِنْ خُرُوجِهِ.

قَادَ أَبُو بَكْرٍ الرَّعِيَّةَ فَجَمَعَ شَمْلَ الأُمَّةِ بَعْدَ أَنْ كَادَتْ تَعْصِفُ بِهَا حَرَكَاتُ الرِّدَّةِ، وَٱمْتِنَاعُ بَعْضِ القَبَائِلِ عَنْ دَفْعِ الزَّكَاةِ، وَتَشْجِيعُ الدُّوَلِ الكَافِرَةِ المُحِيطَةِ بِجَزِيرَةِ العَرَبِ، فَقَضَى أَبُو بَكْرٍ عَلَى المُرْتَدِّينَ، وَأَخْضَعَ الَّذِينَ امْتَنَعُوا عَنْ دَفْعِ الزَّكَاةِ، وَأَرْسَلَ جُيُوشَ المُجَاهِدِينَ لِفَتْحِ الأَقَالِيمِ المُجَاوِرَةِ، وَقِتَالِ الطَّوَاغِيتِ الَّذِينَ يَسْتَعْبِدُونَ النَّاسَ، وَيَقِفُونَ فِي وَجْهِ دَعْوَةِ الحَقِّ، وَيَدْعُمُونَ أَعْدَاءَهَا.

وَتَمَكَّنَتِ الجُيُوشُ الإِسْلاَمِيَّةُ الَّتِي انْطَلَقَتْ لِلْفَتْحِ مِنْ إِزَالَةِ دُوَلِ الطُّغَاةِ، وَالإِطَاحَةِ بِأُسَرِ البُغَاةِ، وَإِنْ تَمَّ هَذَا بَعْدَ عَهْدِ الصِّدِّيقِ إِلاَّ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي بَدَأَ بِتَسْيِيرِ تِلْكَ الجُيُوشِ لِذَا كَانَ الحِقْدُ عَلَيْهِ كَبِيراً مِنْ أَبْنَاءِ تِلْكَ الأُسَرِ الَّتِي أَزَاحَهَا الإِسْلاَمُ عَنْ سُلْطَانِهَا لِبَغْيِهَا وَطُغْيَانِهَا، وَمِنَ الَّذِينَ أَخَذَتْهُمُ الحَمِيَّةُ الجَاهِلِيَّةُ فَتَعَصَّبُوا لِقَوْمِهِمُ الفُرْسِ، أَوْ لِدِيَانَتِهِمُ المَجُوسِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ عِنْوَانَ قَوْمِهِمْ. وَلَكِنْ وَإِنْ كَانُوا قَدْ أَظْهَرُوا الإِسْلاَمَ خَوْفاً مِنَ السَّيْفِ إِلاَّ أَنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ قَدْ أَبْطَنَ الكُفْرَ، وَاعْتَقَدَ أَنَّ الهَدْمَ مِنَ الدَّاخِلِ بِاسْمِ الإِسْلاَمِ أَكْبَرُ أَثَراً وَأَجْدَى لَهُمْ نَفْعاً، فَعَمِلَتْ مَعَاوِلُهُمْ تَحْتَ شِعَارِ الإِسْلاَمِ، غَيْرَ أَنَّ ضَرَبَاتِهَا كَانَتْ هُوَ الكُفْرُ نَفْسُهُ.

ظَنَّ هَؤُلاَءِ الأَعْدَاءُ أَنَّ هَذَا الغَلَطَ الطَّفِيفَ فِي اجْتِمَاعِ

الأَنْصَارِ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ إِنَّمَا هُوَ ثَغْرَةٌ يُمْكِنُ أَن يَنْفُذُوا مِنْهَا لِلطَّعْنِ بِالإِسْلاَمِ لِذَا وَجَّهُوا إِلَيْهَا سِهَامَهُمْ عَسَى أَنْ يَتَّسِعَ الخَرْقُ فَيُمْكِنُ الوُلُوجُ مِنْهُ.

أَخَذَ الأَعْدَاءُ الَّذِينَ تَظَلَّلُوا بِالإِسْلاَمِ يُثِيرُونَ الشَّائِعَاتِ فِي سَبِيلِ بَثِّ الفِتَنِ بَيْنَ المُسْلِمِينَ، وَتجْزِئَةِ المُجْتَمَعِ الإِسْلاَمِيِّ، وَبِالتَّالِي إِضْعَافِهِ.

الشَّائِعَــاتُ:

ادَّعَى هَؤُلاَءِ الأَعْدَاءُ أَنَّ الخِلاَفَ كَانَ عَلَى أَشُدِّهِ بَيْنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، مِنْ أَجْلِ الخِلاَفَةِ، وَمَا اجْتِمَاعُ سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ إِلاَّ بِسَبَبِ ذَلِكَ الخِلاَفِ. لَكِنَّ الوَاقِعَ يُكَذِّبُهُمْ إِذْ مَا التَقَى المُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ حَتَّى حَدَثَ الوِفَاقُ، وَسَادَ الوِئَامُ، وَتَمَّتِ البَيْعَةُ.

ادَّعَى هَؤُلاَءِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ أَوْصَى بِالبَيْعَةِ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، غَيْرَ أَنَّ المِنْهَجَ الإِسْلاَمِيَّ الَّذِي يَقُومُ عَلَى الشُّورَى، وَلاَ يَقْبَلُ الوَصِيَّةَ أَبَداً يُكَذِّبُهُمْ، فَالخِلاَفَةُ لاَ تُورَّثُ، وَلاَ يُوصَى بِهَا، كَمَا لاَ تُورَّثُ النُّبُوَّةُ وَلاَ يُوصَى بِهَا. وَلَمَّا رَأَى الأَعْدَاءُ مُخَالَفَةَ قَوْلِهِمْ لِلْمِنْهَجِ الإِسْلاَمِيِّ وَضَعُوا لأَنْفُسِهِمْ مِنْهَجاً، وَهُوَ الوِصَايَةُ لِنِظَامِ الوِلاَيَةِ الَّذِي

اخْتَرَعُوهُ، وَكَفَى رَفْضُ المِنْهَجِ الرَّبَّانِيِّ وَالتَّقَيُّدُ بِمِنْهَجٍ وَضْعِيٍّ ضَلاَلاً وَكُفْراً. وَلَمَّا انْتَبَهُوا إِلَى هَذِهِ المُخَالَفَةِ ادَّعُوا ثَانِيَةً أَنَّ هَذَا المِنْهَجَ المَوْضُوعَ قَدْ جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَقَدْ جَاءَتْ تَسْمِيَةُ أَئِمَّتِهِمْ بِالنَّصِّ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ. وَهَذَا أَيْضاً كُفْرٌ صَرِيحٌ، وَطَعْنٌ بِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِأَنَّهُ لَمْ يُؤَدِّ الأَمَانَةَ وَلَمْ يُبَلِّغِ الرِّسَالَةَ، وَبَقُوا عَلَى هَذَا الضَّلاَلِ. وَمِنْ نَاحِيَةٍ ثَانِيَةٍ فَإِنَّ كِتْمَانَ هَذِهِ الوَصِيَّةِ طَعْنٌ بِصَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمِنْ بَيْنِهِمْ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الَّذِي سَكَتَ عَنْ هَذَا الكِتْمَانِ ـ حَسْبَ زَعْمِهِمْ ـ. وَالطَّعْنُ بِالصَّحَابَةِ طَعْنٌ بِالإِسْلاَمِ إِذ أَنَّ الصَّحَابَةَ هُمُ الَّذِينَ وَصَّلُوا الإِسْلاَمَ لَنَا، أَي وَصَلَ الإِسْلاَمُ إِلَيْنَا عَنْ طَرِيقِ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ نَقَلُوهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى مَنْ جَاءَ بَعْدَهُ.

إِنَّ الطَّعْنَ بِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كُفْرٌ، وَالطَّعْنَ بِأَصْحَابِهِ فُسُوقٌ، وَتَشْكِيكٌ بِالإِسْلاَمِ، أَي كُفْرٌ بِهِ. فَمَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ فَهُوَ عَدُوٌّ مُبِينٌ لِلإِسْلاَمِ وَإِنْ تَسَمَّى بِاسْمِهِ وَتَسَتَّرَ بِهِ، أَوْ سَارَ فِي ظِلِّهِ، أَوْ رَفَعَ شِعَارَهُ عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَهْلِهِ وَيَعْمَلُ لَهُ، وَمَا ذَلِكَ إِلاَّ لإِخْفَاءِ عَدَاوَتِهِ وَتَمْوِيهِ أَعْمَالِهِ، وَتَغْطِيَةِ حَقِيقَتِهِ.

لَقَدْ طَعَنَ هَؤُلاَءِ بِالصَّحَابَةِ جَمِيعاً لَمْ يَسْتَثْنُوا سِوَى سِتَّةٍ

مِنْهُمْ[1]، وَمَا هَذَا الاسْتِثْنَاءُ إلاَّ لِجَعْلِ هَؤُلاَءِ دِرْعاً يَتَّقُونَ بِهِمْ، وَيَتَظَاهَرُونَ أَنَّهُمْ مِنَ المُسْلِمِينَ. كَمَا جَعَلُوا مِنْ أَحَدِهِمْ إِمَاماً، وَهُوَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَنَسَبُوا إِلَيْهِ أَعْمالاً تَرْفَعُهُ فَوْقَ مُسْتَوَى البَشَرِ، لِيَبْقَى الطَّعْنُ بِالإِسْلاَمِ حَتَّى عَنْ طَرِيقِ مَنْ يَدَّعُونَ مَحَبَّتَهُ، غَيْرَ أَنَّ هَذَا الصَّحَابِيَّ الجَلِيلَ عِنْدَمَا تَمَكَّنَ مِنْ ذَلِكَ الَّذِي نَثَرَ هَذِهِ الأَفْكَارَ الكَافِرَةَ، وَبَذَرَ بُذُورَ الشَّرِّ فِي المُجْتَمَعِ الإِسْلاَمِيِّ، وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ بنُ سَبأ، قَتَلَهُ، فَهُوَ بَرِيءٌ إِذَنْ مِنْهُ وَمِنْ أَفْكَارِهِ، كَمَا أَنَّ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ تِلْكَ الأَفْكَارَ بُرَءَاءُ مِنَ الصَّحَابِيِّ الجَلِيلِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَإِنِ ادَّعَوْا مُحَبَّتَهُ وَمَحَبَّةَ ذُرِّيَّتِهِ، وَمَا هَذِهِ المَحَبَّةُ الظَّاهِرَةُ المُصْطَنَعَةُ إلاَّ لِلْهَدْمِ بِالإِسْلاَمِ مِنْ دَاخِلِهِ، عَلَى أَنَّ كُلَّ انْتِمَاءٍ لِلإِسْلاَمِ - حَسْبَ مُخَطَّطِهِمْ - هُوَ بَاطِلٌ مَهْمَا كَانَ الفِكْرُ الَّذِي يَحْمِلُهُ، بَلْ إِنَّ مُجَرَّدَ الانْتِمَاءِ هُوَ ضَلاَلٌ، قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ.

إِنَّ الَّذِينَ يَطْعَنُونَ بِأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ، وعَامَّةِ الصَّحَابَةِ، وَيُسِيئُونَ إِلَى عَلِيٍّ وَأَبْنَائِهِ بِمَا يَنْسُبُونَهُ إِلَيْهِمْ إِنَّمَا يَطْعَنُونَ بِالإِسْلاَمِ، وَيَعْمَلُونَ عَلَى هَدْمِهِ مَهْمَا ادَّعُوا الانْتِسَابَ

(١) هم: علي بن أبي طالب، وسلمان الفارسي، وعمّار بن ياسر، وأبو ذرّ الغفاري، والمقداد بن عمرو، وعبد الله بن رواحة.

إِلَيْهِ، إِنَّ هَؤُلاَءِ سَيَطْعَنُونَ بِكُلِّ مَرْحَلَةٍ مِنْ مَرَاحِلِ التَّارِيخِ الإِسْلاَمِيِّ، وَيُثِيرُونَ حَوْلَهَا الشُّكُوكَ، وَيُوَجِّهُونَ التُّهَمَ، كَمَا يُوَجِّهُونَ سِهَامَهُمْ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ عَظِيمٍ قَادَ الأُمَّةَ الإِسْلاَمِيَّةَ، وَرَفَعَ لِوَاءَ الإِسْلاَمِ، وَأَذَلَّ أَعْدَاءَهُ، وَكُلَّمَا كَانَ الرَّجُلُ أَكْثَرَ صَلاَحاً وَأَحْسَنَ حَالاً كَانَ تَسْدِيدُ السِّهَامِ أَكْثَرَ، وَتَوْجِيهُ التُّهَمِ أَشَدَّ، وَالافْتِرَاءَاتُ عَلَيْهِ أَكْبَرَ. وَهَذَا مَا أَصَابَ الرَّشِيدَ، الَّذِي ضَرَبَ البَرَامِكَةَ، وَالمُوَفَّقَ وَابْنَهُ المُعْتَضِدَ اللَّذَيْنِ قَضَيَا عَلَى القَرَامِطَةِ، وَصَلاَحَ الدِّينِ الَّذِي أَزَالَ الدَّوْلَةَ العَبِيدِيَّةَ و . . . وَيَجِبُ أَلاَّ نَجِدَ غَرَابَةً عِنْدَمَا نَسْمَعُ ادِّعَاءَاتٍ وَافْتِرَاءَاتٍ جَدِيدَةً عَلَى أُولَئِكَ الأَعْلاَمِ وَأَمْثَالِهِمْ.

وَلَما كَانَتْ ضَلاَلاَتُ هَؤُلاَءِ قَدْ قَادَتْهُمْ إِلَى أَنْ يَقُولُوا إِنَّ أَئِمَّتَهُمْ قَدْ وَرَدَتْ أَسْمَاؤُهُمْ بِالنَّصِّ وَقَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَقُولُوا إِنَّهُمْ أَفْضَلُ مِنَ الأَنْبِيَاءِ، وَهَذَا مَا يُؤَدِّي إِلَى نَقْدِ أَصْحَابِ الدِّيَانَاتِ الأُخْرَى لِهَذِهِ الأَقْوَالِ، بِسَبَبِ حِقْدِهِمُ الشَّدِيدِ عَلَى الإِسْلاَمِ إِضَافَةً إِلَى حِقْدِهِمُ الدَّفِينِ، وَيَكُونُ هَذَا مِعْوَلاً جَدِيداً لِلْهَدْمِ يَنْضَمُّ إِلَى جَانِبِ مَعَاوِلِهِمْ.

وَأَشَاعَ الأَعْدَاءُ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بنَ حَرْبٍ قَدْ حَرَّضَ العَبَّاسَ بنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ وَعَلِيَّ بنَ أَبِي طَالِبٍ عَلَى مُنَازَعَةِ أَبِي

بَكْرٍ، وَرَغْمَ أَنَّ الخَبَرَ يَرُدُّ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ إِلاَّ أَنَّ بَعْضَهُمْ قَدْ أَخَذَ بِهِ لِكَثْرَةِ مَا أُشِيعَ، فَأَبُو سُفْيَانَ كَانَ مِنَ الطُّلَقَاءِ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَتَدَخَّلَ فِي أَمْرٍ كَهَذَا، إِذْ هُوَ مِنْ شَأْنِ الخَاصَّةِ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ لِيَسْمَعَ مِنْهُ فِي مِثْلِ هَذَا الأَمْرِ. وَلَكِنَّ الرَّغْبَةَ مِنَ الإِشَاعَةِ هُوَ إِثَارَةُ الفِتْنَةِ إِذْ يُرِيدُونَ القَوْلَ: إِنَّ الخِلاَفَ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ بَلْ بَيْنَ المُهَاجِرِينَ أَنْفُسِهِمْ وَبَيْنَ الأَنْصَارِ أَنْفُسِهِمْ، وَقَدْ أَشَارَ أُسَيْدُ بنُ حُضَيْرٍ إِلَى إِمْكَانِيَّة حُدُوثِ خِلاَفٍ بَيْنَ الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ فِيمَا إِذَا آلَ الأَمْرُ إِلَى الأَنْصَارِ، أَي أَنَّ المُجْتَمَعَ الإِسْلاَمِيَّ كُلَّهُ غَيْرُ مُتَمَاسِكٍ ـ حَسْبَ زَعْمِهِمْ ـ وَذَلِكَ لِتَشْجِيعِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ عَلَى الحَرَكَةِ وَالمُوَاجَهَةِ. إِنَّ عَلِيًّا وَالْعَبَّاسَ كَانَا عَلَى دَرَجَةٍ مِنَ الإِيمَانِ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَقْبَلاَ مَعَهُ أَيَّ مَوْضُوعٍ يُثِيرُ فِتْنَةً أَو يُحْدِثُ خِلافاً. وَكَذَا بَقِيَّةُ الصَّحَابَةِ، رِضْوَانُ اللَّهِ عَنْهُمْ جَمِيعاً. كَمَا أَنَّ أَبَا بَكْرٍ لَمْ يَكُنْ عَلَى تِلْكَ الدَّرَجَةِ مِنَ الضَّعْفِ لِيَسْمَحَ بِإِثَارَةِ الفِتْنَةِ، وَلَوْ كَانَتْ مِنْ أَبِي سُفْيَانَ وَأَمْثَالِهِ، بَلْ كَانَ شَدِيداً بِالحَقِّ وَقَوِيًّا بِهِ، فَالحِرْصُ عَلَى وَحْدَةِ الأُمَّةِ وَسَلاَمَتِهَا خَيْرٌ مِنَ السَّمَاعِ مَنْ أَيِّ فَرْدٍ مَهْمَا عَلاَ شَأْنُهُ. وَأَبُو بَكْرٍ لَمْ يُحَاسِبْ أَبَا سُفْيَانَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ المَوْضُوعَ افْتِرَاءٌ مِنْ أَسَاسِهِ.

وَأَشَاعَ الأَعْدَاءُ أَنَّ عَلِيَّ بنَ أَبِي طَالِبٍ قَدْ تَأَخَّرَ فِي بَيْعَةِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ حَتَّى وَفَاةِ زَوْجِهِ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَهَذَا افْتِرَاءٌ أَيْضاً، فَمَا كَانَ عَلِيٌّ لِيُفَارِقَ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ مُدَّةَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ، وَهُوَ الَّذِي عُرِفَ بِالإِيمَانِ، وَدَعَا إِلَى وَحْدَةِ القُلُوبِ، وَأَحَسَّ بِأُخُوَّةِ الإِسْلاَمِ مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ، بَلْ إِنَّ عَلِيًّا، وَالعَبَّاسَ، وَبَنِي هَاشِمٍ جَمِيعاً بَايَعُوا يَوْمَ بَايَعَ النَّاسُ، وَلَمْ يَخْتَلِفْ أَحَدٌ عَلَى أَبِي بَكْرٍ، وَلَمْ يَنْقُضْ أَحَدٌ مَا عَاهَدَ عَلَيْهِ. وَقَدِ اعْتَادَ المُسْلِمُونَ أَنْ يُبَايِعُوا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى الإِسْلاَمِ، وَلاَ يَجُوزُ لأَحَدٍ مِنَ الطَّرَفَيْنِ المُتَبَايِعَيْنِ أَنْ يَنْقُضَ العَهْدَ سَوَاءٌ أَكَانَ مِنْ قِبَلِ الخَلِيفَةِ أَمْ مِنْ قِبَلِ الرَّعِيَّةِ. وَالخِلاَفَةُ عَهْدٌ بَيْنَ الخَلِيفَةِ وَالمُسْلِمِينَ، يُلْزِمُ الخَلِيفَةُ نَفْسَهُ بِمُوجِبِ هَذَا العَهْدِ العَمَلَ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالنُّصْحَ لِلْمُسْلِمِينَ، وَيُلْزِمُ المُسْلِمُونَ أَنْفُسَهُمْ بِمُوجِبِ البَيْعَةِ الطَّاعَةَ لِلْخَلِيفَةِ، وَتَنْفِيذَ أَوَامِرِهِ. فَإِذَا انْحَرَفَ الخَلِيفَةُ عَنْ سَيْرِهِ الإِسْلاَمِيِّ بَطُلَتْ طَاعَتُهُ، وَعَلَى المُسْلِمِينَ مُطَالَبَتُهُ بِالوَفَاءِ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ فَإِنِ اسْتَقَامَ انْقَضَى الأَمْرُ وَإِلاَّ اعْتَزَلَ الخِلاَفَةَ، أَوْ عُزِلَ مِنْ قِبَلِ أَهْلِ الحَلِّ وَالعَقْدِ (أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنْ عَصَيْتُ فَلاَ طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ).

إِنَّ تَأَخُّرَ عَلِيٍّ عَنِ البَيْعَةِ غَيْرُ صَحِيحٍ، إِذْ بَايَعَ مَعَ المُسْلِمِينَ يَوْمَ البَيْعَةِ العَامَّةِ، غَيْرَ أَنَّ مَرَضَ زَوْجِهِ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ شَغَلَهُ، فَكَانَ يُصَلِّي مَعَ النَّاسِ، ثُمَّ يَخْرُجُ مُسْرِعاً لِتَمْرِيضِ زَوْجِهِ، وَفِي الوَقْتِ نَفْسِهِ كَانَ هَذَا يُؤَخِّرُهُ أَوْ يَشْغَلُهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ بِجَانِبِ الخَلِيفَةِ أَبِي بَكْرٍ دَائِماً، حَيْثُ يَكُونُ تَدَاوُلُ الرَّأْيِ فِي شُؤُونِ المُسْلِمِينَ، وَيَكُونُ النُّصْحُ، وَتَكُونُ الاِسْتِشَارَةُ. وَهَذَا مَا جَعَلَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَسْتَغِلُّونَ ظُرُوفَ مَرَضِ فَاطِمَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَشُغْلِ عَلِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَيَتَحَدَّثُونَ عَنْ تَأْخِيرِ بَيْعَةِ عَلِيٍّ.

وَرَغْمَ أَنَّ هٰذِهِ الشَّائِعَاتِ كُلَّهَا افْتِرَاءَاتٌ، وَقَدْ سَقَطَتْ أَمَامَ الحَقِيقَةِ وَالإِيمَانِ، وَدَاسَتْهَا الأَقْدَامُ، وَزَالَ أَثَرُ أَشْوَاكِهَا، وَأَصْبَحَ هَشِيماً، وَلَكِنْ لاَ يَزَالَ الأَعْدَاءُ يَحْمِلُونَ هَذَا الهَشِيمَ عَلَى أَكُفِّهِمْ وَيَذُرُّونَهُ أَمَامَ المُسْلِمِينَ، وَيَنْفُخُونَهُ فِي وُجُوهِهِمْ لَعَلَّهُ يُؤَثِّرُ عَلَى عُيُونِهِمْ، فَمَنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَى عَيْنِهِ غِشَاوَةً زَادَ الهَشِيمُ مِنْ غِشَاوَةِ عَيْنِهِ، وَمَنْ هَدَاهُ اللَّهُ اتَّقَى ذَلِكَ الهَشِيمَ بِجُفُونِهِ وَبَقِيَتْ عُيُونُهُ مُبْصِرَةً.

إِنَّ كُلَّ مَا حَدَثَ أَنَّ فَاطِمَةَ وَالعَبَّاسَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَدْ ذَهَبَا إِلَى أَبِي بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَطْلُبَانِ مِنْهُ مِيرَاثَهُمَا مِنْ

رَسُولِ اللّهِ، صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي خَيْبَرَ وَفَدَكَ. فَقَالَ لَهُمَا الصِّدِّيقُ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ، صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ لاَ نُورَّثُ مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ، إِنَّمَا يَأْكُلُ آلُ مُحَمَّدٍ فِي هَذَا المَالِ»، وَإِنِّي وَاللّهِ لاَ أَدَعُ أَمْراً رَأَيْتُ رَسُولَ اللّهِ، صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَصْنَعُهُ إِلاَّ صَنَعْتُهُ إِنْ شَاءَ اللّهُ. فَسَلَّمَا لَهُ، وَلَمْ يَحْدُثْ بَعْدَهَا بَحْثُ هَذَا المَوْضُوعِ أَبَداً. وَلَكِنْ أَكْثَرَ الأَعْدَاءُ مِنْ بَحْثِهِ حَسْبَ أَهْوَائِهِمْ.

الفصل الثامن

خِلافةُ الصِّدِّيقِ

تَوَلَّى الصِّدِّيقُ الخِلاَفَةَ مُقْتَدِياً بِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مُتَمَسِّكاً بِكِتَابِ اللَّهِ، مُلْتَزِماً بِسُنَّةِ نَبِيِّهِ. وَرَغْمَ قِصَرِ مُدَّةِ خِلاَفَتِهِ إِلاَّ أَنَّهَا كَانَتْ مَلِيئَةً بِالأَعْمَالِ الجَلِيلَةِ، وَفِيهَا العِبَرُ وَالحِكَمُ مِنَ الأَفْعَالِ الَّتِي قَامَ بِهَا الخَلِيفَةُ الَّتِي تَجْعَلُهُ صُورَةً لِلْخَلِيفَةِ الرَّاشِدِ، وَأُنْمُوذَجاً يَقْتَدِي بِهِ كُلُّ حَاكِمٍ عَادِلٍ، وَكُلُّ سُلْطَانٍ قَوِيٍّ، وَكُلُّ إِمَامٍ يَعْمَلُ لِصَالِحِ أُمَّتِهِ وَخَيْرِ دِينِهِ.

كَانَتِ الأُمَّةُ كِتْلَةً وَاحِدَةً تَعْمَلُ تَحْتَ رِعَايَتِهِ، مُتَسَاوِيَةً كَأَسْنَانِ المِشْطِ، لاَ فَرْقَ بَيْنَ الخَلِيفَةِ وَبَيْنَ أَيِّ فَرْدٍ مِنَ الرَّعِيَّةِ، تَسْمَعُ وَتُطِيعُ، تُلَبِّي الجِهَادَ، وَتَعْمَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَضَتْ عَلَى المُرْتَدِّينَ، وَقَاتَلَتِ المُنَافِقِينَ، وَأَذَلَّتِ المُعْتَدِينَ، فَعَادَتْ لَهَا هَيْبَتُهَا الَّتِي كَانَتْ لَهَا أَيَّامَ نَبِيِّهَا عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، وَاحْتَفَظَتْ بِمَكَانَتِهَا الَّتِي بَوَّأَهَا اللَّهُ وَالخَيْرِيَّةِ الَّتِي أَعْطَاهَا إِيَّاهَا إِذْ كَانَتْ تَأْمُرُ

بِالمَعْرُوفِ، وَتَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ، وَتُؤْمِنُ بِاللَّهِ. وَلَعَلَّ مِنْ أَهَمِّ الأَحْدَاثِ فِي خِلاَفَةِ الصِّدِّيقِ:

١ ـ بَعْثُ أُسَامَةَ بنِ زَيْدٍ:

بَعْدَ عَوْدَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ حَجَّةِ الوَدَاعِ، أَقَامَ فِي المَدِينَةِ بَقِيَّةَ شَهْرِ ذِي الحِجَّةِ، وَالمُحَرَّمَ، وَصَفَرَ، وَأَمَرَ النَّاسَ بِالتَّجَهُّزِ لِحَمْلَةٍ إِلَى الشَّامِ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ أُسَامَةَ بنَ زَيْدٍ[1]، وَهُوَ فِي مُقْتَبَلِ العُمْرِ، فَضَمَّتْ الحَمْلَةُ المُهَاجِرِينَ الأَوَائِلَ، وَالأَنْصَارَ، وَعَامَّةَ المُسْلِمِينَ. وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَائِدَهُ أُسَامَةَ أَنْ تَطَأَ خَيْلُهُ أَرْضَ البَلْقَاءِ وَالدَّارُوم مِنْ جَنُوبِي الشَّامِ. وَهُوَ آخِرُ جَيْشٍ جَهَّزَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَبَيْنَمَا كَانَ الجَيْشُ يَسْتَعِدُّ وَيَتَجَهَّزُ إِذْ مَرِضَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَرَضَهُ الَّذِي تَوَفَّاهُ اللَّهُ بِهِ، وَلَمْ يَخْرُجْ آخِرُ جُنْدِيٍّ مِنْ جَيْشِ أُسَامَةَ مِنَ المَدِينَةِ إِلاَّ وَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَتَوَقَّفَ الجَيْشُ.

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدِ اسْتَبْطَأَ النَّاسَ

(١) أسامة بن زيد بن حارثة: حِبُّ رسول الله، وابن حِبِّهِ، وأمه بركة أم أيمن حاضنة رسول الله، ﷺ، استشهد أبوه أميراً في غزوة مؤتة. فأراد رسول الله أن يولي ابنه قيادة جيشٍ يغزو تلك الجهات.

فِي بَعْثِ أُسَامَةَ بنِ زَيْدٍ، وَهُوَ فِي وَجَعِهِ، فَخَرَجَ عَاصِباً رَأْسَهُ حَتَّى جَلَسَ عَلَى المِنْبَرِ، وَكَانَ النَّاسُ قَدْ قَالُوا فِي إِمْرَةِ أُسَامَةَ: أَمَّرَ غُلَاماً حَدَثاً عَلَى جِلَّةِ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ.

فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ لَهُ أَهْلٌ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، أَنْفِذُوا بَعْثَ أُسَامَةَ، فَلَعَمْرِي لَئِنْ قُلْتُمْ فِي إِمَارَتِهِ لَقَدْ قُلْتُمْ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلِهِ، وَإِنَّهُ لَخَلِيقٌ بِالإِمَارَةِ، وَإِنْ كَانَ أَبُوهُ لَخَلِيقاً لَهَا.

أَسْرَعَ النَّاسُ بِالاسْتِعْدَادِ لِلِالْتِحَاقِ بِالجَيْشِ، وَزَادَ وَجَعُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَخَرَجَ أُسَامَةُ، وَخَرَجَ جَيْشُهُ مَعَهُ حَتَّى نَزَلُوا بِالجُرْفِ عَلَى بُعْدِ فَرْسَخٍ مِنَ المَدِينَةِ، فَعَسْكَرُوا هُنَاكَ، وَتَكَامَلَ رِجَالُ البَعْثِ، وَثَقُلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَقَامَ أُسَامَةُ وَالنَّاسُ لِيَنْظُرُوا مَا اللَّهُ قَاضٍ فِي رَسُولِهِ.

وَثَقُلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَهَبَطَ أُسَامَةُ وَمَنْ مَعَهُ إِلَى المَدِينَةِ. وَلَمْ يَلْبَثْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ تُوُفِّيَ، وَبُويِعَ أَبُو بَكْرٍ.

وَبَعْدَ أَنْ مَضَى ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ عَلَى وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَمَرَ أَبُو بَكْرٍ الجَيْشَ بِالحَرَكَةِ والسَّيْرِ إِلَى الجِهَةِ الَّتِي أَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذْ نَادَى مُنَادِي أَبِي

بَكْرٍ، مِنْ بَعْدِ الغَدِ مِنْ مُتَوَفَّى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لِيَتِمَّ بَعْثُ أُسَامَةَ، أَلاَ لاَ يَبْقَيَنَّ بِالمَدِينَةِ أَحَدٌ مِنْ جُنْدِ أُسَامَةَ إلاَّ خَرَجَ إِلَى عَسْكَرِهِ بِالجُرْفِ. وَقَامَ بِالنَّاسِ خَطِيباً فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّمَا أَنَا مِثْلُكُمْ، وَإِنِّي لاَ أَدْرِي لَعَلَّكُمْ سَتُكَلِّفُونَنِي مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَطِيقُ. إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مُحَمَّداً عَلَى العَالَمِينَ وَعَصَمَهُ مِنَ الآفَاتِ، وَإِنَّمَا أَنَا مُتَّبِعٌ وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ، فَإِنْ اسْتَقَمْتُ فَتَابِعُونِي، وَإِنْ زِغْتُ فَقَوِّمُونِي، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قُبِضَ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَطْلُبُهُ بِمَظْلَمَةِ ضَرْبَةِ سَوْطٍ فَمَا دُونَهَا، أَلاَ وَإِنَّ لِي شَيْطَاناً يَعْتَرِينِي، فَإِذَا أَتَانِي فَاجْتَنِبُونِي، لاَ أُؤَثِّر فِي أَشْعَارِكُمْ وَأَبْشَارِكُمْ، وَأَنْتُمْ تَغْدُونَ وَتَرُوحُونَ فِي أَجَلٍ قَدْ غُيِّبَ عَنْكُمْ عِلْمُهُ! فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلاَّ يَمْضِي هَذَا الأَجَلُ إلاَّ وَأَنْتُمْ فِي عَمَلٍ صَالِحٍ فَافْعَلُوا، وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ إلاَّ بِاللَّهِ، فَابْقُوا فِي مَهَلِ آجَالِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُسْلِمُوا آجَالَكُمْ إِلَى انْقِطَاعِ الأَعْمَالِ، فَإِنَّ قَوْماً نَسُوا آجَالَهُمْ، وَجَعَلُوا أَعْمَالَهُمْ لِغَيْرِهِمْ، فَإِيَّاكُمْ أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ، الجِدَّ، الجِدَّ! وَالوَحَا[1] الوَحَا، وَالنَّجَاءَ النَّجَاء! فَإِنَّ وَرَاءَكُمْ طَالِباً

---

(١) الوحا: السرعة.

حَثِيثاً، أَجَلاً مَرُّهُ سَرِيعٌ. احْذَرُوا المَوْتَ وَاعْتَبِرُوا بِالآبَاءِ وَالأَبْنَاءِ وَالإِخْوَانِ، وَلاَ تَغْبِطُوا الأَحْيَاءَ إِلاَّ بِمَا تَغْبِطُونَ بِهِ الأَمْوَاتَ[1].

وَفِي المُعَسْكَرِ بِالجُرْفِ قَالَ أُسَامَةَ لِعُمَرَ بنِ الخَطَّابِ: ارْجِعْ إِلَى خَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاسْتَأْذِنْهُ يَأْذَنَ لِي أَنْ أَرْجِعَ بِالنَّاسِ فَإِنَّ مَعِي وُجُوهَ النَّاسِ، وَلاَ آمَنُ عَلَى خَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَكَانَ المُسْلِمُونَ فِعْلاً قَدْ أَحَسُّوا بِالخَطَرِ مِنْ جَرَّاءِ اسْتِشْرَاءِ النِّفَاقِ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ، وَرِدَّةِ القَبَائِلِ عَنِ الإِسْلاَمِ. وَقَالَ الأَنْصَارُ: فَإِنْ أَبَى إِلاَّ أَنْ يَمْضِيَ فَأَبْلِغْهُ عَنَّا، وَاطْلُبْ إِلَيْهِ أَنْ يُوَلِّيَ أَمْرَنَا رَجُلاً أَقْدَمَ سِنّاً مِنْ أُسَامَةَ. وَمَا كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ أَبْغَضَ شَيْءٍ عَلَى أَبِي بَكْرٍ أَنْ يُخَالِفَ أَمْراً مِنْ أَوَامِرِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَهْمَا كَانَتِ الظُّرُوفُ، وَمَهْمَا كَانَتِ النَّتَائِجُ.

خَرَجَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ بِأَمْرِ أُسَامَةَ وَجَاءَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَأَخْبَرَهُ بِمَا قَالُوا عَنْ أُسَامَةَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: لَوْ خَطَفَتْنِي الكِلاَبُ وَالذِّئَابُ لَمْ أَرُدَّ قَضَاءً قَضَى بِهِ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ عُمَرُ: فَإِنَّ الأَنْصَارَ أَمَرُونِي أَنْ أُبْلِغَكَ، وَإِنَّهُمْ يَطْلُبُونَ إِلَيْكَ أَنْ تُوَلِّيَ أَمْرَهُمْ رَجُلاً أَقْدَمَ سِنّاً مِنْ أُسَامَةَ، فَوَثَبَ

---

(١) تاريخ الطبري.

أَبُو بَكْرٍ ـ وَكَانَ جَالِساً ـ فَأَخَذَ بِلِحْيَةِ عُمَرَ، وَقَالَ لَهُ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ وَعَدِمَتْكَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ! اسْتَعْمَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَأْمُرُنِي أَنْ أَنْزَعَهُ. فَخَرَجَ عُمَرُ إِلَى النَّاسِ، فقَالُوا لَهُ: مَا صَنَعْتَ؟ فقَالَ: امْضُوا، ثَكِلَتْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ، مَا لَقِيتُ فِي سَبَبِكُم مِنْ خَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ.

ثُمَّ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى أَتَاهُمْ، فَأَشْخَصَهُمْ وَشَيَّعَهُمْ، وَهُوَ مَاشٍ، وَأُسَامَةُ رَاكِبٌ، وَعَبْدُ الرَّحْمٰنِ بنُ عَوْفٍ يَقُودُ دَابَّةَ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ لَهُ أُسَامَةُ: يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ! وَاللَّهِ لَتَرْكَبَنْ أَوْ لَأَنْزِلَنْ! فقَالَ: وَاللَّهِ لاَ تَنْزِلُ، وَوَاللَّهِ لاَ أَرْكَبُ، وَمَا عَلَيَّ أَنْ أُغَبِّرَ قَدَمَيَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ سَاعَةً، فَإِنَّ لِلْغَازِي بِكُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا سَبْعَمِائَةِ حَسَنَةٍ تُكْتَبُ لَهُ، وَسَبْعَمِائَةِ دَرَجَةٍ تَرْتَفِعُ لَهُ، وَتُرْفَعُ عَنْهُ سَبْعُمِائَةِ خَطِيئَة. حَتَّى إِذَا انتَهَى قَالَ: إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُعِينَنِي بِعُمَرَ فَافْعَلْ، فَأَذِنَ لَهُ. ثُمَّ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! قِفُوا أُوصِكُمْ بِعَشْرٍ فَاحْفَظُوهَا عَنِّي: لاَ تَخُونُوا، وَلاَ تَغُلُّوا، وَلاَ تَغْدِرُوا، وَلاَ تُمَثِّلُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا طِفْلاً صَغِيراً، وَلاَ شَيْخاً كَبِيراً، وَلاَ امْرَأَةً، وَلاَ تَعْقِرُوا نَخْلاً وَلاَ تَحْرِقُوهُ، وَلاَ تَقْطَعُوا شَجَرَةً، وَلاَ تَذْبَحُوا شَاةً وَلاَ بَقَرَةً وَلاَ بَعِيراً إلاَّ لِمَأْكَلَةٍ، وَسَوْفَ تَمُرُّونَ بِأَقْوَامٍ قَدْ فَرَغُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الصَّوَامِعِ فَدَعُوهُمْ وَمَا فَرَغُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ

وَسَوْفَ تُقْدِمُونَ عَلَى قَوْمٍ يَأْتُونَكُمْ بِآنِيَةٍ فِيهَا أَلْوَانُ الطَّعَامِ، فَإِذَا أَكَلْتُمْ مِنْهَا شَيْئاً بَعْدَ شَيْءٍ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا. وَتَلْقَوْنَ أَقْوَاماً قَدْ فَحَصُوا أَوْسَاطَ رُؤُوسِهِمْ وَتَرَكُوا حَوْلَهَا مِثْلَ العَصَائِبِ، فَاخْفُقُوهُمْ بِالسَّيْفِ خَفْقاً، انْدَفِعُوا بِاسْمِ اللَّهِ، أَفْنَاكُمُ اللَّهُ بِالطَّعْنِ وَالطَّاعُونِ.

ثُمَّ قَالَ أَبُو بَكْرٍ لأُسَامَةَ: اصْنَعْ مَا أَمَرَكَ بِهِ نَبِيُّ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ابْدَأْ بِبِلَادِ قُضَاعَةَ، ثُمَّ ايتِ آبُلَ. وَلاَ تُقَصِّرَنَّ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلاَ تَعْجَبَنَّ لِمَا خَلَّفْتَ عَنْ عَهْدِهِ. فَمَضَى أُسَامَةُ مُغِذّاً عَلَى ذِي المَرْوَةِ وَالوَادِي، وَانْتَهَى إِلَى مَا أَمَرَهُ بِهِ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ بَثِّ الخُيُولِ فِي قَبَائِلِ قُضَاعَةَ، وَالغَارَةِ عَلَى آبُلَ، فَسَلِمَ، وَغَنِمَ، وَكَانَ فَرَاغُهُ فِي أَرْبَعِينَ يَوْماً سِوَى مُقَامِهِ وَمُنْقَلَبِهِ رَاجِعاً[١].

وَكَانَ فِي إِرْسَالِ جَيْشِ أُسَامَةَ مَا يَدُلُّ عَلَى قُوَّةِ إِيمَانِ أَبِي بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَمُحَاوَلَةِ تَنْفِيذِهِ لِمَا أَوْصَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَهْمَا كَانَتِ النَّتَائِجُ، وَهُوَ يَعْتَقِدُ أَنَّ النَّتَائِجَ لاَ تَكُونُ إِلاَّ خَيْراً مَا دَامَ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ أَمَرَ بِذَلِكَ.

---

(١) تاريخ الطبري.

وَكَانَ فِي إِرْسَالِ بَعْثِ أُسَامَةَ قُوَّةٌ مَعْنَوِيَّةٌ لِلْمُسْلِمِينَ، وَإِضْعَافٌ وَاضِحٌ لِمَعْنَوِيَّاتِ المُنَافِقِينَ وَالمُرْتَدِّينَ الَّذِينَ شَعَرُوا أَنَّ لَدَى المُسْلِمِينَ قُوَّةً كَبِيرَةً، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لَمَا أَرْسَلُوا هَذَا الجَيْشَ إِلَى تِلْكَ المَنَاطِقِ النَّائِيَةِ الَّتِي تَقَعُ عَلَى تُخُومِ الشَّامِ، كَمَا أَنَّ مَعْنَوِيَّاتِهِمْ مُرْتَفِعَةٌ حَيْثُ لَمْ يُبَالُوا بِمَا يَجْرِي حَوْلَ المَدِينَةِ مِنْ نِفَاقٍ وَرِدَّةٍ، وَلَمْ يَخْشَوْا مَا يَتَهَدَّدُهُمْ مِنْ أُولَئِكَ الخَارِجِينَ، وَالَّذِينَ يُحِيطُونَ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ.

٢ ـ حُرُوبُ الرِّدَّةِ:

بَعْدَ أَنْ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اتَّسَعَ نِطَاقُ الرِّدَّةِ، وَنَجَمَ النِّفَاقُ فِي كُلِّ مَكَانٍ إِلاَّ مَا كَانَ مِنَ المَدِينَةِ، وَمَكَّةَ، وَالطَّائِفِ، وَالبَحْرَيْنِ، وَارْتَفَعَتِ رُؤُوسٌ لَمْ تَكُنْ تَرْتَفِعُ مِنْ قَبْلُ، إِلاَّ فِي المَنَاطِقِ الَّتِي تَقَعَ إِلَى الشَّمَالِ مِنَ المَدِينَةِ إِذْ خَافَ أَهْلُهَا مِنْ سَيْرِ جَيْشِ أُسَامَةَ، وَقَالُوا: لَوْ لَمْ يَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ قُوَّةٍ لَمَا أَرْسَلُوا مِثْلَ هَذَا الجَيْشِ فِي مِثْلِ هَذَا الوَقْتِ، وَقَالُوا: لِنَتْرُكِ الأَمْرَ إِلَى قِتَالِهِمْ مَعَ الرُّومِ، فَإِنِ انْتَصَرَ الرُّومُ فَقَدْ كَفَوْنَا القِتَالَ، وَإِنِ انْتَصَرَ أُسَامَةُ فَقَدْ ثَبَتَ الإِسْلاَمُ، وَهَذَا مَا جَعَلَ الرِّدَّةَ وَالنِّفَاقَ لاَ تَظْهَرُ فِي تِلْكَ البِقَاعِ. وَهَذَا مَا أَدْرَكَهُ أَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عِنْدَمَا أَصَرَّ عَلَى إِرْسَالِ بَعْثِ أُسَامَةَ.

كَانَ المُرْتَدُّونَ فَرِيقَيْنِ: أَوَّلُهُمَا قَدْ سَارَ وَرَاءَ المُتَنَبِّئِينَ الكَذَّابِينَ أَمْثَالِ: مُسَيْلَمَةَ الحَنَفِيِّ، وَطُلَيْحَةَ الأَسَدِيِّ، وَالأَسْوَدِ العَنْسِيِّ، وَصَدَّقَ مَا يَقُولُ هَؤُلاَءِ المُفْتَرُونَ، وَثَانِيهِمَا بَقِيَ عَلَى إِيمَانِهِ بِاللَّهِ، وَشَهَادَتِهِ بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، إلاَّ أَنَّهُ قَدْ رَفَضَ تَأْدِيَةَ الزَّكَاةِ، وَعَدَّهَا ضَرِيبَةً يَدْفَعُهَا مُكْرَهاً، وَقَدْ أَرْسَلَ هَذَا الفَرِيقُ وَفْداً إِلَى المَدِينَةِ لِمُفَاوَضَةِ خَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ، وَقَدْ نَزَلَ عَلَى وُجَهَاءِ النَّاسِ فِي المَدِينَةِ عَدَا العَبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَوَافَقَ عَدَدٌ مِنْ أَعْيَانِ المُسْلِمِينَ عَلَى قَبُولِ مَا جَاءَتْ بِهِ رُسُلُ الفَرِيقِ الثَّانِي، وَنَاقَشُوا فِي ذَلِكَ الأَمْرِ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ، وَمِنْهُمْ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ، وَسَالِمُ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ وَغَيْرُهُمْ، إِلاَّ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَدْ رَفَضَ مِنْهُمْ ذَلِكَ، وَقَالَ قَوْلَتَهُ المَشْهُورَةَ: «وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالاً كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَجَاهَدْتُهُمْ عَلَيْهِ». لَقَدْ فَهِمَ الصِّدِّيقُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِفِكْرِهِ النَّيِّرِ أَنَّ كُلَّ تَقْصِيرٍ فِي حَقٍّ كَانَ يُؤَدَّىٰ أَيَّامَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِنَّمَا هُوَ تَقْصِيرٌ فِي الوَاجِبِ وَنَقْصٌ فِي التَّطْبِيقِ، وَلَنْ يَكُونَ هَذَا فِي عَهْدِ الصِّدِّيقِ.

وَقَالَ عُمَرُ لأَبِي بَكْرٍ: كَيْفَ تُقَاتِلُهُمْ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي نَفْسَهُ وَمَالَهُ إِلاَّ بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَاللَّهِ لأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ. فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ المَالِ، وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عِنَاقاً[1] لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِمْ. وَهَكَذَا كَانَتْ نَظْرَةُ الصِّدِّيقِ نَظْرَةً صَادِقَةً وَاعِيَةً، فَالإِسْلاَمُ مِنْهَجُ حَيَاةٍ يَشْمَلُ جَوَانِبَ الحَيَاةِ كُلَّهَا مِنْ عِبَادَاتٍ، وَاجْتِمَاعٍ، وَاقْتِصَادٍ، وَسِيَاسَةٍ، وَهُوَ كُلٌّ لاَ يَتَجَزَّأُ، وَلَيْسَ هُنَاكَ مِنْ فَرْقٍ بَيْنَ فَرِيضَةٍ وَأُخْرَى. وَالزَّكَاةُ وَإِنْ كَانَتْ مِنَ الجَانِبِ الاقْتِصَادِيِّ، إِلاَّ أَنَّهَا رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الإِسْلاَمِ، وَهِيَ عِبَادَةٌ بِحَدِّ ذَاتِهَا، وَلاَ يُمْكِنُ تَطْبِيقُ جُزْءٍ مِنَ الإِسْلاَمِ وَإِهْمَالُ آخَرَ، إِذْ لاَ يَسْتَقِيمُ الوَضْعُ، فَلاَ بُدَّ مِنْ تَطْبِيقِ المَنْهَجِ كَامِلاً.

وَرَأَى بَعْضُ الصَّحَابَةِ أَنَّ الأَخْذَ بِاللِّينِ أَفْضَلُ، إِذْ زُلْزِلَتِ الأَرْضُ بِالرِّدَّةِ وَالنِّفَاقِ. وَقَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ: يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ! تَأَلَّفِ النَّاسَ وَارْفِقْ بِهِمْ، فَأَجَابَهُ أَبُو بَكْرٍ: رَجَوْتُ نُصْرَتَكَ وَجِئْتَنِي بِخُذْلاَنِكَ؟ أَجَبَّارٌ فِي الجَاهِلِيَّةِ وَخَوَّارٌ فِي

(١) العناق: أنثى الماعز الصغيرة.

الإِسْلاَمِ؟ إِنَّهُ قَدِ انْقَطَعَ الوَحْيُ، وَتَمَّ الدِّينُ، أَوَ يَنْقُصُ وَأَنَا حَيٌّ؟ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِلاَّ بِحَقِّهَا»، وَمِنْ حَقِّهَا الصَّلاَةُ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَاللَّهِ لَوْ خَذَلَنِي النَّاسُ كُلُّهُمْ لَجَاهَدْتُهُمْ بِنَفْسِي.

إِذَنْ يَرَى الصِّدِّيقُ أَنَّ التَّسَاهُلَ فِي جَانِبٍ مِنْ جَوَانِبِ الإِسْلاَمِ إِنَّمَا هُوَ نَقْصٌ، وَوُجُودُ النَّقْصِ لاَ يَقْتَضِي إِنْزَالَ نَصْرِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ. فَنَصْرُ اللَّهِ مُرْتَبِطٌ بِتَطْبِيقِ الإِسْلاَمِ كَامِلاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾[1]، فَإِذَا أَحْدَثَ المُسْلِمُونَ نَقْصاً فِي الإِسْلاَمِ فَقَدْ لاَ يَأْتِيهِمْ نَصْرُ اللَّهِ، وَلٰكِنْ لَوْ نَصَرُوا اللَّهَ بِتَطْبِيقِ شَرْعِهِ كَامِلاً، وَصَدَقُوا وَأَخْلَصُوا فَإِنَّ نَصْرَ اللَّهِ آتٍ لاَ مَحَالَةَ، فَكَأَنَّ الصِّدِّيقَ يَقُولُ لَهُمْ: إِذَا أَرَدْتُمُ الانْتِصَارَ فَعَلَيْكُمْ رَفْضَ إِحْدَاثِ شَرْخٍ فِي الإِسْلاَمِ بِالتَّسَاهُلِ فِي أَخْذِ الزَّكَاةِ مِنْ هَؤُلاَءِ، وَرَدِّ كَلاَمِهِمْ، وَالإِصْرَارِ عَلَى تَطْبِيقِ الإِسْلاَمِ كَمَا كَانَ أَيَّامَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَمِنْ نَاحِيَةٍ ثَانِيَةٍ، فَإِنَّ التَّسَاهُلَ مَعَ هَؤُلاَءِ قَدْ يُشْعِرُهُمْ بِضَعْفِ المُسْلِمِينَ فَيُطَالِبُونَ بِمَطَالِبَ أُخْرَى، وَيُشَجِّعُ آخَرِينَ عَلَى النِّفَاقِ وَالتَّمَرُّدِ. وَالمُهِمُّ مِنَ النَّاحِيَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ أَنَّهُ لاَ بُدَّ مِنْ

---

(١) سورة محمد، الآية ٧.

تَطْبيقِ الإسْلَامِ، وَلاَ يَصِحُّ التَّسَاهُلُ مَعَ أَحَدٍ فِي تركِ أَيِّ جَانِبٍ مِنْ جوَانِبِ الإسْلَامِ مَهْمَا بَدَا قَلِيلَ الأَهَمِيَّةِ - حَسْبَ تَصَوُّرِهِمْ - وَهُوَ نَقْصٌ، وَيُؤَدِّي إِلَى تَأَخُّرِ نَصْرِ اللَّهِ، وَهُوَ بِدَايَةُ فَتْقٍ، وَلاَ يُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ فِي عَهْدِ الصِّدِّيقِ.

وَرَدَّ أَبُو بَكْرٍ وَفْدَ المُنَافِقِينَ الَّذِينَ امْتَنَعُوا عَنْ دَفْعِ الزَّكَاةِ، مُسَفِّهاً رَأْيَهُمْ، مُصِرّاً عَلَى رَأْيِهِ فِي إِجْبَارِهِمْ إِلَى الخُضُوعِ الصَّحِيحِ لِلدِّينِ.

عَادَ رِجَالُ الوَفْدِ إِلَى قَبَائِلِهِمْ، وَأَخْبَرُوهُمْ بِقِلَّةِ عَدَدِ المُسْلِمِينَ، (وَكَانَ جَيْشُ أُسَامَةَ قَدِ انْطَلَقَ)، فَكَأَنَّهُمْ كَانُوا عُيُوناً لِقَبَائِلِهِمْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَفْدَ مُبَاحَثَةٍ. وَقَدْ أَطْمعُوا قَبَائِلَهُمْ بَعْدَ عَوْدَتِهِمْ إِلَيْهِمْ بِغَزْوِ المَدِينَةِ.

وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عِنْدَما عَادَ إِلَى المَدِينَةِ بَعْدَ أَنْ شَيَّعَ جَيْشَ أُسَامَةَ قَدْ جعَلَ كِبَارَ الصَّحَابَةِ عَلَى مَنَافِذِ المَدِينَةِ إِلَى البَادِيَةِ، وَمِنْهُمْ: عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَالزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ، وَطَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَسَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَعَبْدُ الرَّحْمٰنِ بنُ عَوْفٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بنُ مَسْعُودٍ، وَطَلَبَ مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ أَنْ يَكُونُوا فِي المَسْجِدِ اسْتِعْدَاداً لِكُلِّ طَارِىءٍ، وَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ الأَرْضَ كَافِرَةٌ، وَقَدْ رَأَى وَفْدُهُمْ قِلَّةً، وَإِنَّكُمْ لاَ تَدْرُونَ

أَلَيْلاً تُؤْتَوْنَ أَمْ نَهاراً، وَأَدْنَاهُمْ مِنكُمْ عَلَى بَرِيدٍ، وَقَدْ كَانَ القَوْمُ يَأْمَلُونَ أَنْ نَقْبَلَ مِنْهُمْ، وَنُوَادِعَهُمْ، وَقَدْ أَبَيْنَا عَلَيْهِمْ، وَنَبَذْنَا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ، فَاسْتَعِدُّوا وَأَعِدُّوا.

كَانَ أَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يُرِيدُ أَنْ يُؤَخِّرَ قِتَالَ المُنَافِقِينَ وَالمُرْتَدِّينَ حَتَّى يَعُودَ جَيْشُ أُسَامَةَ لِذَا كَانَ يَسْتَقْبِلُ الوُفُودَ وَيَبْعَثُ الرُّسُلَ، غَيْرَ أَنَّ بَعْضَ المُنَافِقِينَ قَدْ وَجَدُوا أَنْ يَسْتَغِلُّوا الفُرْصَةَ، وَيُهَاجِمُوا المَدِينَةَ قَبْلَ عَوْدَةِ الجَيْشِ الإِسْلاَمِيِّ مِنْ بِلاَدِ الرُّومِ، وَقَبْلَ أَنْ يَسْتَكْمِلَ المُسْلِمُونَ قُوَّتَهُمْ، وَيُنَظِّمُوا أُمُورَهُمْ. فَلَمْ تَمْضِ ثَلاَثَةُ أَيَّامٍ عَلَى عَوْدَةِ أَبِي بَكْرٍ إِلَى المَدِينَةِ مِنْ تَشْيِيعِ بَعْثِ أُسَامَةَ حَتَّى دَاهَمَتِ المَدِينَةَ غَارَةٌ لَيْلاً، وَقَدِ اطْمَأَنَّ المُغِيرُونَ إِلَى أَنَّ الجَيْشَ الإِسْلاَمِيَّ قَدِ ابْتَعَدَ عَنِ المَدِينَةِ وَأَوْغَلَ فِي البُعْدِ.

وَصَلَتِ الغَارَةُ إِلَى المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ وَقَدْ خَلَّفَتْ وَرَاءَهَا قُوَّةً رِدْءاً لَهَا فِي (ذِي حَسِيْ)[1]، وَعِنْدَمَا طَرَقَتِ الأَنْقَابَ وَجَدَتْ عَلَيْهَا المُقَاتِلَةَ، وَوَرَاءَهُمْ أَقْوَاماً يَنْقُلُونَ الأَخْبَارَ، فَنَقَلُوا خَبَرَ الغَارَةِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فِي المَسْجِدِ، فَأَرْسَلَ إِلَى المُقَاتِلِينَ يَأْمُرُهُمْ بِالثَّبَاتِ، وَانْطَلَقَ بِمَنْ فِي المَسْجِدِ إِلَى الأَنْقَابِ، فَوَلَّى المُغِيرُونَ

---

(١) ذي حسي: موقع قرب المدينة.

الأَدْبَارَ. وَتَبِعَهُمُ المُسْلِمُونَ عَلَى الإِبِلِ حَتَّى (ذِي حَسِيْ)، غَيْرَ أَنَّ إِبِلَ المُسْلِمِينَ قَدْ نَفَرَتْ مِنْ حِيلَةٍ لَجَأَ إِلَيْهَا المُغِيرُونَ، وَهِيَ نَفْخُ ضُرُوفِ السَّمْنِ وَجَرُّهَا بِالحِبَالِ أَمَامَ الإِبِلِ. فَعَادَتِ الإِبِلُ بِالمُسْلِمِينَ إِلَى المَدِينَةِ، وَأَرْسَلَ المُغِيرُونَ إِلَى إِخْوَانِهِمْ فِي (ذِي القِصَّةِ)[1] بِالخَبَرِ، فَأَسْرَعُوا إِلَيْهِمْ يُنْجِدُونَهُمْ.

أَمْضَى أَبُو بَكْرٍ لَيْلَتَهُ يَسْتَعِدُّ، وَخَرَجَ فِي آخِرِ اللَّيْلِ، وَبَعْدَ صَلاَةِ الفَجْرِ مَاشِياً، وَعَلَى مَيْمَنَتِهِ النُّعْمَانُ بنُ مُقَرِّنٍ، وَعَلَى المَيْسَرَةِ عَبْدُ اللَّهِ بنُ مُقَرِّنٍ، وَعَلَى السَّاقَةِ سُوَيْدُ بنُ مُقَرِّنٍ، فَلَمَّا أَصْبَحَ الصَّبَاحُ دَاهَمَ المُسْلِمُونَ المُنَافِقِينَ، فَلَمْ يَنْتَبِهِ المُنَافِقُونَ إِلاَّ وَالسَّيْفُ يَحْصُدُ فِيهِمْ فَوَلَّوْا الأَدْبَارَ، وَوَصَلَ المُسْلِمُونَ إِلَى ذِي القِصَّةِ، فَتَرَكَ أَبُو بَكْرٍ هُنَاكَ النُّعْمَانَ بنَ مُقَرِّنٍ مُرَابِطاً مَعَ فِرْقَةٍ مِنَ المُسْلِمِينَ، وَرَجَعَ أَبُو بَكْرٍ بِالنَّاسِ.

ارْتَفَعَتْ مَعْنَوِيَّاتُ المُسْلِمِينَ بِهَذَا النَّصْرِ، وَثَبَتَ مُسْلِمُو القَبَائِلِ عَلَى الإِسْلاَمِ، وَجَاءَتْ أَمْوَالُ الصَّدَقَاتِ مِنْ عِدَّةِ جِهَاتٍ فَازْدَادَتْ المَعْنَوِيَّاتُ ارْتِفَاعاً. وَلَمْ تَمْضِ عَشَرَةُ أَيَّامٍ حَتَّى رَجَعَ أُسَامَةُ بِجَيْشِهِ ظَافِراً غَانِماً.

اسْتَخْلَفَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى المَدِينَةِ أُسَامَةَ بنَ زَيْدٍ، وَقَالَ لَهُ

(١) ذي القصة: موضع يبعد عن المدينة ٣٥ كيلومتراً.

وَلِجُنْدِهِ: أَرِيحُوا وَأَرِيحُوا ظَهْرَكُمْ، وَخَرَجَ الخَلِيفَةُ مَعَ الَّذِينَ كَانُوا عَلَى الأَنْقَابِ إِلَى ذِي القِصَّةِ. فَقَالَ لَهُ المُسْلِمُونَ: نُنْشِدُكَ اللَّهَ يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ أَلاَّ تُعَرِّضْ نَفْسَكَ، فَإِنَّكَ إِنْ تُصَبْ لَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ نِظَامٌ، وَمُقَامُكَ أَشَدُّ عَلَى العَدُوِّ، فَابْعَثْ رَجُلاً فَإِنْ أُصِيبَ أَمَّرْتَ آخَرَ. وَجَاءَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ بِزِمَامِ رَاحِلَتِهِ، وَقَالَ لَهُ: أَقُولُ لَكَ مَا قَالَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَوْمَ أُحُدٍ: «شُمَّ سَيْفَكَ، وَلاَ تُفْجِعْنَا بِنَفْسِكَ»، وَارْجِعْ إِلَى المَدِينَةِ، فَواللَّهِ لَئِنْ أُصِبْنَا بِكَ لاَ يَكُونُ لِلإِسْلاَمِ بَعْدَكَ نِظَامٌ أَبَداً. فَقَالَ: لاَ واللَّهِ لاَ أَفْعَلُ، وَلأُوَاسِيَنَّكُمْ بِنَفْسِي.

خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى (ذِي حَسِيْ) وَ (ذِي القِصَّةِ) وَالنُّعْمَانُ بنُ مُقَرِّنٍ وَأَخَوَاهُ كَمَا كَانُوا فِي التَّشْكِيلِ السَّابِقِ. ثُمَّ نَزَلَ أَبُو بَكْرٍ بِمَنْ مَعَهُ عَلَى الرَّبَذَةِ بِالأَبْرُقِ وَقَاتَلَ المُنَافِقِينَ وَغَلَبَهُمْ، فَوَلَّوْا الأَدْبَارَ، وَرَجَعَ أَبُو بَكْرٍ بِمَنْ مَعَهُ إِلَى المَدِينَةِ بَعْدَ النَّصْرِ الثَّانِي.

جَاءَتْ صَدَقَاتٌ كَثِيرَةٌ إِلَى المُسْلِمِينَ، وَأَخَذَ جُنْدُ أُسَامَةَ قِسْطاً مِنَ الرَّاحَةِ، فَعَقَدَ أَبُو بَكْرٍ أَحَدَ عَشَرَ لِوَاءً لِقِتَالِ المُرْتَدِّينَ فِي أَنْحَاءِ الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ كُلِّهَا. وَالأَلْوِيَةُ بِيَدِ:

١ ـ خَالِدِ بنِ الوَلِيدِ: وَأَرْسَلَهُ إِلَى طُلَيْحَةَ بنِ خُوَيْلِدِ الأَسَدِيِّ، فَإِذَا فَرَغَ مِنْهُ سَارَ إِلَى مَالِكِ بنِ نُوَيْرَةَ اليَرْبُوعِيِّ التَّمِيمِيِّ بِالبُطَاحِ.

٢ ـ عِكْرِمَةَ بنِ أَبِي جَهْلٍ: وَبَعَثَهُ إِلَى مُسَيْلَمَةَ الكَـذَّابِ الحَنَفِيِّ بِأَرْضِ اليَمَامَةِ.

٣ ـ شُرَحْبِيلَ بنِ حَسْنَةَ: وَأَرْسَلَهُ دَعْماً إِلَى عِكْرِمَةَ بنِ أَبِي جَهْلٍ فِي اليَمَامَةِ.

٤ ـ المُهَاجِرِ بنِ أَبِي أُمَيَّةَ: وَبَعَثَهُ لِقِتَالِ الأَسْوَدِ العَنَسِيِّ فِي اليَمَنِ، فَإِذَا فَرَغَ مِنْهُ سَارَ إِلَى حَضْـرَمَـوتَ.

٥ ـ عَمْرِو بنِ العَاصِ: وَسَيَّرَهُ إِلَى قَبِيلَةِ قُضَاعَةَ بِالشَّمَالِ.

٦ ـ خَالِدِ بنِ سَعِيدِ بنِ العَاصِ: وَبَعَثَهُ إِلَى مَشَارِفِ الشَّامِ.

٧ ـ حُذَيْفَةَ بنِ مُحَصِّنٍ: وَأَمَرَهُ بِالحَرَكَةِ إِلَى أَهْلِ دَبَا.

٨ ـ عرْفَجَةَ بنِ هَرْثَمَةَ: وَسَيَّرَهُ إِلَى مَهَرَةَ جَنُوبِي حَضْرَمَوتَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَلْتَقِيَ مَعَ حُذَيْفَةَ.

٩ ـ طُرَيْفَةَ بنِ حَاجِزٍ: وَوَجَّهَهُ إِلَى بَنِي سُلَيْمٍ، وَمَنْ مَعَهُمْ مِنْ هَوَازِنَ.

١٠ ـ سُوَيْدِ بنِ مُقَرِّنٍ: وَبَعَثَهُ إِلَى تِهَامَةِ اليَمَنِ.

١١ ـ العَلَاءِ بنِ الحَضْرَمِيِّ: وَوَجَّهَهُ إِلَى بِلَادِ البَحْرَيْنِ.

وَقَدِ انْتَصَرَتِ هَذِهِ الجُيُوشُ كُلُّهَا، وَقَضَتْ عَلَى المُنَافِقِينَ

وَالمُرْتَدِّينَ، وَقَطَعَتْ دَابِرَ الفِتَنِ فِي بِلَادِ العَرَبِ كُلِّهَا.

وَبَعْدَ أَنْ قَاتَلَ أَبُو بَكْرٍ عَبْساً وَذُبْيَانَ بِالأَبْرُقِ مِنْ أَرْضِ الرَّبَذَةِ، وَهَزَمَهُمْ اتَّجَهَ قِسْمٌ مِنْهُمْ إِلَى (البُزَاخَةَ) وَهِيَ لِبَنِي أَسَدٍ، وَهُنَاكَ مَعْقِلُ طُلَيْحَةَ بنِ خُوَيْلِدٍ الأَسَدِيِّ. فَلَمَّا عَقَدَ أَبُو بَكْرٍ الأَلْوِيَةَ طَلَبَ مِنْ خَالِدِ بنِ الوَلِيدِ أَنْ يَسِيرَ إِلَى أَرْضِ طَيْءٍ، لِتَنْخَذِلَ طَيْءٌ وَعَبْسٌ وَذُبْيَانُ عَنْ بَنِي أَسَدٍ، وَأَظْهَرَ أَبُو بَكْرٍ أَنَّهُ سَيَتَّجِهُ إِلَى خَيْبَرَ، وَمِنْ هُنَاكَ سَيَرْفِدُ خَالِداً فِي بِلَادِ طَيْءٍ.

سَارَ خَالِدٌ إِلَى بِلَادِ طَيْءٍ، وَلٰكِنَّ عَدِيَّ بنَ حَاتِمٍ قَدْ طَلَبَ مِنْ خَالِدٍ أَنْ يُمْهِلَهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لِيَكْسِبَ إِلَيْهِ قَوْمَهُ فَفَعَلَ، وَانْتَهَى أَمْرُ طَيْءٍ، وَنَزَلَ خَالِدٌ إِلَى (البُزَاخَةَ)، وَانْتَصَرَ عَلَى المُرْتَدِّينَ، وَعَادَتْ إِلَى الإِسْلَامِ غَطَفَانُ، وَبَنُو أَسَدٍ، وَبَنُو عَامِرٍ.

اتَّجَهَ خَالِدٌ بَعْدَ البُزَاخَةِ إِلَى بَنِي يَرْبُوعَ مِنْ تَمِيمٍ فِي البُطَاحِ فَانْتَصَرَ عَلَيْهِمْ وَقَتَلَ مَالِكَ بنَ نُوَيْرَةَ، وَتَزَوَّجَ خَالِدٌ امْرَأَتَهُ أُمَّ تَمِيمٍ بِنْتَ المِنْهَالِ، بَعْدَ انْقِضَاءِ عِدَّتِهَا، وَإِنْ كَانَ قَدْ حَمَلَهَا مَعَهُ، خَوْفاً مِنِ التِفَافِ بَنِي يَرْبُوعٍ حَوْلَهَا لِإِمْكَانَاتِهَا وَمَكَانَتِهَا وَجَمَالِهَا، كَعَادَةِ بَنِي تَمِيمٍ، وَجَرَى كَلَامٌ حَوْلَ هٰذَا[1]، فَرَجَعَ

---

(١) يتتبع الذين يظهرون الإسلام، ويعملون على الهدم من الداخل يتتبعون أحداث التاريخ فإن وجدوا ثغرةً ولجوا فيها، وأشاعوا =

خَالِدٌ إِلَى المَدِينَةِ، وَالْتَقَى بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَحَدَّثَهُمَا بِمَا وَقَعَ

= الشائعات، واختلقوا الافتراءات، ووضعوا القصص، ونظموا الشعر في تلك الحادثة لتثبت في أذهان الناس حسبما يريدون.

ظنّ المفترون أنّ في زواج خالدٍ من أمّ تميم بنت المنهال ثغرةً فادّعوا أن خالداً قتل زوجها مالكاً ليتزوجها بعده، وما إن قُتل مالك حتى نزى خالد على أمّ تميم كما ينزو الفحل. وادّعوا أن بني تميم لم يكونوا من المرتدين، ولم يكن قتل مالكٍ شرعياً بل رغبةً في تحقيق شهوةٍ. واعتمدوا على قول أبي قتادة، رضي الله عنه، أنه سمع الأذان من بني تميم، ورآهم يصلّون، وقد نقل هذا الكلام إلى أبي بكرٍ، وهذا ما جعل الخليفة يستدعي خالداً إلى المدينة، ويحقّق معه، ويرضى عنه. حيث أن بني تميم كان قد ارتد قسم منهم، ومنهم مالك بن نويرة إذ وافق سجاح على دعواها النبوة، وتبيّن هذا لخالد عندما سأل مالكاً عن الزكاة، حيث أجابه هكذا زعم صاحبكم، ويقصد رسول الله، صلّى الله عليه وسلم، وهذا ما أدّى إلى قتله، كما أن قسماً آخر من بني تميم قد امتنع عن دفع الزكاة، كما ثبت قسم ثالث على الإسلام، وأرسل زكاته إلى المدينة، وهذا القسم هو الذي رآه أبو قتادة فشهادته صحيحة عمن رأى، وفي الوقت نفسه فهو لم يشهد أنه رأى مالكاً يصلّي. كما شهد آخرون من الصّحابة أنهم لم يسمعوا أذاناً في بني تميم، ولم يروا صلاةً. لكن المغرضين يفترون على الله الكذب، ويشوّهون الحقائق. وليس الهدف من افتراءاتهم الطعن بخالد فحسب وإنما بأبي بكرٍ وعمر، لسكوتهم عن فعله، ورضاهم عن عمله، وأبو بكر هو ولي الأمر، وربما كان أبو بكر هو الهدف والقصد الأول من هذه الافتراءات، وتلك الشائعات، وتشويه الحقائق.

فَقَبِلاَ مِنْهُ، وَلَمْ يَجِدَا عَلَيْهِ شَيْئاً، وَأَرْسَلَهُ أَبُو بَكْرٍ إِلَى مُسَيْلَمَةَ الكَذَّابِ.

رَجَعَ خَالِدٌ إِلَى البُطَاحِ، وَالْتَقَى بِجُنْدِهِ، وَانْتَظَرَ حَتَّى جَاءَهُ المَدَدُ، فَسَارَ إِلَى مُسَيْلَمَةَ، وَعَلَى مَيْمَنَتِهِ زَيْدُ بنُ الخَطَّابِ، أَخُو عُمَرَ، وَعَلَى مَيْسَرَتِهِ أَبُو حُذَيْفَةَ بنُ عُتْبَةَ، وَرَايَةُ المُهَاجِرِينَ مَعَ سَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، وَرَايَةُ الأَنْصَارِ مَعَ ثَابِتِ بنِ قَيْسِ بنِ شَمَّاسٍ. وَنَصَرَ اللَّهُ المُسْلِمِينَ، وَهَزَمَ عَدُوَّ اللَّهِ مُسَيْلَمَةَ الكَذَّابَ الَّذِي قُتِلَ فِي حَدِيقَةِ المَوْتِ، وَانْتَهَى أَمْرُ بَنِي حَنِيفَةَ.

٣ ـ الفتوحـــات:

كَانَ الفُرْسُ يَقِفُونَ فِي وَجْهِ الدَّعْوَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ، وَيَدْعُمُونَ كُلَّ مَنْ يَتَصَدَّى لَهَا أَوْ يُعَارِضُهَا، فَكَانَ لاَ بُدَّ مِنْ قِتَالِهِمْ، وَكَانَ لاَ بُدَّ مِنَ العَمَلِ عَلَى الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِنَشْرِ الإِسْلاَمِ، وَتَوْسِعَةِ سَاحَةِ الدَّعْوَةِ.

طَلَبَ المُثَنَّى بنُ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِيُّ مِنْ أَبِي بَكْرٍ بَعْدَ أَنِ انْتَهَى مِنْ حُرُوبِ المُرْتَدِّينَ إِعْطَاءَهُ إِمْرَةَ قَوْمِهِ وَمَنْ دَانَ بِالإِسْلاَمِ فِي تِلْكَ الجِهَاتِ لِجِهَادِ الفُرْسِ وَقِتَالِ أَعْدَاءِ اللَّهِ. فَأَمَّرَهُ أَبُو بَكْرٍ، فَغَدَا المُثَنَّى بنُ حَارِثَةَ يُغِيرُ عَلَى الفُرْسِ، وَيَنْتَصِرُ فِي مَوْقِعَةٍ بَعْدَ أُخْرَى، وَاتَّسَعَ المَيْدَانُ عَلَيْهِ فَطَلَبَ النَّجْدَةَ مِنَ الخَلِيفَةِ.

وَانْتَهَى خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ مِن حَرْبِ اليَمَامَةِ فَجَاءَهُ الأَمْرُ مِنْ أَبِي بَكْرٍ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى العِرَاقِ لِدَعْمِ المُثَنَّى بنِ حَارِثَةَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَدْخُلَ العِرَاقَ مِنَ الجَنُوبِ، وَفِي الوَقْتِ نَفْسِهِ أَمَرَ الخَلِيفَةُ عِيَاضَ بنَ غَنَمٍ أَنْ يَدْخُلَ العِرَاقَ مِنْ أَعْلَى مِنْ جِهَةِ الغَرْبِ، وَلْيَكُنْ لِقَاؤُهُمَا فِي الحِيرَةِ، وَمَنْ سَبَقَ إِلَيْهَا كَانَتْ لَهُ الإِمْرَةُ، وَأَمَدَّ أَبُو بَكْرٍ كِلاَ القَائِدَيْنِ بِنَجْدَةٍ.

وَصَلَ خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ إِلَى الحِيرَةِ، وَعَلَيْهَا مِنْ قِبَلِ الفُرْسِ هَانِىءُ بنُ قُبَيْصَةَ الطَّائِيُّ، فَقَالَ لَهُ خَالِدُ: إِنِّي أَدْعُوكُمْ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى عِبَادَتِهِ، وَإِلَى الإِسْلاَمِ، فَإِنْ قَبِلْتُمْ فَلَكُمْ مَا لَنَا وَعَلَيْكُمْ مَا عَلَيْنَا، وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَالجِزْيَةُ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِقَوْمٍ يُحِبُّونَ المَوْتَ كَمَا تُحِبُّونَ أَنْتُمْ شُرْبَ الخَمْرِ. فَقَالَ هَانِىءُ: لاَ حَاجَةَ لَنَا فِي حَرْبِكُمْ، فَصَالَحَهُ عَلَى تِسْعِينَ وِمَائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ.

كَانَ المُثَنَّى بنُ حَارِثَةَ يُقَاتِلُ الهَرْمُزَانَ فِي جِهَاتِ الأُبُلَّةِ، فَدَعَاهُ خَالِدُ مَعَ بَقِيَّةِ القَادَةِ لِلْعَمَلِ عَلَى تَجْمِيعِ المُسْلِمِينَ، وَضَرَبَ لَهُمْ مَوْعِداً فِي الحَفِيرِ. وَقَدِ الْتَقَى المُسْلِمُونَ مَعَ الفُرْسِ فِي جِهَاتِ الأُبُلَّةِ، وَأَرَادَ قَائِدُ الفُرْسِ هُرْمُزُ أَنْ يَغْدِرَ بِخَالِدِ بنِ الوَلِيدِ، غَيْرَ أَنَّ القَعْقَاعَ بنَ عَمْرٍو التَّمِيمِيَّ عَاجَلَ هُرْمُزَ وَقَتَلَهُ، وَجَرَتْ مَعْرَكَةُ ذَاتِ السَّلاَسِلِ بَيْنَ الفَرِيقَيْنِ انْتَصَرَ فِيهَا المُسْلِمُونَ.

وَانْتَصَرَ المُسْلِمُونَ بِقِيَادَةِ خَالِدٍ عَلَى الفُرْسِ فِي مَعَارِكِ (المَذَارِ) و (الوَلْجَةَ) و(أُلَيِّس)، وَفَتَحُوا جَنُوبِيَّ العِرَاقِ، وَسَارُوا مَعَ نَهْرِ الفُرَاتِ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى (الرِّضَابِ) عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنَ (الرَّصَافَةِ) فِي الشَّامِ.

وَجَاءَ أَمْرُ الخَلِيفَةِ أَبِي بَكْرٍ إِلَى خَالِدٍ بِمُغَادَرَةِ العِرَاقِ وَالتَّوَجُّهِ إِلَى الشَّامِ، وَدَعْمِ الجُيُوشِ الإِسْلَامِيَّةِ هُنَاكَ، وَتَسَلُّمِ قِيَادَتِهَا. وَانْتَقَلَ خَالِدٌ إِلَى الشَّامِ بِسُرْعَتِهِ المَعْرُوفَةِ، وَوَصَلَ إِلَى اليَرْمُوكِ قَبْلَ بَدْءِ المَعْرَكَةِ.

إِنَّ الأَوَامِرَ الَّتِي أَعْطَاهَا الصِّدِّيقُ لِجُنْدِهِ بِالانْسِيَاحِ نَحْوَ الشَّرْقِ وَنَشْرِ الإِسْلَامِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، وَقِتَالِ الفُرْسِ المَجُوسِ الَّذِينَ وَضَعُوا أَنْفُسَهُمْ وَإِمْكَانَاتِهِمْ كُلَّهَا ضِدَّ الإِسْلَامِ، هَذِهِ الأَوَامِرُ، وَتِلْكَ الانْتِصَارَاتُ الَّتِي أَحْرَزَهَا المُسْلِمُونَ هِيَ الَّتِي جَعَلَتِ الصِّدِّيقَ هَدَفاً لِسِهَامِ أُولَئِكَ المُتَعَصِّبِينَ لِلْفَارِسِيَّةِ وَالمَجُوسِيَّةِ وَإِنْ أَظْهَرُوا الإِسْلَامَ بَعْدَ أَنْ أَخْضَعَهُمُ السَّيْفُ، وَأَخَذُوا يَفْتَرُونَ الأَكَاذِيبَ ضِدَّ الصِّدِّيقِ، تَحْتَ عِنْوَانِ الإِسْلَامِ، لِيَكُونَ الكَلَامُ أَقْرَبَ إِلَى القَبُولِ، وَلِيَكُونَ السِّلَاحُ أَكْثَرَ مَضَاءً. هَذَا مَعَ العِلْمِ أَنَّ الشُّعُوبَ المُسْلِمَةَ عَادَةً تَحْتَرِمُ القَادَةَ المُسْلِمِينَ الَّذِينَ فَتَحُوا بِلَادَهَا حَيْثُ وَصَلُوا إِلَيْهَا الإِسْلَامَ وَحَمَلُوهَا عَلَى

طَرِيقِ الهِدَايَةِ وَالرَّشَادِ، وَأَنْقَذُوهَا مِنَ الضَّلاَلَةِ وَالغِوَايَةِ، وَتَنْظُرُ نَظْرَةَ تَقْدِيرٍ وَإِكْبَارٍ إِلَى الخُلَفَاءِ الَّذِينَ بَعَثُوا بِأُولَئِكَ القَادَةِ لِلْفَتْحِ، حَيْثُ كَانُوا هُمُ الوَسِيلَةَ لِلدُّخُولِ فِي الإِسْلاَمِ وَإِخْرَاجِهِمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ الَّتِي كَانُوا فِيهَا قَبْلَ الإِسْلاَمِ.

وَكَمَا وَقَفَ الفُرْسُ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِمْ ضِدَّ الإِسْلاَمِ، وَقَفَ الرُّومُ كَذَلِكَ، وَكَمَا أَرْسَلَ الصِّدِّيقُ الجُيُوشَ إِلَى الفُرْسَ سَيَّرَهَا كَذَلِكَ إِلَى الرُّومِ. أَمَرَ الصِّدِّيقُ خَالِدَ بنَ سَعِيدٍ بَعْدَ عَوْدَتِهِ مِنَ اليَمَنِ أَنْ يَنْزِلَ بِـ (تَيْمَاءَ) وَلاَ يُغَادِرُهَا، وَيَدْعُو مَنْ حَوْلَهُ مِنَ المُسْلِمِينَ لِلاِنْضِمَامِ إِلَيْهِ، وَلاَ يَقْبَلُ إِلاَّ مَنْ ثَبَتَ عَلَى الإِسْلاَمِ، وَلَمْ تَكُنْ مِنْهُ رِدَّةٌ. فَاجْتَمَعَ لَدَى خَالِدِ بنِ سَعِيدٍ عَدَدٌ كَبِيرٌ، وَبَلَغَ ذَلِكَ الرُّومَ فَاسْتَنْفَرُوا العَرَبَ المُتَنَصِّرَةَ فِي الشَّامِ، وَحَشَدُوا الحُشُودَ، فَكَتَبَ خَالِدُ بنُ سَعِيدٍ إِلَى الخَلِيفَةِ يُعْلِمُهُ بِالأَمْرِ، فَأَجَابَهُ: أَقْدِمْ وَلاَ تُحْجِمْ، وَاسْتَنْصِرِ اللَّهَ. فَسَارَ إِلَيْهِمْ خَالِدٌ، فَتَفَرَّقُوا فَأَقَامَ فِي مَوَاقِعِهِمْ، وَكَتَبَ إِلَى الصِّدِّيقِ، وَطَلَبَ مِنْهُ المَدَدَ، فَأَنْجَدَهُ بِالوَلِيدِ بنِ عُقْبَةَ، وَعِكْرِمَةَ بنِ أَبِي جَهْلٍ، فَانْتَصَرَ خَالِدُ بنُ سَعِيدٍ عَلَى (مَاهَانَ) فِي مَعْرَكَةٍ قُرْبَ القُدْسِ، فَفَرَّ مَاهَانُ إِلَى دِمَشْقَ، فَلَحِقَهُ خَالِدٌ، فَلَمَّا كَانَ فِي (مَرْجِ الصُّفَّرِ) جَاءَتْهُ جُمُوعٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الرُّومِ بِقِيَادَةِ مَاهَانَ فَتَرَاجَعَ خَالِدُ إِلَى ذِي

المَرْوَةِ فِي وَادِي القُرَى، فَجَاءَهُ الأَمْرُ مِنَ الصِّدِّيقِ بِالإِقَامَةِ مكَانَهُ، وَعَبَّأَ الصِّدِّيقُ الجُيُوشَ إِلَى الشَّامِ فِي مَطْلَعِ السَّنَةِ الثَّالِثَةِ عَشْرَةَ، فسَارَ:

١ - يَزِيدُ بنُ أَبِي سُفْيَانَ فِي سَبْعَةِ آلافٍ، وَوِجْهَتُهُ دِمَشْقُ، وَعَسْكَرَ فِي مَنْطِقَةِ عَمَّانَ اليَوْمَ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ تَحَرَّكَ مِنَ الأُمَرَاءِ.

٢ - عَمْرُو بنُ العَاصِ: وَوِجْهَتُهُ بَيْتُ المَقْدِسِ، وَعَسْكَرَ فِي الغَوْرِ.

٣ - شُرَحْبِيلُ بنُ حَسَنَةَ: وَوِجْهَتُهُ جَنُوبِيُّ الشَّامِ، وَعَسْكَرَ فِي شَمَالِ شَرْقِيِّ عَمَّانَ اليَوْمَ.

٤ - أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ: وَوِجْهَتُهُ حِمْصُ، وَعَسْكَرَ فِي الجَابِيَةِ.

وَبَقِيَ عِكْرِمَةُ بنُ أَبِي جَهْلٍ فِي سِتَّةِ آلافٍ رِدْءاً لِجُيُوشِ المُسْلِمِينَ.

وَكَانَ هٰذَا كُلُّهُ حَسْبَ تَعْلِيمَاتِ الخَلِيفَةِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ الَّذِي كَانَ يَعِيشُ بِقَلْبِهِ وَفِكْرِهِ مَعَ جُنْدِهِ، لِذَا أَنْزَلَهُمْ المَنَازِلَ الَّتِي تَنْسَجِمُ مَعَ شَخْصِيَّاتِهِمْ، فَأَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ أُنْزِلَ

فِي مَوْقِعٍ مُتَقَدِّمٍ، فَهُوَ القَائِدُ الَّذِي يَتَشَبَّثُ بِالمَكَانِ، وَيَثْبُتُ فِي مَوْضِعِهِ كَالجَبَلِ الرَّاسِخِ، وَعَمْرُو بنُ العَاصِ أُنْزِلَ فِي الغَوْرِ شِبْهِ المُغْلَقِ، وَهُوَ القَائِدُ الَّذِي يَعْرِفُ وَيُحْسِنُ الخُرُوجَ كَمَا يُحْسِنُ الدُّخُولَ وَلَوْ مِنْ أَصْعَبِ المَوَاقِعِ، وَيَزِيدُ بنُ أَبِي سُفْيَانِ، وَشُرَحْبِيلُ بنُ حَسَنَةَ أُنْزِلاَ عَلَى هَامِشِ الصَّحْرَاءِ حَيْثُ يُجِيدَانِ الكَرَّ وَالفَرَّ.

وَكَانَتْ مَنَازِلُ هَؤُلاَءِ القَادَةِ عَلَى دَرَجَةٍ عَالِيَةٍ مِنَ التَّخْطِيطِ وَدِرَاسَةِ الأَرْضِ، فَلَوْ جَاءَ الرُّومُ مِنْ أَيِّ طَرِيقٍ لِلْقِتَالِ لَوَجَدُوا أَنْفُسَهُمْ مُحَاصَرِينَ مِنْ قِبَلِ المُسْلِمِينَ. وَهَذَا نَتِيجَةُ سَهَرِ الخَلِيفَةِ عَلَى مَصْلَحَةِ جُنْدِهِ، وَتَقْدِيرِهِ لِلْمَسْؤُولِيَّةِ، وَالسُّؤَالِ المُسْتَمِرِّ عَنِ المَوَاقِعِ، إِضَافَةً إِلَى خِبْرَتِهِ، وَنَتِيجَةُ مُصَاحَبَةِ المُجَاهِدِينَ بِقَلْبِهِ وَفِكْرِهِ. وَلَوْ دَرَسَ الإِنْسَانُ تِلْكَ المَوَاقِعَ لَظَنَّ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ يَعْرِفُ أَرْضَ المِنْطَقَةِ بِشَكْلٍ دَقِيقٍ، وَكَأَنَّهُ كَانَ أَمَامَهُ مُصَوَّرٌ لأَشْكَالِ الأَرْضِ بِمِقْيَاسٍ كَبِيرٍ.

عَلِمَ الرُّومُ بِمَا عَبَّأَهُ المُسْلِمُونَ، فَانْتَقَلَ هِرَقْلُ إِلَى حِمْصَ لِيَكُونَ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْ سَاحَةِ العَمَلِيَّاتِ، وَلإِمْكَانِيَّةِ إِعْطَاءِ الأَوَامِرِ اللاَّزِمَةِ فِي الوَقْتِ المُنَاسِبِ، وَجَمَعَ جُمُوعاً غَفِيرَةً وَصَلَ عَدَدُها إِلَى مِائَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ أَلْفاً، عَلَى حِينَ لَمْ يَزِدْ عَدَدُ المُسْلِمِينَ عَلَى

وَاحِدٍ وَعِشْرِينَ أَلْفاً مَعَ سِتَّةِ آلاَفٍ فِي المُؤَخِّرَةِ دَعْماً لِجُمُوعِ المُسْلِمِينَ.

لَمَّا رَأَى قَادَةُ المُسْلِمِينَ أَعْدَادَ الرُّومِ كَتَبُوا إِلَى عَمْرِو بنِ العَاصِ يَسْتَشِيرُونَهُ فَأَشَارَ عَلَيْهِمُ الاجْتِمَاعَ فِي مَكَانٍ يَخْتَارُونَهُ لِمُنَازَلَةِ الرُّومِ فِيهِ، وَلَنْ يُهْزَمُوا منْ قِلَّةٍ حِينَذَاكَ، كَمَا كَتَبُوا إِلَى الخَلِيفَةِ أَبِي بَكْرٍ يَسْتَشِيرُونَهُ، وَيَطْلُبُونَ مِنْهُ المَدَدَ، فَكَانَ رَأْيُهُ الاجْتِمَاعَ، كَمَا رَأَى عَمْرُو بنُ العَاصِ، وَأَضَافَ أَنْ يَكُونَ مَكَانُ المَعْرَكَةِ فِي مَوْقِعٍ يَسْهُلُ الاتِّصَالُ فِيهِ مَعَ المَدِينَةِ قَاعِدَةِ الحُكْمِ، وَوَافَقَ عَلَى الاجْتِمَاعِ فِي مَنْطِقَةِ اليَرْمُوكِ، وَكَتَبَ إِلَى خَالِدِ بنِ الوَلِيدِ بِالْعِرَاقِ أَنْ يَقْدُمَ إِلَى اليَرْمُوكِ لِدَعْمِ المُسْلِمِينَ هُنَاكَ، وَأَنْ يَكُونَ هُوَ الأَمِيرُ.

وَصَلَ خَالِدٌ فِي الوَقْتِ المُنَاسِبِ، فِي اليَوْمِ الأَوَّل، وَرَأَى الرُّومَ مُجْتَمِعِينَ، فَجَمَعَ المُسْلِمِينَ، وَأَلْقَى فِيهِمْ خُطْبَةً، وَقَسَّمَهُمْ إِلَى كَرَادِيسَ، يَضُمُّ الكُرْدُوسُ مَا يَقْرُبُ مِنْ أَلْفِ مُقَاتِلٍ، وَمَا نَشَبَ القِتَالُ إِلاَّ وَجَاءَ البَرِيدُ بِوَفَاةِ الخَلِيفَةِ الصِّدِّيقِ.

جَمْعُ المُصْحَفِ:

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا جَاءَهُ الوَحْيُ

بِشَيْءٍ مِنَ القُرْآنِ دَعَا بَعْضَ كَتَبَةِ الوَحْيِ، وَقَالَ لَهُ: «ضَعْ هَذَا فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا»، وَيُحَدِّدُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المَوْضِعَ الَّذِي تُوضَعُ فِيهِ، وَانْتَقَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ يَكُنْ القُرْآنُ مَجْمُوعاً عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَ الكَتَبَةِ أَوْ عِنْدَ أَحَدِ الصَّحَابَةِ، بَلْ كَانَ عِنْدَ عَدَدٍ مِنْهُمْ، وَمَحْفُوظاً فِي صُدُورِ عَدَدٍ مِنَ القُرَّاءِ، وَلَكِنْ كَانَ مَكْتُوباً كُلُّهُ وَمُرَتَّباً فِي مَوَاضِعِهِ.

فَلَمَّا كَانَتْ مَعْرَكَةُ اليَمَامَةِ، وَاسْتَحَرَّ القَتْلُ بِالقُرَّاءِ تَنَبَّهَ المُسْلِمُونَ إِلَى ضَرُورَةِ جَمْعِ القُرْآنِ، وَيُرْوَى أَنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سَأَلَ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، فَقِيلَ لَهُ: كَانَتْ مَعَ فُلانٍ فَقُتِلَ يَوْمَ اليَمَامَةِ، فَقَالَ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. وَأَشَارَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ بِجَمْعِ القُرْآنِ، فَأَجَابَهُ أَبُو بَكْرٍ لِمَا اقْتَرَحَ، وَاخْتَارَ زَيْدَ بنَ ثَابِتٍ لِيَقُومَ بِعَمَلِيَّةِ الجَمْعِ. وَفِي ذَلِكَ يَرْوِي زَيْدٌ فَيَقُولُ: أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ إِثْرَ مَقْتَلِ أَهْلِ اليَمَامَةِ، فَإِذَا عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ عِنْدَهُ.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ عُمَرَ أَتَانِي فَقَالَ: إِنَّ القَتْلَ قَدِ اسْتَحَرَّ يَوْمَ اليَمَامَةِ بِقُرَّاءِ القُرْآنِ، وَإِنِّي أَخْشَى إِنِ اسْتَحَرَّ القَتْلُ بِالقُرَّاءِ بِالْمَوَاطِنِ فَيَذْهَبُ كَثِيرٌ مِنَ القُرْآنِ، وَإِنِّي

أَرَى أَنْ تَأْمُرَ بِجَمْعِ القُرْآنِ. قُلْتُ لِعُمَرَ: كَيْفَ تَفْعَلُ شَيْئاً لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ عُمَرُ: هَذَا وَاللَّهِ خَيْرٌ. فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُنِي حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي لِذَلِكَ، وَرَأَيْتُ فِي ذَلِكَ الَّذِي رَأَى عُمَرُ.

قَالَ زَيْدٌ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ لاَ نَتَّهِمُكَ، وَقَدْ كُنْتَ تَكْتُبُ الوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَتَتَبَّعِ القُرْآنَ فَاْجْمَعْهُ. فَواللَّهِ لَوْ كَلَّفُونِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ جَمْعِ القُرْآنِ.

قُلْتُ: كَيْفَ تَفْعَلُونَ شَيْئاً لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

قَالَ: هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ، فَلَمْ يَزَلْ أَبُو بَكْرٍ يُرَاجِعُنِي حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ لَهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَتَتَبَّعْتُ القُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ العُسْبِ، وَاللِّخَافِ[1]، وَصُدُورِ الرِّجَالِ، حَتَّى وَجَدْتُ آخِرَ سُورَةِ التَّوْبَةِ مَعَ أَبِي خُزَيْمَةَ الأَنْصَارِيِّ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴿١٢٨﴾ . . .﴾ حَتَّى آخِرِ السُّورَةِ، فَكَانَتِ الصُّحُفُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ.

---

(١) اللخاف: الحجارة البيض الرقاق.

وَاخْتِيرَ زَيْدٌ لأَنَّهُ كَانَ أَحَدَ الأَرْبَعَةِ الَّذِينَ حَفِظُوا القُرْآنَ فِي صُدُورِهِمْ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ، عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، وَهُمْ: أُبَيُّ بنُ كَعْبٍ، وَمُعَاذُ بنُ جَبَلٍ، وَزَيْدُ بنُ ثَابِتٍ، وَأَبُو زَيْدٍ.

وَكَانَتِ الطَّرِيقَةُ الَّتِي اتَّبَعَهَا زَيْدٌ فِي جَمْعِ القُرْآنِ أَنَّهُ لاَ يُثْبِتُ شَيْئاً إلاَّ إذَا كَانَ مَكْتُوباً بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَحْفُوظاً مِنَ الصَّحَابَةِ. فَكَانَ لاَ يَكْتَفِي بالحِفْظِ دُونَ الكِتَابَةِ خَوْفاً مِنْ أَنْ يَكُونَ خَطَأٌ أَوْ وَهْمٌ فِي الحِفْظِ. وَلاَ يَقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ شَيْئاً إلاَّ إذَا أَتَى مَعَهُ شَاهِدَانِ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ مَكْتُوباً بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّهُ مِنَ الوُجُوهِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا القُرْآنُ. هَذَا رَغْمَ حِفْظِ زَيْدٍ لِكِتَابِ اللَّهِ كُلِّهِ، وَكَانَ لاَ يُثْبِتُ مَا حَفِظَهُ هُوَ فَقَطْ حَتَّى يَتَأَكَّدَ مِنْهُ وَمِنْ إِثْبَاتِهِ بِمَا هُوَ مَكْتُوبٌ.

وَيُذْكَرُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ لعُمَرَ وَزَيْدٍ: اقْعُدُوا عَلَى بَابِ المَسْجِدِ، فَمَنْ جَاءَكُمَا بِشَاهِدَيْنِ عَلَى شَيْءٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَاكْتُبَاهُ.

وَلَمَّا أَكْمَلَ زَيْدٌ مَا أُمِرَ بِهِ، وَانْتَظَمَ المُصْحَفُ كُلُّهُ فِي الصُّحُفِ وَالأَوْرَاقِ، سَلَّمَهُ إِلَى الخَلِيفَةِ الصِّدِّيقِ، فَبَقِيَ عِنْدَهُ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ، فَانْتَقَلَ المُصْحَفُ إِلَى الخَلِيفَةِ الجَدِيدِ.

٥ ـ الشُّورَى وَالاسْتِخْلاَفُ:

لَمَّا اقْتَرَبَتْ سِنُّ الصِّدِّيقِ مِنْ سِنِّ الرَّسُولِ عِنْدَمَا تَوَفَّاهُ اللَّهُ شَعَرَ أَنَّ أَجَلَهُ قَدِ اقْتَرَبَ، وَأَنَّ مُهِمَّتَهُ قَدِ انْتَهَتْ إِذْ قَضَى عَلَى المُنَافِقِينَ وَالمُرْتَدِّينَ، وَأَذَلَّ الدَّوْلَتَيْنِ الكُبْرَيَيْنِ اللَّتَيْنِ كَانَتَا تَدْعَمَانَ كُلَّ مَنْ يَقِفُ فِي وَجْهِ الإِسْلاَمِ، كَمَا أَذَلَّ العَرَبَ المُتَنَصِّرَةَ الَّتِي وَالَتِ الفُرْسَ أَوِ الرُّومَ. وَشَعَرَ أَيْضاً أَنَّ مُشَاوَرَةَ الصَّحَابَةِ لاِسْتِخْلاَفِ رَجُلٍ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ لاَ يَزَالُ عَلَى قَيْدِ الحَيَاةِ يُجَنِّبُ المُسْلِمِينَ كَثِيراً مِنَ الصِّعَابِ، وَقَدْ أَشْفَقَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَخْتَلِفُوا فَيَزْهَدَ فِي هَذِهِ المَسْؤُولِيَّةِ أَهْلُهَا، وَيَبْتَعِدَ عَنْهَا مَنْ يَسْتَحِقُّهَا.

كَبُرَتْ شَخْصِيَّةُ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ فِي نَفْسِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَمَوَاقِفُهُ فِي الإِسْلاَمِ، وَقُوَّتُهُ بِالحَقِّ، وَهَيْبَتُهُ فِي النُّفُوسِ، وَنَظْرَةُ المُسْلِمِينَ إِلَيْهِ، وَلَكِنْ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَتَّخِذَ القَرَارَ وَحْدَهُ، وَيَسُنَّ قَاعِدَةً غَيْرَ مَقْبُولَةٍ، لِذَا يَجِبُ أَنْ يَسْتَشِيرَ.

شَعَرَ أَبُو بَكْرٍ بِالمَرَضِ، وَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الوَجَعُ، وَثَقُلَ فَجَمَعَ عَدَداً مِنَ الصَّحَابَةِ المَعْرُوفِينَ الَّذِينَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَسْتَشِيرُهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ: إِنَّهُ قَدْ نَزَلَ بِي مَا تَرَوْنَ، وَلاَ أَظُنُّنِي إِلاَّ مَيِّتاً لِمَا بِي، وَقَدْ أَطْلَقَ اللَّهُ أَيْمَانَكُمْ مِنْ بَيْعَتِي، وَحَلَّ

عَنْكُمْ عُقْدَتِي، وَرَدَّ عَلَيْكُمْ أَمْرَكُمْ، فَأَمِّرُوا عَلَيْكُمْ مَنْ أَحْبَبْتُمْ، فَإِنَّكُمْ إِنْ أَمَّرْتُمْ فِي حَيَاةٍ مِنِّي كَانَ أَجْدَرَ أَلاَّ تَخْتَلِفُوا بَعْدِي.

فَقَامُوا فِي ذَلِكَ فَلَمْ يَسْتَقِمْ لَهُمْ أَمْرٌ، وَكُلٌّ يُحَاوِلُ أَنْ يَدْفَعَ الأَمْرَ عَنْ نَفْسِهِ، وَيَطْلُبُهُ لأَخِيهِ إِذْ يَرَى فِيهِ الصَّلاَحَ وَالأَهْلِيَّةَ، لِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِ فَقَالُوا: رَأْيُنَا يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ رَأْيُكَ، قَالَ: فَأَمْهِلُونِي حَتَّى أَنْظُرَ لِلَّهِ وَلِدِينِهِ وَلِعِبَادِهِ.

دَعَا أَبُو بَكْرٍ عَبْدَ الرَّحْمٰنِ بنَ عَوْفٍ فَقَالَ لَهُ: أَخْبِرْنِي عَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ، فَقَالَ لَهُ: مَا تَسْأَلُنِي عَنْهُ أَمْراً إِلاَّ وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي. فَقَالَ لَهُ: وَإِنْ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ: هُوَ أَفْضَلُ مِنْ رَأْيِكَ فِيهِ.

ثُمَّ دَعَا عُثْمَانَ بنَ عَفَّانَ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَالَ: عِلْمِي أَنَّ سَرِيرَتَهُ خَيْرٌ مِنْ عَلاَنِيَتِهِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ فِينَا مِثْلُهُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، وَاللَّهِ لَوْ تَرَكْتُهُ مَا عَدَوْتُكَ.

ثُمَّ دَعَا أُسَيْدَ بنَ حُضَيْرٍ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَالَ أُسَيْدُ: اللَّهُمَّ أَعْلَمُهُ الخِيرَةَ بَعْدَكَ، يَرْضَى لِلرِّضَا، وَيَسْخَطُ لِلسُّخْطِ، وَالَّذِي يُسِرُّ خَيْرٌ مِنَ الَّذِي يُعْلِنُ، وَلَنْ يَلِيَ هَذَا الأَمْرَ أَحَدٌ أَقْوَى عَلَيْهِ مِنْهُ.

وَكَـذَلِـكَ اسْتَشَـارَ سَعِيـدَ بْـنَ زَيْـدٍ وَعَـدَداً مِـنَ الأَنْصَـارِ وَالمُهَاجِرِينَ، وَكُلَّهُمْ تَقْرِيباً كَانُوا بِرَأْيٍ وَاحِدٍ فِي عُمَرَ سِوَى رَجُلٍ خَافَ مِنْ شِدَّتِهِ، وَقَدْ عَاتَبَ بَعْضُهُمْ أَبَا بَكْرٍ بِاسْتِخْلاَفِهِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: لاَ وَاللَّهِ وَلاَ نِعْمَةَ عَيْنٍ، هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ، وَاللَّهِ لَوْ وَلَّيْتُكَ لَجَعَلْتَ أَنْفَكَ فِي السَّمَاءِ، وَلَرَفَعْتَ نَفْسَكَ فَوْقَ قَدْرِكَ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يَضَعُكَ، تُرِيدُ أَنْ تَرُدَّنِي عَنْ رَأْيِـي وَتَفْتِنِّي فِي دِينِي؟ فَوَاللَّهِ لَئِنْ بَلَغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ عَصَيْتَهُ أَوْ ذَكَرْتَهُ بِسُوءٍ لأَفْعَلَنَّ وَلأَفْعَلَنْ... ثُمَّ دَخَلَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ عُثْمَانُ وَعَلِيٌّ، فَقَالَ لَهُمَا مُبَاشَرَةً: لَعَلَّكُمَا تَقُولاَنِ فِي عُمَرَ مَا قَالَ فُلاَنٌ آنِفاً؟

قَالاَ: وَمَاذَا قَالَ يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ؟

قَالَ: زَعَمَ أَنَّ عُمَرَ أَحَدَثَـكُمْ إِسْلاَماً و...

فَقَالَ عُثْمَانُ: بِئْسَ لَعَمْرُ اللَّهِ مَا قَالَ فُلاَنُ، عُمَرُ بِحَيْثُ يُحَبُّ مِنْ قُوَّتِهِ مَعَ سَابِقَتِهِ.

وَقَالَ عَلِيٌّ: بِئْسَ مَا قَالَ، عُمَرُ عِنْدَ ظَنِّكَ بِهِ، وَرَأْيُكَ، إِنْ وَلَّيْتَهُ - مَعَ أَنَّهُ كَانَ وَالِياً مَعَكَ - نَحْظَى بِرَأْيِهِ وَنَأْخُذُ مِنْهُ، فَامْضِ لِمَا تُرِيدُ، وَدَعْ مُخَاطَبَةَ الرَّجُلِ فَإِنْ يَكُنْ عَلَى مَا ظَنَنْتَ إِنْ شَاءَ

اللَّهُ فَلَهُ عَمَدْتَ، وَإِنْ يَكُنْ مَا لاَ تَظُنُّ لَمْ تُرِدْ إِلاَّ الخَيْرَ.

وَدَخَلَ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بنُ عَوْفٍ عَلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ يَعُودُهُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ فَوَجَدَهُ مُقَنَّعاً، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ: أَصْبَحْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ بَارِئاً، فَقَالَ: أَبْرْءٌ ذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَم، قَالَ: أَمَّا إِنِّي عَلَى ذَلِكَ لَشَدِيدُ الوَجَعِ، وَلِمَا لَقِيتُ مِنْكُمْ أَيُّهَا المُهَاجِرُونَ أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ وَجَعِي، إِنِّي وَلَّيتَ أَمْرَكُمْ خَيْرَكُمْ فِي نَفْسِي، فَكُلُّكُم وَرِمَ أَنْفُهُ أَنْ يَكُونَ الأَمْرُ دُونَهُ، وَرَأَيْتُمُ الدُّنْيَا قَدْ أَقْبَلَتْ، وَلَمَّا تُقْبِلْ، وَهِيَ مُقْبِلَةٌ، حَتَّى تَتَّخِذُوا سُتُورَ الحَرِيرِ وَنَضَائِدَ الدِّيبَاجِ، وَحَتَّى يَأْلَمَ أَحَدُكُمْ بِالاِضْطِجَاعِ عَلَى الصُّوفِ الأَذْرَبِيِّ[١] كَمَا يَأْلَمُ أَحَدُكُمْ إِذَا نَامَ عَلَى حَسَكِ السَّعْدَانِ[٢]، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَنْ يُقَدَّمَ أَحَدُكُمْ فَتُضْرَبَ عُنُقُهُ فِي غَيْرِ حَدٍّ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَخُوضَ غَمَرَاتِ الدُّنْيَا، ثُمَّ أَنْتُمْ غداً أَوَّلُ ضَالٍّ بِالنَّاسِ يَمِيناً وَشِمَالاً، لاَ تُضَيِّعُوهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ، يَا هَادِيَ الطَّرِيقِ جُرْتْ، إِنَّمَا هُوَ الفَجْرُ أَوْ البَجْرُ. فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ: حَفِظَ اللَّهُ عَلَيْكَ، يَرْحَمُكَ اللَّهُ فَإِنَّ هَذَا يُهِيضُكَ إِلى مَا بِكَ، إِنَّمَا النَّاسُ فِي أَمْرِكَ رَجُلاَنِ: إِمَّا رَجُلٌ رَأَى مَا رَأَيْتَ فَهُوَ مَعَكَ،

(١) الأذربي: نسبةً إلى أذربيجان، وهو صوف شديد النعومة.

(٢) حسك السعدان: نبات كثير الشوك.

وَإِمَّا رَجُلٌ رَأَى مَا لَمْ تَرَ فَهُوَ يُشِيرُ عَلَيْكَ بِمَا يَعْلَمُ، وَصَاحِبُكَ كَمَا تُحِبُّ أَوْ كَمَا يُحِبُّ، وَلاَ نَعْلَمُكَ أَرَدْتَ إِلاَّ الخَيْرَ، وَلَمْ تَزَلْ صَالِحاً مُصْلِحاً مَعَ أَنَّكَ لاَ تَأْسَى عَلَى شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا.

وَدَخَلَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ عَلَى أَبِي بَكْرٍ، وَقَدْ عَلِمُوا بِاسْتِشَارَتِهِ فِي عُمَرَ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: مَا أَنْتَ قَائِلٌ لِرَبِّكَ إِذَا سَأَلَكَ عَنِ اسْتِخْلاَفِكَ عُمَرَ عَلَيْنَا، وَقَدْ تَرَى غِلْظَتَهُ، وَهُوَ إِذَا وَلِيَ كَانَ أَفَظَّ وَأَغْلَظَ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَجْلِسُونِي فَلَمَّا جَلَسَ قَالَ: أَبِاللَّهِ تُخَوِّفُونَنِي؟ خَافَ مَنْ تَزَوَّدَ مِنْ أَمْرِكُمْ بِظُلْمٍ. أَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَخْلَفْتُ عَلَى أَهْلِكَ خَيْرَ أَهْلِكَ. ثُمَّ قَالَ لِلْقَائِلِ: أَبْلِغْ عَنِّي مَا قُلْتُ لَكَ مَنْ وَرَاءَكَ.

ثُمَّ اضْطَجَعَ وَدَعَا بِعُثْمَانَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ. هَذَا مَا دَعَا بِهِ أَبُو بَكْرِ بنُ أَبِي قُحَافَةَ، فِي آخِرِ عَهْدِهِ بِالدُّنْيَا خَارِجاً مِنْهَا، وَأَوَّلِ عَهْدِهِ بِالآخِرَةِ دَاخِلاً فِيهَا، حَيْثُ يُؤْمِنُ الكَافِرُ، وَيُوقِنُ الفَاجِرُ، وَيُصَدِّقُ الكَاذِبُ، إِنِّي أَسْتَخْلِفُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي... - وَأَخَذَتْهُ غَشْيَةٌ قَبْلَ أَنْ يُسَمِّيَ أَحَداً - . فَكَتَبَ عُثْمَانُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنِّي أَسْتَخْلِفُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ. ثُمَّ أَفَاقَ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: اقْرَأْ عَلَيَّ مَا كَتَبْتَ. فَقَرَأَ عَلَيْهِ ذِكْرَ عُمَرَ. فَكَبَّرَ أَبُو بَكْرٍ، وَقَالَ: أَرَاكَ خِفْتَ

أَنْ تَذْهَبَ نَفْسِي فِي غَشْيَتِي تِلْكَ فَيَخْتَلِفُ النَّاسُ، فَجَزَاكَ اللَّهُ عَنِ الإِسْلَامِ خَيْراً، وَاللَّهِ إِنْ كُنْتَ لَهَا لأَهْلاً. ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يُتَمِّمَ، فَأَمْلَى عَلَيْهِ: فَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنِّي لَمْ آلُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَدِينَهُ وَنَفْسِي وَإِيَّاكُمْ خَيْراً. فَإِنْ عَدَلَ فَذَلِكَ ظَنِّي بِهِ، وَعِلْمِي فِيهِ، وَإِنْ بَدَّلَ فَلِكُلِّ امْرِىءٍ مَا اكْتَسَبَ، وَالخَيْرَ أَرَدْتُ، وَلاَ أَعْلَمُ الغَيْبَ، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾[1]. وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ. ثُمَّ أَمَرَهُ فَخَتَمَ الكِتَابَ، وَخَرَجَ بِهِ مَخْتُوماً، وَمَعَهُ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، وَأُسَيْدُ بنُ حُضَيْرٍ. وَأَشْرَفَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى النَّاسِ مِنْ كُوَّتِهِ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ عَهِدْتُ عَهْداً، أَفَتَرْضَوْنَهُ؟ فَقَالَ النَّاسُ: رَضِينَا يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَامَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ: لاَ نَرْضَى إِلاَّ أَنْ يَكُونَ عُمَرُ.

فَأَقَرُّوا بِذَلِكَ جَمِيعاً، وَرَضُوا، ثُمَّ بَايَعُوا، فَرَفَعَ أَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَدَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي لَمْ أُرِدْ بِذَلِكَ إِلاَّ صَلَاحَهُمْ، وَخِفْتُ عَلَيْهِمُ الفِتْنَةَ، فَعَلِمْتُ فِيهِمْ مَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ، وَاجْتَهَدْتُ لَهُمْ رَأْيِي، فَوَلَّيْتُ عَلَيْهِمْ خَيْرَهُمْ، وَأَقْوَاهُمْ عَلَيْهِ، وَأَحْرَصَهُمْ عَلَى مَا يُرْشِدُهُمْ، وَقَدْ حَضَرَنِي مِنْ أَوَّلِ مَا حَضَرَ،

---

(١) سورة الشعراء، الآية ٢٢٧.

فَٱخْلُفْنِي فِيهِمْ، فَهُمْ عِبَادُكَ، وَنَوَاصِيهِمْ بِيَدِكَ، فَأَصْلِحْ لَهُمْ أَمِيرَهُمْ، وَاجْعَلْهُ مِنْ خُلَفَائِكَ الرَّاشِدِينَ، يَتَّبِعُ هَدْيَ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، وَهَدْيَ الصَّالِحِينَ بَعْدَهُ، وَأَصْلِحْ لَهُ رَعِيَّتَهُ. ثُمَّ دَعَاهُ فأوْصَاهُ.

وَبِذَا اسْتَخْلَفَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَ مُشَاوَرَةِ مَنْ كَانَ يَسْتَشِيرُهُمْ عَادَةً رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الفصل التاسع

وَفَاةُ الصِّدِّيقِ وَوَصِيَّتُهُ

مَرِضَ أَبُو بَكْرٍ، وَلَزِمَ بَيْتَهُ، وَعُمَرُ يَتَوَلَّى أُمُورَ المُسْلِمِينَ. تَقُولُ أُمُّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لَمَّا مَرِضَ أَبُو بَكْرٍ مَرَضَهُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، قَالَ: أَمَا إِنَّنَا مُنْذُ وُلِّينَا أَمْرَ المُسْلِمِينَ لَمْ نَأْكُلْ لَهُمْ دِينَاراً وَلاَ دِرْهَماً، وَلٰكِنَّا قَدْ أَكَلْنَا مِنْ جَرِيشِ طَعَامِهِمْ فِي بُطُونِنَا، وَلَبِسْنَا مِنْ خَشِنِ ثِيَابِهِمْ عَلَى ظُهُورِنَا، فَانْظُرُوا مَا زَادَ فِي مَالِي مُنْذُ دَخَلْتُ الإِمَارَةَ، فَابْعَثُوا بِهِ إِلَى الخَلِيفَةِ مِنْ بَعْدِي وَابْرَأُوا مِنْهُ، فَإِنِّي قَدْ كُنْتُ أَسْتَحِلُّهُ وَأَسْتَصْلِحُهُ جُهْدِي.

وَسَأَلَ عَنْ يَوْمِ هٰذَا، فَقِيلَ لَهُ: الاثْنَيْنُ، قَالَ: فَأَيُّ يَومٍ قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ؟ فَقِيلَ الاثْنَيْنُ، وَسَأَلَ عَنْ كَفَنِ رَسُولِ اللَّهِ، فَقِيلَ لَهُ: ثَلاَثَةُ أَثْوَابٍ بِيضٍ سُحُولِيَّةٍ يَمَانِيَّةٍ لَيْسَ فِيهَا قَمِيصٌ وَلاَ عِمَامَةٌ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: انْظُرُوا مَلاءَتَيَّ هَاتَيْنِ، فَإِذَا مِتُّ فَاغْسِلُوهُمَا، وَكَفِّنُونِي فِيهِمَا. فَقِيلَ لَهُ: قَدْ رَزَقَ اللَّهُ وَأَحْسَنَ، نُكَفِّنُكَ فِي جَدِيدٍ، قَالَ: إِنَّ الحَيَّ هُوَ أَحْوَجُ إِلَى الجَدِيدِ لِيَصُونَ

بِهِ نَفْسَهُ عَنِ المَيِّتِ، إِنَّمَا يَصِيرُ المَيِّتُ إِلَى الصَّدِيدِ، وَإِلَى البِلَى.

وَقَالَ: إِنَّ عُمَرَ لَمْ يَدَعْنِي حَتَّى أَصَبْتُ مِنْ بَيْتِ المَالِ سِتَّةَ آلاَفِ دِرْهَمٍ، وَإِنَّ حَائِطِي الَّذِي بِمَكَانِ كَذَا وَكَذَا فِيهَا، وَهَذَا المَبْلَغُ هُوَ مَجْمُوعُ مَا أَخَذَهُ مِنْ بَيْتِ المَالِ مُدَّةَ خِلاَفَتِهِ كَرَاتِبٍ لَهُ، أَوْ كَتَعْوِيضٍ عَنْ تَرْكِهِ التِّجَارَةَ وَاشْتِغَالِهِ بِأُمُورِ المُسْلِمِينَ، وَهِيَ حَقٌّ لَهُ.

إِذَنْ كَانَتْ وَصِيَّةُ أَبِي بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مَا يَأْتِي:

١ ـ يُرَدُّ مَا عِنْدَهُ مِنْ مَالٍ إِلَى بَيْتِ مَالِ المُسْلِمِينَ عَنْ طَرِيقِ الخَلِيفَةِ الجَدِيدِ، عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ.

٢ ـ يُرَدُّ بُسْتَانٌ يَمْلِكُهُ إِلَى بَيْتِ مَالِ المُسْلِمِينَ عِوَضاً عَمَّا أَخَذَهُ مِنْ بَيْتِ المَالِ مُدَّةَ خِلاَفَتِهِ.

كَمَا أَوْصَى:

٣ ـ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِمِقْدَارِ خُمْسِ مَا يَمْلِكُ مِنْ أَرْضِ العَالِيَةِ، وَمَا يَبْقَى يُقْسَمُ بَيْنَ أَوْلاَدِهِ وَهُمْ: ١ ـ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ. ٢ ـ مُحَمَّدٌ. ٣ ـ أَسْمَاءُ. ٤ ـ عَائِشَةُ. ٥ ـ مَا تَضَعُ زَوْجُهُ حَبِيبَةُ بِنْتُ خَارِجَةَ وَيَتَوَقَّعُ أَنْ تَكُونَ أُنْثَى (وَقَدْ وَضَعَتْ أُنْثَى وَهِيَ

أُمُّ كُلْثُومٍ).

٤ ـ أَنْ يُكَفَّنَ بِثَوبَيْهِ بَعْدَ غَسْلِهِمَا.

٥ ـ أَنْ تُغَسِّلَهُ زَوْجُهُ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ.

٦ ـ أَنْ يُدْفَنَ بِجَانِبِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَلَمَّا مَاتَ أَبُو بَكْرٍ أَرْسَلَ أَهْلُهُ مَا تَرَكَ إِلَى الخَلِيفَةِ، وَإِذَا هِيَ عَبْدٌ نُوبِيٌّ كَانَ يَحْمِلُ صِبْيَانَهُ، وَنَاضِحٌ يَسْنَى عَلَيْهِ فَيَسْقِي بُسْتَاناً لَهُ، وَجُرْدُ قَطِيفَةٍ، فَلَمَّا تَسَلَّمَهَا الخَلِيفَةُ عُمَرُ سَالَتْ دُمُوعُهُ، وَقَالَ: رَحِمَ اللَّهُ أَبَا بَكْرٍ لَقَدَ أَتْعَبَ مَنْ بَعْدَهُ، وَيُرَدِّدُ هَذِهِ العِبَارَةَ.

وَأَمَرَ عُمَرُ غُلَامَهُ أَنْ يَرْفَعَ تِلْكَ التَّرِكَةَ. فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بنُ عَوْفٍ: سُبْحَانَ اللَّهِ! تَسْلُبُ عِيَالَ أَبِي بَكْرٍ عَبْداً حَبَشِيّاً، وَبَعِيراً نَاضِحاً، وَجُرْدَ قَطِيفَةٍ مَا تُسَاوِي خَمْسَةَ دَرَاهِمَ؟ قَالَ: فَمَاذَا تَأْمُرُ؟ قَالَ: تَرُدُّهُنَّ عَلَى عِيَالِهِ. قَالَ: لاَ والَّذِي بَعَثَ مُحَمَّداً بِالحَقِّ لاَ يَكُونُ هَذَا فِي وِلاَيَتِي أَبَداً. وَلَمْ يَكُنْ أَبُو بَكْرٍ لِيَخْرُجَ مِنْهُنَّ عِنْدَ المَوْتِ، وَأَرُدُّهُنَّ أَنَا عَلَى عِيَالِهِ. المَوْتُ أَقْرَبُ مِنْ ذَلِكَ.

أَمَّا البُسْتَانُ، فَقَدْ قَالَ عُمَرُ فِيهِ: يَرْحَمُ اللَّهُ أَبَا بَكْرٍ، لَقَدْ

أَحَبَّ أَنْ لاَ يَدَعَ لأَحَدٍ بَعْدَهُ مَقَالَةً، وَأَنَا وَلِيُّ الأَمْرِ مِنْ بَعْدِهِ قَدْ رَدَدْتُهَا عَلَى عِيَالِهِ، وَرَفَضَ أَنْ يَأْخُذَ البُسْتَانَ.

واسْتَمَرَّ مَرَضُ أَبِي بَكْرٍ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْماً، ثُمَّ تُوُفِّيَ يَوْمَ الاثْنَيْنِ لَيْلَةَ الثُّلاَثَاءِ فِي الثَّانِي والعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ جُمَادَى الآخِرَةِ سَنَةَ ثَلاَثَ عَشْرَةَ لِلْهِجْرَةِ، وَكَانَ عُمْرُهُ ثَلاَثاً وَسِتِّينَ سَنَةً. وَكَانَتْ مُدَّةُ خِلاَفَتِهِ سَنَتَيْنِ وَثَلاَثَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرَةَ أَيَّامٍ.

وَغَسَّلَتْهُ زَوْجُهُ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ، وَصَلَّى عَلَيْهِ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، وَدُفِنَ جَانِبَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَنَـزَلَ فِـي قَبْـرِهِ عُمَـرُ، وَعُثْمَـانُ، وَطَلْحَـةُ بـنُ عُبَيْـدِ اللَّـهِ، وَعَبْدُ الرَّحْمٰنِ بنُ أَبِي بَكْرٍ.

وَجَاءَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ يَوْمَ وَفَاةِ أَبِي بَكْرٍ، فَوَقَفَ بِالبَابِ، وَقَالَ: رَحِمَكَ اللَّهُ يَا أَبَا بَكْرٍ، كُنْتَ أَوَّلَ القَوْمِ إِسْلاماً، وَأَخْلَصَهُمْ إِيمَاناً، وَأَشَدَّهُمْ يَقِيناً، وَأَعْظَمَهُمْ غَنَاءً، وَأَحْفَظَهُمْ عَلَى رَسُولِ اللَّـهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّـمَ، وَأَحْـدَبَهُـمْ عَلَـى الإِسْلاَمِ، وَأَحْنَاهُمْ عَلَى أَهْلِهِ، وَأَشْبَهَهُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ، خَلْقاً وَخُلُقاً وَهَدْياً وَسَمْتاً، فَجَزَاكَ اللَّهُ عَنِ الإِسْلاَمِ وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ خَيْراً، صَدَّقْتَ رَسُولَ اللَّهِ، حِينَ كَذَّبَ النَّاسُ، وَوَاسَيْتَهُ حِينَ بَخِلُوا، وَقُمْتَ مَعَهُ حِينَ قَعَدُوا، وَأَسْمَاكَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ صِدِّيقاً.

﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[1]، يُرِيدُ مُحَمَّداً وَيُرِيدُكَ، وَكُنْتَ وَاللَّهِ لِلإِسْلاَمِ حِصْناً، وَعَلَى الكَافِرِينَ عَذَاباً، لَمْ تَقْلُلْ حُجَّتُكَ، وَلَمْ تَضْعُفْ بَصِيرَتُكَ، وَلَمْ تَجْبُنْ نَفْسُكَ، كُنْتَ كَالجَبَلِ الَّذِي لاَ تُحَرِّكُهُ العَوَاصِفُ، وَلاَ تُزِيلُهُ القَوَاصِفُ ـ كُنْتَ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ضَعِيفاً فِي بَدَنِكَ، قَوِيّاً فِي أَمْرِ اللَّهِ، مُتَوَاضِعاً فِي نَفْسِكَ، عَظِيماً عِنْدَ اللَّهِ، جَلِيلاً فِي الأَرْضِ، كَبِيراً عِنْدَ المُؤْمِنِينَ، وَلَمْ يَكُنْ لأَحَدٍ عِنْدَكَ مَطْمَعٌ، وَلاَ لأَحَدٍ عِنْدَكَ هَوَادَةٌ، القَوِيُّ عِنْدَكَ ضَعِيفٌ حَتَّى تَأْخُذَ الحَقَّ مِنْهُ، وَالضَّعِيفُ عِنْدَكَ قَوِيٌّ حَتَّى تَأْخُذَ الحَقَّ لَهُ، فَلاَ حَرَمَنا اللَّهُ أَجْرَكَ، وَلاَ أَضَلَّنَا بَعْدَكَ.

كَانَ أَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَرَى أَنَّ الخَلِيفَةَ إِنْ كَانَ صَاحِبَ مَالٍ، مَيْسُورَ الحَالِ فَمِنَ الأَكْمَلِ، وَالأَفْضَلِ لَهُ، وَالأَصْلَحِ لِحَالِ المُسْلِمِينَ أَنْ لاَ يَأْخُذَ شَيْئاً مِنْ بَيْتِ المَالِ. وَإِنْ كَانَ لاَ مَالَ لَهُ، ضَيِّقَ ذَاتِ اليَدِ فَلْيَأْكُلْ مِنْ بَيْتِ المَالِ بِالمَعْرُوفِ حَيْثُ تَكُونُ حَالُهُ مِثْلَ حَالِ أَوْسَطِ المُسْلِمِينَ، لاَ يُقَتِّرُ عَلَى نَفْسِهِ، وَلاَ يَبْسُطُ يَدَهُ كَمَا يَشَاءُ، وَيَأْخُذُ دُونَ حِسَابٍ. وَهَكَذَا كَانَ وَضْعُ الخُلَفَاءِ المُسْلِمِينَ عِنْدَمَا كَانُوا يَتَقَيَّدُونَ بِشَرْعِ اللَّهِ،

(١) سورة الزمر، آية ٣٣.

وَيَسِيرُونَ عَلَى هَدْيِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَكِنْ عِنْدَمَا تَفَلَّتُوا مِنَ المَنْهَجِ الإِسْلَامِيِّ أَصْبَحَ بَيْتُ المَالِ تَحْتَ تَصَرُّفِهِمْ يَنْهَبُونَ مِنْهُ نَهْباً وَيَأْخُذُونَ مِنَ المَالِ غَبّاً، فَافْتَقَرَتِ الأُمَّةُ وَذَهَبَتْ أَمْوَالُهَا هَدْراً.

وَيَرى أَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ صَاحِبُ مَالٍ، وَأَنَّهُ مِنَ الخَيْرِ لَهُ أَنْ لاَ يَأْخُذَ أَيَّ مَبْلَغٍ مِنْ بَيْتِ المَالِ، غَيْرَ أَنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَانَ يَرَى أَنْ يَأْخُذَ كَتَعْوِيضٍ لَهُ لِتَرْكِهِ التِّجَارَةَ الَّتِي كَانَ يُمَارِسُهَا قَبْلَ أَنْ يَتَوَلَّى الخِلَافَةَ، حَيْثُ تَفَرَّغَ لأُمُورِ المُسْلِمِينَ، فَأَخَذَ فِي مُدَّةِ خِلَافَتِهِ سِتَّةَ آلافِ دِرْهَمٍ، فَرَأَى أَنْ يَتَحَلَّلَ مِنْهَا وَيَرُدَّهَا إِلَى بَيْتِ المَالِ، وَقَدْ أَوْصَى بِذَلِكَ. وَإِنْ كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ غَيْرُ مُحَاسَبٍ عَلَيْهَا، وَلاَ بِالمَسْؤُولِ عَنْهَا، وَلَكِنْ مِنَ الخَيْرِ لَهُ أَنْ يُعِيدَهَا.

وَيَرَى أَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ الخَلِيفَةَ رَاعٍ لِلأُمَّةِ، وَمَسْؤُولٌ عَنْهَا، وَهُوَ كَالرَّاعِي لِلأُسْرَةِ، وَخَيْرُ الرُّعَاةِ الَّذِي يَجُوعُ لِيَأْكُلَ شَعْبُهُ، وَيَعْرَى لِتَكْتَسِيَ رَعِيَّتُهُ. وَيَأْكُلُ جَرِيشَ الطَّعَامِ لِيَتَغَذَّى أَهْلُهُ بِالأَكْلِ اللَّذِيذِ، وَيَلْبِسُ خَشِنَ الثِّيَابِ لِيَنَالَ أَفْرَادُهُ النَّاعِمَ مِنَ اللِّبَاسِ، هَذَا مَا يَفْعَلُهُ الأَبُ الحَانِي عَلَى أَطْفَالِهِ وَكَذَا يَفْعَلُهُ الخَلِيفَةُ الرَّؤُوفُ بِأُمَّتِهِ. وَعَلَى هَذَا سَارَ أَبُو بَكْرٍ مُدَّةَ

خِلاَفَتِهِ، وَكَذَا الخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ، ثُمَّ أَخَذَتْ زَاوِيَةُ الانْحِرَافِ بِالاِنْفِرَاجِ حَتَّى تَفَلَّتَ المُسْلِمُونَ مِنْ مَنْهَجِهِمْ، وَأَصْبَحَ الرَّاعِي كَأَنَّهُ قَدْ تَخَلَّى عَنِ المَسْؤُولِيَّةِ، وَتَرَكَ الأَمَانَةَ، فَغَدَا مِنَ الأَثْرِيَاءِ الَّذِينَ تُبْطِرُهُمُ النِّعْمَةُ، وَتُؤْذِيهِمُ التُّخْمَةُ، وَفِي الأُمَّةِ فُقَرَاءُ تُشْبِعُهُمُ اللُّقْمَةُ، وَتُرْضِيهِمُ الكَلِمَةُ، وَتَكْسُوهُمُ القِطْعَةُ البَالِيَةُ، وَمَا ذَلِكَ إلاَّ لِلْبُعْدِ عَنِ المَنْهَجِ الإِسْلاَمِيِّ الَّذِي فِيهِ سَعَادَةُ البَشَرِيَّةِ جَمْعَاءَ، وَلَو التَزَمَ بِهِ الرُّعَاةُ لَمَا وُجِدَ فِي الشُّعُوبِ بَائِسٌ وَلاَ فَقِيرٌ، وَلَمَا عُرِفَ فِي الأُمَّةِ عَارٍ وَلاَ مُحْتَاجٌ، إِذْ يُغْنِيهِمْ مَا فِي المِنْهَجِ مِنْ تَعَاوُنٍ وَتَكَافُلٍ، وَيُوَاسِيهِمْ إِمَامُهُمْ إِنْ حَدَثَتْ مِحْنَةٌ فَهُوَ أَحَدُهُمْ إِنْ لَمْ نَقُلْ أَكْثَرَهُمْ حَاجَةً.

الفصل العاشر

المجتمع أيام الصِّدِّيق

شَعَرَ المُسْلِمُونَ بِالأَسَى لِوَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذْ أَيْقَنُوا أَنَّ الوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ، وَأَنَّ تَوْجِيهَ المُجْتَمَعِ إِلَى مَسَارِهِ الصَّحِيحِ قَدْ تَوَقَّفَ، وَهَذَا مَا أَثَّرَ فِي نُفُوسِهِمْ مَعَ إِيمَانِهِمُ العَمِيقِ بِأَنَّ الدِّينَ قَدِ اكْتَمَلَ، وَأَنَّ المِنْهَجَ قَدْ تَمَّ ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾(١). وَكَذَلِكَ يُؤْمِنُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ أَدَّى الأَمَانَةَ، وَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ، وَنَصَحَ الأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ أَمَامَهُمْ كِتَابَ اللَّهِ، وَسُنَّةَ رَسُولِهِ، وَهُمَا مِنْهَجُهُمْ، وَفِيهِمَا رُشْدُهُمْ، «تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أَبَداً مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا كِتَابَ اللَّهِ، وَسُنَّتِي». وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَرِيصاً كُلَّ الحِرْصِ عَلَى الالْتِزَامِ بِهَدْيِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِذَا بَقِيَ المُجْتَمَعُ الإِسْلاَمِيُّ فِي عَهْدِهِ، وَعَهْدِ بَقِيَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، كَمَا كَانَ أَيَّامَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تَقْرِيباً، إِلاَّ مَا كَانَ مِنَ الوَحْيِ، وَالهَدْيِ النَّبَوِيِّ.

كَانَ المُجْتَمَعُ الإِسْلاَمِيُّ كِتْلَةً وَاحِدَةً لاَ تَمْيِيزَ فِيْهِ مِنْ أَيِّ نَاحِيَةٍ مِنَ النَّوَاحِي. فَلاَ تُوجَدُ فِيْهِ طَبَقَاتٌ بَلْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ وَارِدَاً فِي ذِهْنِ المُسْلِمِ، فَالنَّاسُ كُلُّهُمْ مُتَسَاوُونَ كَأَسْنَانِ المِشْطِ الوَاحِدِ، لاَ فَرْقَ بَيْنَ الأَجْنَاسِ أَوِ الأَلْوَانِ، أَوِ الأُسَرِ، أَوِ القَبَائِلِ أَوِ الأَقَالِيمِ. وَإِنَّ وُجُودَ بَعْضِ أَفْرَادٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ أَوْ مَنْ يَلْحَقُهُمْ مِنْ مَجُوسٍ، وَهُمُ اللَّذِينَ يُسْمَحُ لَهُمْ بِالإِقَامَةِ فِي دِيَارِ الإِسْلاَمِ فَلَمْ يُغَيِّرْ شَيْئَاً، أَمَّا المُشْرِكُونَ مِنْ مُخْتَلَفِ الوَثَنِيَّاتِ فَلاَ مَكَانَ لَهُمْ فِي المُجْتَمَعِ الإِسْلاَمِيِّ، إِذْ عَلَيْهِمُ اعْتِنَاقَ دِيَانَةِ أَحَدِ أَهْلِ الكِتَابِ أَوِ الرَّحِيلَ، أَوْ قَبُولَ السَّيْفِ، إِنَّ المُقِيمِينَ فِي دِيَارِ الإِسْلاَمِ لَهُمْ وَاجِبَاتٌ وَعَلَيْهِمْ حُقُوقٌ، وَمَا دَامُوا مُلْتَزِمِينَ بِالعَهْدِ، مُؤَدِّينَ مَا عَلَيْهِمْ فَلاَ يُمْكِنُ لأَحَدٍ أَنْ يَتَعَرَّضَ لَهُمْ حَيْثُ أَنَّ دِمَاءَهُمْ، وَأَمْوَالَهُمْ، وَأَمْلاَكَهُمْ، وَأَعْرَاضَهُمْ مُصَانَةٌ لاَ يُمْكِنُ التَّعَدِّيَ عَلَيْهَا أَبَدَاً، وَالدَّوْلَةُ مُمَثِّلَةٌ لِلأُمَّةِ مَسْؤُولَةٌ عن ذَلِكَ. وَهَذِهِ المُسَاوَاةُ مُسَاوَاةٌ حَقِيقِيَّةٌ تَنْبُعُ مِنَ العَقِيدَةِ الَّتِي مَقَرُّهَا القَلْبُ، وَيَفْرِضُهَا الشَّرْعُ، لِذَا فَهِيَ صَحِيحَةٌ، وَلَيْسَتْ مُسَاوَاةً نَظَرِيَّةً مُدَوَّنَةً عَلَى

الوَرَقِ تَنْطَلِقُ مِنَ النَّظَرِيَّاتِ الفَلْسَفِيَّةِ الَّتِي يُقْصَدُ مِنْهَا المُزَاوَدَةُ وَالمُتَاجَرَةُ لِلدِّعَايَةِ أَوْ لِكَسْبِ عَنَاصِرَ أَوْ مُؤَيِّدِينَ، أَوْ لِتَحْقِيقِ بَعْضِ المَصَالِحِ، أَوِ الوُصُولِ إِلَى بَعْضِ الأَغْرَاضِ وَرُبَّمَا كَانَتِ الغَايَةُ تَأْمِينَ بَعْضِ الأَهْدَافِ لِتَهْدِيمِ بَعْضِ المَنَاهِجِ، أَوِ اسْتِبْدَالِ المِنْهَجِ الإِسْلاَمِيِّ بِغَيْرِهِ بِإِظْهَارِ مَزَايَا لِمَا يُرِيدُونَ تَطْبِيقَه.

وَأَعْضَاءُ المُجْتَمَعِ الإِسْلاَمِيِّ يَحْتَرِمُونَ الكَبِيرَ فِيهِمْ، وَيَعْطِفُونَ عَلَى الصَّغِيرِ بَيْنَهُمْ، وَيَحْرِصُونَ عَلَى تَأْمِينِ الحَاجَاتِ لأَصْحَابِهَا. وَيَعِيشُ النَّاسُ كُلُّهُمْ كَأُسْرَةٍ وَاحِدَةٍ كَبِيرَةٍ مُتَعَاوِنَةٍ مُتَكَاتِفَةٍ مُتَكَافِلَةٍ مُتَكَامِلَةٍ، يُمَثِّلُ الخَلِيفَةُ رَبَّ الأُسْرَةِ، لاَ يَعُدُّ نَفْسَهُ أَفْضَلَهُمْ أَوْ أَكْرَمَهُمْ، أَوْ لَهُ مِيِّزَاتٌ تَجْعَلُهُ يَخْتَلِفُ عَمَّنْ سِوَاهُ أَوْ يَتَمَيَّزُ عَنْ غَيْرِهِ، وَهُوَ لاَ يَتَمَيَّزُ عَنْ بَقِيَّةِ أَفْرَادِ المُجْتَمَعِ بِرُكُوبِهِ، أَوْ لِبَاسِهِ، أَوْ طَعَامِهِ، أَوْ سَكَنِهِ، كَمَا لَيْسَتْ لَهُ صِفَةٌ خَاصَّةٌ تَجْعَلُهُ فِي طَبَقَةٍ هُوَ وَأُسْرَتَهُ يَتَبَايَنُ بِهَا عَنْ بَقِيَّةِ أَفْرَادِ المُجْتَمَعِ يَسْتَطِيعُ مِنْ خِلاَلِهَا التَسَلُّطَ أَوْ نَيْلَ حُقُوقٍ لاَ يَتَمَكَّنُ غَيْرُهُ مِنَ الحُصُولِ عَلَيْهَا. بَلْ هُوَ فَرْدٌ عَادِيٌّ، وَصَلَتْ بِهِ إِمْكَانَاتُهُ وَاسْتِعْدَادَتُهُ الفِطْرِيَّةُ، وَإِخْلاَصُهُ فِي عَمَلِهِ، وَتَضْحِيَاتُهُ مِنْ أَجْلِ عَقِيدَتِهِ، وَإِيمَانُهُ، وَثِقَةُ الآخَرِينَ بِهِ وَصَلَ بِهِ هَذَا كُلُّهُ إِلَى مَرْكَزِ قِيَادَةِ الأُمةِ وَإِدَارَةِ شُؤُونِهَا، مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ مِنْهُ، وَلاَ رَغْبَةٍ فِي

نَفْسِهِ، فَهُوَ يَعِيشُ بَيْنَ أَفْرَادِ المُجْتَمَعِ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ، يَسِيرُ مَعَهُمْ فِي الشَّوَارِعِ مِنْ غَيْرِ تَمْيِيزٍ، وَيَذْهَبُ مَعَهُمْ إِلى السّوقِ يَبِيعُ، وَيَشْتَرِيْ، وَيُسَاوِمُ دُونَ جُنْدٍ، وَلاَ حَرَسٍ، وَقَدْ يَكُونُ بَيْتُهُ أَكْثَرَ تَوَاضُعاً مِنْ بُيُوتِ الآخَرِينَ، وَلَيْسَ لَهُ بَيْتٌ عَامٌّ يَعِيشُ فِيْهِ، يُخَصَّصُ لَهُ. وأَثْنَاءَ تَنَقُّلِهِ هَذَا، وَفِي وَقْتِ وُجُودِهِ فِي السُّوقِ يُعْطِي التَّعْلِيمَاتِ لِمَنْ يَرَاهَا ضَرُورِيَّةً لَهُ، وَيُلاَحِظُ مِقْدَارَ تَطْبِيقِ النَّاسِ لِلْمِنْهَجِ الإِسْلاَمِيِّ وَانْسِجَامِهِمْ مَعَهُ، وَيُرَاقِبُ إِنْ كَانَ هُنَاكَ ذَوُو حَاجَةٍ، وَيَسْأَلُ فِي الطَّرِيقِ عَنْ بَعْضِ المَوْضُوعَاتِ، وَيَلْتَقِي مَعَ بَعْضِ الأَفْرَادِ فِي الجَلْسَاتِ، وَيَتَبَادَلُ مَعَهُمُ الآرَاءَ، وَيُنَاقِشُ فِي ضَرُورَاتِ النَّاسِ وَحَاجَاتِهِمْ، وَمَا تَقْتَضِيهِ ظُرُوفُ الأُمَّةِ، وَأَخْبَارُ الجِهَادِ، وَأَنْبَاءُ المُقَاتِلِينَ. .

كَانَ أَبُو بَكْرٍ الخَلِيفَةُ يَتَفَقَّدُ النَّاسَ، وَيَسْهَرُ عَلَى مَصَالِحِهِمْ، وَهُمْ نِيَامٌ، وَيَحْرُسُ طُرُقَاتِ المَدِينَةِ عِنْدَمَا خَلَتْ مِنَ القُوَّةِ بَعْدَ تَسْيِيرِ بَعْثَ أُسَامَةَ بنِ زَيْدٍ.

وَكَانَ لأَبِي بَكْرٍ قِطْعَةٌ مِنَ الأَغْنَامِ، وَقَدْ يَخْرُجُ هُوَ لِيَرْعَاهَا وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَلِيَ أَمْرَ المُسْلِمِينَ، وَقَدْ يَرْعَاهَا لَهُ غَيْرُهُ. وَكَانَ يَحْلُبُ شِيَاهَ الحَيِّ لأَصْحَابِهَا، فَلَمَّا تَوَلَّى الخِلاَفَةَ سَمِعَ جَارِيَةً مِنَ الحَيِّ تَقُولُ: الآنَ لاَ يَحْلُبُ لَنَا أَغْنَامَ دَارِنَا، فَقَالَ: بَلَى

لَعمرِي لأَحْلُبَنَّهَا لَكُمْ، وَإِنِّي لأَرْجُوَ أَلاَّ يُغَيِّرَنِي مَا دَخَلْتُ فِيْهِ عَنْ خُلُقٍ كُنتُ عَلَيْهِ. فَكَانَ يَحْلُبُ لَهُنَّ، وَكُنَّ إِذَا أَتَيْنَهُ بِأَغْنَامِهِنَّ يَقُولُ: أَنْفجُ أَمْ أَلْبِدُ؟ فَإِن قَالَتْ أَنْفِجْ بَاعَدَ الإِنَاءَ مِنَ الضَّرْعِ حَتَّى تَشتَدَّ الرَّغْوَةُ، وَإِنْ قَالَتْ أَلْبِدْ أَدْنَاهُ حَتَّى لاَ تَكُونَ لَهُ رَغْوَةٌ، فَمَكَثَ كَذِلِكَ بِالسُّنْحِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ، ثُمَّ نَزَلَ إِلَى المَدِينَةِ. إِنَّ الرَّجُلَ العَظِيمَ لاَ يُقَلِّلُ مِنْ مَكَانَتِهِ أَدَاءُ عَمَلٍ صَغِيرٍ بَلْ يَزِيدُهُ رِفْعَةً وَمَهَابَةً، غَيْرَ أَنَّ الرَّجُلَ الوَضِيعَ يتَصَوّرُ عَكْسَ ذَلِكَ فَيَأْبَى التَّوَاضُعَ وَأَدَاءَ العَمَلِ الصَّغِيرِ فَيَزْدَادُ ضِعَةً وَيَقِلُّ قَدْراً، وَلَكِنَّهُ يَتَعَالَى وَيَنْتَفِخُ مِنْ غَيْرِ أَسَاسٍ.

وَعِنْدَمَا سَيَّرَ الخَلِيفَةُ بَعْثَ أُسَامَةَ اسْتَبْقَى فِي المَدِينَةِ عَدَداً مِنْ الصَّحَابَةِ لإِسْتِشَارَتِهِمْ وَالاسْتِنَارَةِ بِرَأْيِهِمْ إِضَافَةً إِلَى حِمَايَةِ المَدِينَةِ، إِذْ كَانُوا على أَنْقَابِهَا، وَعَلَى صِلَةٍ مُسْتَمِرَّةٍ بِالمُسْلِمِينَ الَّذِينَ كَانُوا فِي المَسْجِدِ مَعَ الخَلِيفَةِ عَلَى أُهْبَةِ الاسْتِعْدَادِ لِكُلِّ طَارِىءٍ، وَعَلَى اتْصَالٍ بِالخَلِيفَةِ نَفْسِهِ، وَلَمْ يَكُنْ هَؤُلاَءِ مَعَ مَكَانَتِهِمْ عِنْدَ المُسْلِمِينَ لِيَتَمَيَّزُوا عَنْ بَقِيَّةِ أَفْرَادِ المُجْتَمَعِ، وَإِنْ كَانُوا يَلْقَوْنَ كُلَّ احْتِرَامٍ وَتَقْدِيرٍ مِنَ المُسْلِمِينَ كَافَّةً، وَمَا ذَلِكَ إِلاَّ بِسَبَبِ سَابِقَتِهِمْ فِي الإِسْلاَمِ، وَصُحْبَتِهِمُ المُسْتَمِرَّةِ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَجِهَادِهِمُ الطَّوِيلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،

وَتَضحِيَتِهِمْ مِنْ أَجْلِ الدَّعْوَةِ، وَمَعَ هَذِهِ النَّظْرَةِ الَّتِي مِلْؤُهَا التَّوْقِيرُ، وَمَعَ اسْتِشَارَةِ الخَلِيفَةِ لَهُمْ، فَلَمْ تكُنْ لَهُمْ أَيَّةُ مِيْزَةٍ، بَلْ كَانُوا كَبَقِيَّةِ أَفْرَادِ المُجْتَمَعِ، وَيُمْكِنُ لِكُلِّ فَرْدٍ أَنْ يُقَاضِيهِمْ، وَأَنْ يَقْتَصَّ مِنْهُمْ فِيمَا إِذَا أَخْطَؤُوا، وَأَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ، وَلَيْسَ هُنَاكَ مِنْ فَرْقٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَيِّ فَرْدٍ مِنْ عَامَّةِ النَّاسِ.

وَيَنْدَفِعُ المُسْلِمُونَ لِلْجِهادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِنَيْلِ الشَّهَادَةِ أَوْ إِحْرَازِ النَّصْرِ، وَالدَّعْوَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَيَدْفَعُهُمْ إِلَى ذَلِكَ كُلِّهِ أَمَلُهُمْ بِإِرْضَاءِ اللَّهِ، وَأَدَاءِ مُهِمَّتِهِمْ فِي الحَيَاةِ، وَإِعْمَارِ الأَرْضِ عَلَى الصُّورَةِ المَطْلُوبَةِ، لاَ يَدْفَعُهُمْ مَطْمَعٌ مِنْ مَطَامِعِ الدُّنْيَا كَمَغْنَمٍ، أَوْ سَيْطَرَةٍ، أَوْ إِظْهَارِ قُوَّةٍ أَوْ شَجَاعَةٍ، أَوْ مُفَاخَرَةٍ، إِنَّمَا كَانَ خُرُوجُهُمْ لِتكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ العُلْيَا.

وَفِي سَاحَاتِ الجِهَادِ يُؤَلِّفُ المُجَاهِدُونَ كِتْلَةً وَاحِدَةً، وَيَكُونُونَ إِخْوَةً حَقِيقِيينَ بِمَعْنَى الأُخُوَّةِ الإِيمَانِيَّةِ، وَقَدْ وَقَعَتْ أَحْدَاثٌ كَثِيرَةٌ كَانَ الوَاحِدُ مِنْهُمْ يُسرِعُ وَيُلْقِي بِنَفْسِهِ أَمَامَ أَخِيهِ لِيَتَلَقَّى الضَّرْبَةَ عَنْهُ، يَسْبِقُهُ فِيهَا إِلَى الشَّهَادَةِ، حِرْصاً عَلَى أَخِيْهِ، وَدِفَاعاً عَنْهُ، وَتَفْضِيلاً لَهُ. كَانَ طَعَامُهُمْ وَاحِداً، وَيَتَشَابَهُ لِبَاسُهُمْ فِي البَسَاطَةِ، لاَ يَخْتَلِفُ فِي ذَلِكَ قَائِدُ الجَيْشِ وَالجُنْدِيُّ، بَلْ إِذَا

قُدِّمَ طَعَامٌ لِقَائِدٍ كَانَ يَسْأَلُ: هَلْ طَعَامُ الجُنْدِ جَمِيعَاً مِنْ هَذَا النَّوْعِ؟ وَلَمْ تَكُنْ يَدُ القَائِدِ لِتَمْتَدَّ إِلَى أَكْلَةٍ قَبْلَ أَنْ يَتَأَكَّدَ أَنَّ جُنْدَهُ كَافَّةً قَدْ حَصَلُوا عَلَى مَا نَالَهُ هُوَ، وَقَدْ يَكُونُ قَائِدُ الجُنْدِ اليَوْمَ فِي هَذِهِ السَّاحَةِ، وَيُصْبِحُ غَدَاً جُنْدِيًّا يُقَاتِلُ تَحْتَ إِمْرَةِ أَحَدِ جُنْدِهِ بِالأَمْسِ، وَلاَ يَخْتَلِفُ الأَمْرُ عِنْدَهُ أَبَدَاً بَيْنَ كَوْنِهِ قَائِدَاً أَوْ جُنْدِيًّا، لاَ مِنْ حَيْثُ القِتَالُ فَقَطْ بَلْ مِنْ حَيْثُ احْتِرَامُ الأَفْرَادِ لَهُ، وَلاَ تَخْتَلِفُ طَاعَةُ الأَفْرَادِ لَهُ، وَتَنْفِيذُ الأَوَامِرِ، وَالسُّؤَالُ فِي الخِطَّةِ وَأُسْلُوبِ القِتَالِ.

لَمْ يَكُنِ المُجَاهِدُ وَالمُرَابِطُ فِي الثُّغُورِ لِيُفَكِّرَ فِي أَهْلِهِ أَوْ بَلَدِهِ، حَيْثُ أَنَّ أَهْلَهُ يَعِيشُونَ بَيْنَ أَفْرَادِ مُجْتَمَعِهِمُ الَّذِينَ هُمْ إِخْوَانُهُمْ، وَهُمْ مَسْؤُولُونَ عَنْهُمْ، إِضَافَةً إِلَى العَقِيدَةِ الرَّاسِخَةِ الَّتِي تَقْضِي أَنْ يَعْتَقِدَ المُسْلِمُ أَنَّ اللَّهَ وَلِيُّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. وَمِنْ هَذَا المُنْطَلَقِ لَمْ يُفَكِّرِ المُجَاهِدُونَ فِي بَلَدِهِمْ فَإِنَّ لَهَا حُمَاتُهَا، وَهُمُ المسْؤُولُونَ عَنْهَا، وَعَمَّنْ يَعِيشُ فِيْهَا، وَالخَلِيفَةُ هُوَ المسْؤُولُ الأَوَّلُ. أَمَّا المُجَاهِدُونَ فَهَمُّهُمْ نَشْرُ الدَّعْوَةِ، وَالجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

وَتُوَزَّعُ الغَنَائِمُ بِالتَّسَاوِي بَيْنَ المُشَاةِ وَكَذَلِكَ بَيْنَ الفُرْسَانِ، إِذْ لِلْفَرَسِ سَهْمٌ وَلِلْفَارِسِ سَهْمٌ. وَمَن قَتَلَ رَجُلاً فَلَهُ سَلَبُهُ.

وَلِلْقَبَائِلِ رَايَاتُهَا، وَالقِتَالُ حَوْلَ الرَّايَاتِ لِتَمْتَازَ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِشَجَاعَتِهَا، وَتعْمَلَ عَلَى ذَلِكَ، فَيَظْهَرُ إِقْدَامُهَا وَحَمْلُهَا عَلَى الأَعْدَاءِ.

وَالقَاعِدُونَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ مُتَعَاوِنُونَ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ بِشَكْلٍ تَامٍّ. وَكُلٌّ يُؤَدِّيْ دَوْرَهُ. فَالمَرْأَةُ مُنْصَرِفَةٌ إِلَى تَرْبِيَةِ الأَوْلاَدِ، وَتَنْشِئَتِهِمْ عَلَى الإِسْلاَمِ، وَتَعْلِيمِهِمْ ضَرُورَةَ الجِهَادِ، وَشَحْنِهِمْ بِالإِيمَانِ، وَتَعِيشُ مَعَ الضَّرَائِرِ حَيَاةَ الأُخُوَّةِ، وَمَعَ الجِيرَانِ حَيَاةَ التَّضْحِيَةِ وَالإِخْلاَصِ تَسْعَدُ لِسَعَادَتِهِمْ، وَتَبْكِي مَعَ بُكَائِهِمْ، وَمَعِ الجَوَارِي حَيَاةَ الرِّعَايَةِ وَالتَّعَاوُنِ وَالشُّعُورِ بِمَسْؤُولِيَّةِ الإِشْرَافِ وَالحَنَانِ.

طَلَبَ الخَلِيفَةُ الصِّدِّيقُ مِنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ أَنْ يَجلِسَ فِي المَسْجِدِ فِي وَقْتٍ مُعَيَّنٍ لِيَسْأَلَهُ النَّاسُ إِنِ احْتَاجُوا إِلَى سُؤَالٍ، وَلِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ إِنْ وَقَعَ بَيْنَهُمْ مَا يَسْتَدْعِي ذَلِكَ، وَأُخْبِرَ المُسْلِمُون بِمُهِمَّةِ عُمَرَ، وَمَوْعِدِ جُلُوسِهِ فِي المَسْجِدِ لِيُؤَدِيَ مَا طُلِبَ مِنْهُ. وَنَفَّذَ عُمَرُ الأَوَامِرَ، وَجَلَسَ فِي المَسْجِدِ، وَاسْتَمَرَّ عَلَى مَوْعِدِهِ مَا تَخَلَّفَ يَوْمَاً، وَلاَ تَأَخَّرَ وَقْتاً، وَلَكِنْ لَمْ يَأْتِهِ أَحَدٌ، مُدَّةَ سَنَةٍ كَامِلَةٍ، فَشَعَرَ أَنَّ وَقْتَهُ يَذْهَبُ دُونَ فَائِدَةٍ، فَقَالَ: إِنَّ أُمَّةً خَلِيفَتُهَا أَبُو بَكْرٍ لاَ تَحْتَاجُ إِلَى عُمَرَ وَلاَ إِلَى قَضَائِهِ، إِذْ تَعَهَّدَهَا قَائِدُهَا،

وَسَارَ أَمَامَهَا عَلَى مِنْهَجِ الإِسْلاَمِ، وَمَنِ اتَّبَعَ هَذَا المِنْهَجَ لاَ يَحْدُثُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِخْوَانِهِ خِلاَفٌ، حَيْثُ يَفْهَمُ مَا عَلَيْهِ فَيُؤَدِّيَهُ وَيَعْرِفُ الَّذِيْ لَهُ فَلاَ يَأْخُذُ أَكْثَرَ مِنْهُ، وَمَا عُمَرُ بِأَفْضَلَ مِنْ بَقِيَّةِ أَفْرَادِ هَذِهِ الأُمَّةِ.

وَلاَ يَعُدُّ أَبُو بَكْرٍ نَفْسَهُ قَائِدَ الأُمَّةِ بَلْ خَادِمَهَا وَمَسْؤُولاً عَنْ كُلِّ فَرْدٍ فِيْهَا مَسْؤُولِيَّةً كَامِلَةً، يَتَعَهَّدُهُ وَيَخْدِمُهُ، وَيَجِبُ أَلاَّ يَقُومَ بِهَذِهِ المُهِمَّةِ سِوَاهُ، وَكَانَ شَأْنُ الآخَرِينَ مِثْلَهُ، فَهُمْ جَمِيعاً أَبْنَاءُ الإِسْلاَمِ، وَتَرَبَّوْا عَلَى يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَغَمَرَ الإِيمَانُ قُلُوبَهُم فَسَارُوا عَلَى مِنْهَجِهِ فَكَانُوا نَمَاذِجَ لِلْمُسْلِمِينَ وَغُرَراً فِي جَبِينِ التَّارِيخِ.

عَرَفَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ أَنَّ عَجُوزاً عَمْيَاء تُقِيمُ عَلَى أَطْرَافِ المَدِينَةِ وَلَيْسَ لَهَا رَاعٍ يَرْعَى شُؤُونَهَا، فَأَخَذَ يَتَفَقَّدُهَا، وَيَخْدُمُهَا، وَيَقْضِي لَهَا حَاجَاتِهَا، وَلَكِنْ بَعْدَ مُدَّةٍ صَارَ يَرَى شُؤُونَهَا مَرْعِيَّةً، وَحَاجَاتِهَا مَقْضِيَّةً، وأُمُورَهَا قَدْ أُصْلِحَتْ، فَيَسْأَلُهَا، فَتَقُولُ: خَدَمَنِي مُسْلِمٌ يُرِيدُ الأَجْرَ، فَيَفْعَلُ الخَيْرَ، فَأَصْبَحَ عُمَرُ يَزِيدُ فِي البُكُورِ، فَيَجِدُ أَنَّه قَدْ سُبِقَ، فَيَزِيدُ فَلاَ يُدْرِكُ حَاجَتَهُ، فَرَصَدَ مُنَافِسَهُ عَلَى خِدْمَةِ هَذِهِ العَجُوزِ فَإِذَا بِهِ

خَلِيفَـةُ المُسْلِمِيـنَ أَبُـو بَكْـرٍ الصِّـدِّيـقُ الَّـذِي يَعُـدُّ هَـذَا مِـنْ مَسؤُولِيَّتِهِ، حَيْثُ يَفْهَمُ أَنَّهُ رَاعِي الأُمَّةِ أَيْ خَادِمُهَا، وَأَحْرَى بِهِ أَنْ يَقُومَ بِمَا عَلَيْهِ.

البَابُ الثَّانِي

أُسْرَةُ الصِّدِّيقِ

الفَصْلُ الأَوَّل

وَالِدُ الصِّدِّيقِ

أ ـ وَالِدُ الصِّدِّيقِ:

يُعْرَفُ وَالِدُ الصِّدِّيقِ بِـ (أَبُو قَحَافَةَ)، وَهُوَ عُثْمَانُ بنُ عَامِرِ بنِ عَمْرِو بنِ كَعْبِ بنِ سَعْدِ بنِ تَيْمٍ، وَقَدْ عَمِلَ بِالتِّجَارَةِ، وَعُرِفَ بِالاسْتِقَامَةِ، وَنَشَأَ وَلَدُهُ عَلَى ذَلِكَ، وَيقْضِي العَمَلُ بِالتِّجَارَةِ آنَذَاكَ أَنْ يَكُونَ التَّاجِرُ عَلَى عَلاَقَةٍ حَسَنَةٍ مَعَ بَقِيَّةِ التُّجَارِ وَمَعَ أَفْرَادِ المُجْتَمَعِ، فَلاَ يَخْرُجُ عَنِ المَأْلُوفِ، وَلاَ يَبْتَعِدُ عَمَّا يُمَارِسُونَهُ، وَهَذَا مَا أَبْعَدَ أَبَا قُحَافَةَ عَنِ الإِسْلاَمِ رَغْمَ إِيمَانِ وَلَدِهِ الوَحِيدِ، وَمَكَانَتِهِ بَيْنَ المُسْلِمِينَ، وَمَوْقِعِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَكِنْ لَمْ تَبْدُ مِنَ الوَالِدِ الإِسَاءَةُ، وَلَمْ تَظْهَرْ عَلَيْهِ العَدَاوَةُ بَلْ كَانَ فِي مَوقِعِ المُتَأَمِّلِ وَمَوْضِعِ المُنْتَظِرِ.

كَمَا أَنَّ التِّجَارَةَ فِي الجَاهِلِيَّةِ وَلَدَى كَثِيرٍ مِنَ المُجْتَمَعَاتِ اليَوْمَ تُعْطِي نَظْرَةً إِلَى المَالِ عَلَى أَنَّهُ غَايَةٌ، وَأَنَّ إِنْفَاقَهُ لاَ يَكُونُ

إلاَّ لِمَصْلَحَةٍ عَاجِلَةٍ مِنْهَا المَنَعَةُ وَالشَّهْوَةُ، وَمِنْهَا المُتْعَةُ وَالشُّهْرَةُ، وَلَمْ يَكُنْ يُعْرَفُ يَوْمَذَاكَ، وَلاَ اليَومَ عِنْدَ مَنْ خُتِمَتِ الغِشَاوَةُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ، لاَ يَعْرِفُ هَؤُلاَءِ مَعَانِيَ عَمَلِ الخَيْرِ، وَالعَمَلِ لِلَّهِ، وَالَّذِيْ يَنَالُ صَاحِبُهُ أَجْرَاً مُضَاعَفَاً يَصِلُ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، بَلْ يُضَاعِفُ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ، لِذَا فَإِنَّ أَبَا قُحَافَةَ - حَسْبَ مَفْهُومِ الجَاهِلِيَّةِ - كَانَ يُشْفِقُ عَلَى وَلَدِهِ أَبِي بَكْرٍ، عِنْدَمَا كَانَ يَشْتَرِي مَنْ أَسلَمَ مِنَ العَبِيدِ وَالجَوَارِي وَيُعْتِقُهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا بُنَيَّ أَرَاكَ تُعْتِقُ رِقَابَاً ضِعَافاً، فَلَوْ أَنَّكَ إِذْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ أَعْتَقْتَ رِجَالاً جُلْدَاً، يَمْنَعُونَكَ، وَيَقُومُونَ دُونَكَ. فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَوْلَةَ المُؤمِنِ: يَا أَبَتِ إِنِّي أُرِيدُ مَا عِنْدَ اللَّهِ. فَسَكَتَ أَبُو قُحَافَةَ، وَإِنْ لَمْ يُدْرِكِ المَعْنَى لِجَاهِلِيَّتِهِ.

وَكُفَّ بَصَرُ أَبِي قُحَافَةَ، وَوَقَفَ عَمَلُهُ، غَيْرَ أَنَّ نَظْرَتَهُ إِلَى المَالِ لَمْ تَزَلْ كَمَا هِيَ، لأَنَّهُ لَمْ يَزَلْ كَمَا هُوَ، فِي جَاهِلِيَّةٍ. فَلَمَّا هَاجَر أَبُو بَكْرٍ، مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى المَدِينَةِ أَخَذَ مَالَهُ مَعَهُ. فَتَقُولُ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. لَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مَعَهُ، احْتَمَلَ أَبُو بَكرٍ مَالَهُ كُلَّهُ، وَمَعَهُ خَمْسَةُ آلاَفِ دِرْهَمٍ أَوْ

سِتَّةُ آلافٍ، فَانْطَلَقَ بِهَا مَعَهُ. قَالَتْ: فَدَخَلَ عَلَيْنَا جَدِّيْ أَبُو قُحَافَةَ، وَقَدْ ذَهَبَ بَصَرُهُ، فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنِّي لأَرَاهُ قَدْ فَجَعَكُمْ بِمَالِهِ مَعَ نَفْسِهِ. قَالَتْ: قُلْتُ: كَلاَّ يَا أَبَتِ! إِنَّهُ قَدْ تَرَكَ لَنَا خَيْرَاً كَثِيراً، قَالَتْ: فَأَخَذْتُ أَحْجَارَاً فَوَضَعْتُهَا فِي كُوَّةٍ فِي البَيْتِ الَّذِيْ كَانَ أَبِي يَضَعُ مَالَهُ فِيْهَا، ثُمَّ وَضَعْتُ عَلَيْهَا ثَوْباً، ثُمَّ أَخَذْتُ بِيَدِهِ، فَقُلْتَ: يَا أَبَتِ، ضَعْ يَدَكَ عَلَى هَذَا المَالِ. قَالَتْ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: لاَ بَأْسَ، إِذَا كَانَ قَدْ تَرَكَ لَكُمْ هَذَا فَقَدْ أَحْسَنَ، وَفِي هَذَا بَلاَغٌ لَكُمْ. وَلاَ وَاللَّهِ مَا تَرَكَ لَنَا شَيْئَاً، وَلَكِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أُسَكِّنَ الشَّيْخَ بِذَلِكَ[1].

إِسْلاَمُ أَبِي قُحَافَةَ:

لَمَّا كَانَ فَتْحُ مَكَّةَ، وَجَاءَ نَصْرُ اللَّهِ، وَدَخَلَ أَهْلُ مَكَّةَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً، دَخَلَ أَبُو قُحَافَةَ فِي الإِسْلاَمِ كَمَا دَخَلَ النَّاسُ. فَلَمَّا كَانَ المُسْلِمُونَ بِـ (ذِي طَوَى) قَالَ لاِبْنَةٍ لَهُ: أَيْ بُنَيَّةَ! اظْهَرِيْ بِي عَلَى أَبِي قُبَيْسٍ، فَأَشْرَفَتْ بِهِ عَلَيْه. فَقَالَ: يَا بُنَيَّةُ مَاذَا تَرِينَ؟ قَالَتْ: أَرَى سَوَاداً مُجْتَمِعاً. قَالَ: تِلْكَ الخَيْلُ، قَالَتْ: وَأَرَى رَجُلاً يَسْعَى بَيْنَ ذَلِكَ السَّوَادِ مُقْبِلاً وَمُدْبِراً، قَالَ: يَا بُنَيَّةُ ذَلِكَ الوَازِعُ الَّذِي يَأْمُرُ الخَيْلَ وَيَتَقَدَّمُ إِلَيْهَا، ثُمَّ قَالَتْ: قَدْ وَاللَّهِ

(١) سيرة ابن هشام.

انْتَشَرَ السَّوَادُ، فقَالَ: قَدْ دُفِعَتِ الخَيْلُ فَأَسْرِعِي بِي إِلَى بَيْتِي. فَانْحَطَّتْ بِهِ. فَلَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَسْجِدَ مَكَّةَ، أَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِأَبِيهِ يَقُودُهُ، فَلَمَّا رَآه النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: هَلاَّ تركْتَ الشَّيخَ فِي بَيْتِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا آتِيهِ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: هُوَ أَحَقُّ أَنْ يَمْشِيَ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ تَمْشِيَ إِلَيْهِ، ثُمَّ مَسَحَ صَدْرَهُ، وَقَالَ: أَسْلِمْ، فَأَسْلَمَ، وَكَانَ رَأْسُهُ كَالثّغامَةِ(١)، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «غَيِّرُوا هَذَا مِنْ شَعْرِهِ»(٢).

انْتَقَلَ أَبُو قُحافَةَ مِنَ الجَاهِلِيَّةِ إِلَى الإِسْلَامِ، وَارْتَفَعَ مَوْقِعُهُ بَعْدَ هَذَا الانْتِقَالِ مِنْ جَاهِلِيّ إِلَى صَحَابِيّ، وَكَفَى بِهَذَا رِفْعَةً، وَأَحسَّ الصِّدِّيقُ بِهَذِهِ الرِّفْعَةِ فكَانَ السُّرُورُ يَمْلأُ نَفْسَهُ فقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمَا وَالَّذِي بَعثَكَ بِالحَقِّ لأَنَا كُنْتُ أَشَدَّ فَرَحاً بِإِسْلَامِ أَبِي طَالِبٍ - لَوْ أَسْلَمَ - مِنِّي بِإِسْلاَمِهِ أَبْتَغِي بِذَلكَ قَرَّةَ عَيْنِك، قَالَ: صَدَقْتَ.

وَكَانَ الصِّدِّيقُ بَارًّا بِوَالِدِهِ، مُطِيعاً لَهُ، رَغْمَ اخْتِلاَفِهِمَا

---

(١) الثغام نبات شديد البياض، ومفرده ثغامة.

(٢) أي اصبغوا شعر رأسه بأي لونٍ عدا السواد، ويجوز صبغ شعر الوجه والرأس بالسواد في الحرب فقط لإخافة العدو بالشباب المسلم، حيث يتراءى لهم ذلك.

بِالعَقِيدَةِ، وَذَلِكَ تبْعاً لِقَوْلِهِ تعَالَى: ﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[1].

فَلَمَّا جَاءَ الصِّدِّيقُ مَعَ جَيْشِ الفَتْحِ، وَأَتَى نَصْرُ اللَّهِ، وَاسْتَقَرَّ الوَضْعُ انْطَلَقَ الصِّدِّيقُ إِلَى وَالِدِه يَتَفَقَّدُهُ، وَيَدْعُوهُ، عَسَى أَنْ يُسْلِمَ، فَإِنَّ أَحَبَّ شَيْءٍ إِلَى المُسْلِمِ أَنْ يَرَى أَبَوَيْهِ مُؤْمِنَيْنِ، وَقَدْ أَسْلَمَ أَبُو قُحَافَةَ يَوْمَهَا بَعْدَ ذَهَابِهِ مَعَ وَلَدِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَرَجَعَ الصِّدِّيقُ إِلَى المَدِينَةِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالمُسْلِمِينَ الَّذِينَ جَاءُوا لِلْفَتْحِ، وَبَقِيَ أَبُو قُحَافَةَ فِي مَكَّةَ مُسْلِماً مُؤْمِناً، غَيْرَ أَنَّ صِلَتَهُ بِالمُسْلِمِينَ كَانَتْ قَلِيلَةً لِسِنِّهِ، وَفُقْدَانِ بَصَرِهِ، لِذَا بَقِيَتْ عِنْدَهُ بَعْضُ الخَلْفِيَّاتِ الَّتِي كَانَتْ سَائِدَةً فِي المُجْتَمَعِ قَبْلَ اعْتِنَاقِهِ الإِسْلَامَ، وَقَبْلَ سِيَادَتِهِ. فَلَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ارْتَجَّتْ مَكَّةُ فَسَمِعَ بِذَلِكَ أَبُو قُحَافَةَ فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالُوا قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: أَمْرٌ جَلَلٌ، فَمَنْ وَلِيَ الأَمْرَ بَعْدَهُ؟.

---

(١) سورة لقمان، الآية: ١٥.

قَالُوا: ابْنُكَ، قَالَ: فَهَلْ رَضِيَتْ بِذَلِكَ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ وَبَنُو الْمُغِيرَةِ[1]؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: لاَ مَانِعَ لِمَا أَعطَى اللَّهُ، وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ[2]. وَذَلِكَ ظَنًّا مِنْ أَبِي قُحَافَةَ أَنَّ القَبَائِلَ لاَ يَزَالُ لَهَا الدَّوْرُ الأَوَّلُ فِي مَنْحِ السِّيَادَةِ، وَإِعْطَاءِ الرِّيَادَةِ، وَتَسْلِيمِ القِيَادَةِ، وَلَمْ يَثْبُتْ فِي فِكْرِهِ أَنَّ الإِسْلاَمَ قَدْ قَدَّمَ السَّابِقَةَ، وَأَوْلَى الإِمْرَةَ لِلأَوَّلِ تَصْدِيقاً، وَالأَكْثَرِ صُحْبَةً، وَأَنَّ أَكْرَمَ الخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ لَهُ.

وَاسْتَعْمَلَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى الحَجِّ سَنَةَ إِحْدَى عَشْرَةَ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ، ثُمَّ اعْتَمَرَ أَبُو بَكْرٍ فِي رَجَبٍ سَنَةَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ فَدَخَلَ مَكَّةَ ضَحْوَةً فَأَتَى مَنْزِلَهُ، وَأَبُو قُحَافَةَ جَالِسٌ عَلَى بَابِ دَارِهِ مَعَهُ فِتْيَانٌ أَحْدَاثٌ يُحَدِّثُهُمْ إِلَى أَنْ قِيلَ لَهُ: هَذَا ابْنُكَ، فَنَهَضَ قَائِماً وَعَجِلَ أَبُو بَكْرٍ أَنْ يُنِيخَ رَاحِلَتَهُ فَنَزَلَ عَنْهَا وَهِيَ قَائِمَةٌ فَجَعَلَ يَقُولُ: يَا أَبَتِ لاَ تَقُمْ، ثُمَّ لاَقَاهُ فَالْتَزَمَهُ، وَقَبَّلَ بَيْنَ عَيْنَيْ أَبِي قُحَافَةَ، وَجَعَلَ الشَّيْخُ يَبْكِي فَرَحاً بِقُدُومِهِ، وَجَاءَ إِلَى مَكَّةَ عَتَّابُ بنُ أُسَيْدٍ، وَسُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو، وَعِكْرِمَةُ بنُ أَبِي جَهْلٍ، وَالحَارِثُ بنُ هِشَامٍ فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ: سَلاَمٌ عَلَيْكَ يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ

---

(١) بنو المغيرة: بنو مخزوم.

(٢) الرياض النضرة.

اللَّهِ، وَصَافَحُوهُ جَمِيعاً فَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ يَبْكِي حِيْنَ يَذْكُرُونَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ سَلَّمُوا عَلَى أَبِي قُحَافَةَ، فَقَالَ أَبُو قُحَافَةَ: يَا عَتِيقُ هَؤُلاَءِ المَلأُ فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمْ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا أَبَتِ لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ! طُوِّقْتُ عَظِيماً مِنَ الأَمْرِ لاَ قُوَّةَ لِي بِهِ إِلاَّ بِاللَّهِ. ثُمَّ دَخَلَ فَاغْتَسَلَ، وَخَرَجَ، وَتَبِعَهُ أَصحَابُهُ فَنَحَّاهُمْ ثُمَّ قَالَ: امْشُوا عَلَى رِسْلِكُمْ[1]. وَلَقِيَهُ النَّاسُ يَتَمَشَّوْنَ فِي وَجْهِهِ، وَيُعَزُّونَهُ بِنَبِيِّ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ يَبْكِي حَتَّى انْتَهَى إِلَى البَيْتِ، فَاضْطَبَعَ بِرِدَائِهِ، ثُمَّ اسْتَلَمَ الرُّكْنَ، ثُمَّ طَافَ سَبْعاً، وَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ، ثُمّ انصَرَفَ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَلَمَّا كَانَ الظُّهْرُ خَرَجَ فَطَافَ أَيْضاً بِالبَيْتِ، ثُمَّ جَلَسَ قَرِيباً مِنْ دَارِ النَّدْوَةِ فَقَالَ: هَلْ مِنْ أَحَدٍ يَشْتَكِي مِنْ ظُلاَمَةٍ أَوْ يَطْلُبُ حَقًّا؟ فَمَا أَتَاهُ أَحَدٌ، وَأَثْنَى النَّاسُ عَلَى وَالِيهِمْ خَيْراً، ثُمَّ صَلَّى العَصْرَ، وَجَلَسَ فَوَدَّعَهُ النَّاسُ، ثُمَّ خَرَجَ رَاجِعاً إِلَى المَدِينَةِ[2].

وَحَجَّ أَبُو بَكْرٍ بِالنَّاسِ سَنَةَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ، وَأَفْرَدَ الحَجَّ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَى المَدِينَةِ عُثْمَانَ بنَ عَفَّانَ[3].

---

(١) لا يريد رضي الله عنه أن يسير وكبار القوم من حوله كما يسير الطغاة.

(٢) طبقات ابن سعد.

(٣) المصدر السابق نفسه.

وَقَالَ سَعِيدُ بنُ المُسَيِّبِ: ثُمَّ ارْتَجَّتْ مَكَّةُ بِرَجَّةٍ هِيَ دُونَ الأُولَى، فقَالَ أَبُو قُحَافَةَ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: ابْنُكَ مَاتَ! قَالَ: رُزْءٌ جَلِيلٌ، فَمَنْ وَلِيَ الأَمْرَ بَعْدَهُ؟ قَالُوا: عُمَرُ. قَالَ: صَاحِبُهُ.

وَوَرِثَ أَبُو قُحَافَةَ السُّدُسَ مِنْ مَالِ أَبِي بَكْرٍ، فَكُلِّمَ فِيهِ فَقَالَ: قَدْ رَدَدْتُهُ عَلَى وَلَدِ أَبِي بَكْرٍ.

تُوفِّيَ أَبُو قُحَافَةَ فِي شَهرِ المُحَرَّمِ مِنْ عَامِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ لِلْهِجْرَةِ أَيْ بَعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ مِنْ وَفَاةِ وَلَدِهِ أَبِي بَكْرٍ. وَكَانَتْ سِنُّهُ يَوْمَ وَفَاتِهِ سَبْعاً وَتِسْعِينَ سَنَةً.

والِدَةُ الصِّدِّيقِ:

تُعْرَفُ وَالِدَةُ الصِّدِّيقِ بِـ(أُمِّ الخَيْرِ)، وَهِيَ سَلْمَى بِنْتُ صَخْرِ بنِ عَامِرِ بنِ كَعْبِ بنِ سَعْدِ بنِ تَيْمٍ، فَهِيَ ابْنَةُ عَمِّ أَبِي قُحَافَةَ وَالِدِ الصِّدِّيقِ.

وَقَدْ دَعَاهَا وَلَدُهَا الصِّدِّيقُ إِلَى الإِسْلَامِ فَأَبَتْ بِشِدَّةٍ كَمَا أَبَى أَبُوهُ، غَيْرَ أَنَّ عَاطِفَةَ الأُمُومَةِ وَحُبَّهَا لابْنِهَا الوَحِيدِ أَلْزَمَهَا قَبُولِ الإِسْلَامِ، فَكَانَ الخَيْرُ كُلُّ الخَيْرِ لَهَا، إِذْ خَرَجَتْ مِنْ شِرْكِهَا وَضِيقِ دُنْيَاهَا إِلَى رَحَابَةِ الإِسْلَامِ، وَمَعْرِفَةِ الحَقِّ. وَذَلِكَ أَنَّ المُسْلِمِينَ الأَوَائِلَ قَدْ بَلَغُوا تِسْعَةً وَثَلَاثِينَ رَجُلاً، يَلْتَقُونَ

سِرًّا، وَيَدْعُونَ سِرًّا، فَأَلَحَّ أَبُو بَكْرٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِالظُّهُورِ، فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا بَكْرٍ إِنَّا قَلِيلٌ، فَلَمْ يَزَلْ يُلِحُّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى ظَهَرَ، وَتفَرَّقَ الْمُسْلِمُونَ فِي نَوَاحِي الْمَسْجِدِ، وَقَامَ أَبُو بَكْرٍ خَطِيباً، وَرَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جَالِسٌ، فَكَان أَوَّلَ خَطِيبٍ دَعَا إِلَى اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، وَإِلَى رَسُولِهِ، وَثَارَ الْمُشْرِكُونَ عَلَيْهِ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَضَرَبُوهُمْ فِي نَوَاحِي الْمَسْجِدِ ضَرْباً شَدِيداً، وَدَنَا عُتْبَةُ بنُ رَبِيعَةَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَجَعَلَ يَضْرِبُهُ بِنَعْلينِ مَخْصُوفَيْنِ حَتَّى لَمْ يَعُدْ يُعْرَفُ أَنْفُهُ مِنْ وَجْهِهِ، وَجَاءَتْ بَنُو تَيْمٍ تَتَعَادَى، فَأَجْلَوْا الْمُشْرِكِينَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ، وَحَمَلُوهُ فِي ثَوْبٍ حَتَّى أَدْخَلُوهُ بَيْتَهُ، لاَ يَشُكُّونَ فِي مَوْتِهِ، وَرَجَعَ بَنُو تَيْمٍ فَدَخَلُوا الْمَسْجِدَ، فَقَالُوا: وَاللَّهِ لَئِنْ مَاتَ أَبُو بَكْرٍ لَنَقْتُلَنَّ عُتْبَةَ.

وَرَجَعَ بَنُو تَيْمٍ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَجَعَلُوا يُكَلِّمُونَهُ، حَتَّى أَجَابَهُمْ آخِرَ النَّهَارِ، فَكَانَ أَوَّلُ مَا قَالَهُ: مَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ؟ فَنَالُوهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَعَذَلُوهُ، ثُمَّ قَالُوا: لأُمِّهِ (أُمِّ الخَيْر سَلْمَى بِنْتِ صَخْرٍ) انْظُرِي أَنْ تُطْعِمِيهِ شَيْئاً أَوْ تَسْقِيهِ. فَلَمَّا خَلَتْ بِهِ وَأَلَحَّتْ جَعَلَ يَقُولُ: مَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ؟ قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ مَا بِصَاحِبِكَ، قَالَ: فَاذْهَبِي إِلَى فَاطِمَةَ بِنْتِ الخَطَّابِ فَاسْأَلِيْهَا عَنْهُ.

خَرَجَتْ أُمُّ الخَيْرِ حَتَّى جاءَتْ فاطِمَةَ، فَقالَتْ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ يَسأَلُكِ عَنْ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ. قَالَتْ: مَا أَعْرِفُ أَبَا بَكْرٍ وَلاَ مُحَمَّدَ بنَ عَبْدِ اللَّهِ، وَإِنْ شِئْتِ ذَهَبْتُ مَعَكَ إِلَيْهِ، قَالَتْ: نَعَمْ.

فَمَضَت مَعَهَا حَتَّى وَجَدَتْ أَبَا بَكْرٍ صَرِيعاً دَنِفاً، فَدَنَتْ مِنْهُ فَاطِمَةُ، وَأَعْلَنَتْ بِالصِّيَاحِ، وَقَالَتْ: إِنَّ قَوْماً نَالُوا مِنْكَ لأَهْلُ فِسْقٍ، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَنْتَقِمَ اللَّهُ لَكَ.

قَالَ: مَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ؟

قَالَتْ: هَذِهِ أُمُّكَ تَسْمَعُ، قَالَ: لاَ عَيْنَ عَلَيْكِ مِنْهَا.

قَالَتْ: سَالِمٌ صَالِحٌ.

قَالَ: أَنَّى هُوَ؟

قَالَتْ: فِي دَارِ الأَرْقَمِ، قَالَ: فَإِنَّ لِلَّهِ عَلَيَّ أَلِيَّةً[1] أَنْ لاَ أَذُوقَ طَعَاماً وَلاَ شَرَاباً، أَوْ آتِيَ رَسُولَ اللَّهِ. فَأَمْهَلَتَاهُ حَتَّى إِذَا هَدَأَ الرَّجُلُ وَسَكَنَ النَّاسُ، خَرَجَتَا بِهِ يَتَّكِئُ عَلَيْهِمَا، حَتَّى دَخَلَتَا بِهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَانْكَبَّ عَلَيْهِ فَقَبَّلَهُ، وَانْكَبَّ عَلَيْهِ المُسْلِمُونَ. وَرَقَّ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رِقَّةً

(١) ألية: يميناً.

شَدِيدَةً. فقَالَ أَبُو بَكْرٍ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي لَيْسَ بِي إِلاَّ مَا نَالَ الفَاسِقُ مِنْ وَجْهِي وَهَذِهِ أُمِّي بَرَّةٌ بِوَالِدَيْهَا، وَأَنْتَ مُبَارَكٌ فادْعُهَا إِلَى اللَّهِ، وَادْعُ اللَّهَ لَهَا، عَسَى أَنْ يَسْتَنْقِذَهَا بِكَ مِنَ النَّارِ، فَدَعَا لَهَا فَأَسْلَمَتْ. وَبَايَعَتْ.

وَرِثَتْ أُمُّ الخَيْرِ أَبَا بَكْرٍ. وَمَاتَتْ قَبْلَ زَوْجِهَا أَبِي قُحَافَةَ بِأَشْهُرٍ.

الفصل الثاني

إِخْوَةُ الصِّدِّيقِ

يَبْدُو - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ الإِنْجَابَ فِي أُسْرَةِ الصِّدِّيقِ قَلِيلٌ، أَوْ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَعِيشَ لَهُمْ أَوْلادٌ، حَتَّى سَمَّتْ وَالِدَةُ الصِّدِّيقِ أُمُّ الخَيْرِ أَوْلاَدَهَا عَتِيقٌ، وَمُعْتِقٌ، وَمُعَيْتِقٌ، أَوْ لَقَّبَتْهُمْ بِذَلِكَ حِيْنَ اسْتَوْهَبَتْهُمُ اللَّهَ. وَلَمْ يَعِشْ إِلاَّ أَبُو بَكْرٍ (عَتِيقٌ) وَمَاتَ مُعْتِقٌ وَمُعَيْتِقٌ.

وَكَانَ لِلأُسْرَةِ مِنَ البَنَاتِ: أُمُّ فَرْوَةَ، وَقُرَيْبَةُ، وَأُمُّ عَامِرٍ.

١ - أُمُّ فَرْوَةَ:

وَقَدْ تَزَوَّجَهَا الأَشْعَثُ بنُ قَيْسٍ الكِنْدِيُّ. وَكَانَ الأَشْعَثُ قَدْ وَفَدَ عَلَى النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي سَبْعِينَ مِنْ كِنْدَةَ، ثُمَّ ارْتَدَّ فِي نَاسٍ مِنْ كِنْدَةَ، فَحُوصِرَ، وَجِيءَ بِهِ إِلَى الصِّدِّيقِ أَسِيراً، فَطَلَبَ مِنْهُ الأَمَانَ، وَأَنْ يُسْلِمَ، فَمَنَّ عَلَيْهِ فَأَطْلَقَ سَرَاحَهُ وَزَوَّجَهُ أُخْتَهُ أُمَّ فَرْوَةَ.

وَيُرْوَى أَنَّ الأَشْعَثَ دَخَلَ إِثْرَ زَوَاجِهِ أُمَّ فَرْوَةَ سُوقَ الإِبِلِ، وَاخْتَرَطَ سَيْفَهُ لاَ يَرَى نَاقَةً وَلاَ جَمَلاً إِلاَّ عَرْقَبَهُ. وَصَاحَ النَّاسُ: كَفَرَ الأَشْعَثُ، ثُمَّ طَرَحَ سَيْفَهُ، وَقَالَ: وَاللَّهِ مَا كَفَرْتُ، وَلَكِنَّ هَذَا الرَّجُلَ زَوَّجَنِي أُخْتَهُ، وَلَوْ كُنَّا فِي بِلاَدِنَا لَكَانَتْ لَنَا وَلِيمَةٌ غَيْرُ هَذِهِ. يَا أَهْلَ المَدِينَةِ انْحَرُوا وَكُلُوا، وَيَا أَهْلَ الإِبِلِ، تَعَالُوْا خُذُوا شَرَوَاهَا (مِثْلَهَا).

وَكَانَ الأَشْعَثُ مِنَ الأَبْطَالِ المَعْدُودِينَ. وَأَنْجَبَتْ لَهُ أُمُّ فَرْوَةَ: مُحَمَّداً، وَإِسْحَاقَ، وَإِسْمَاعِيلَ، وَحُبَابَةَ، وَقُرَيْبَةَ.

٢ ـ قُرَيْبَةُ:

تَزَوَّجَتْ مِنْ قَيْسِ بنِ سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ الأَنْصَارِيِّ، وَقَدْ عُرِفَ قَيْسٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِالطُّولِ، وَالجُودِ، وَالبُطُولَةِ، وَالدَّهَاءِ.

قَالَ قَيْسٌ لِزَوْجَتِهِ قُرَيْبَةَ أُخْتِ الصِّدِّيقِ: لِمَ قَلَّ عُوَّادِي؟ قَالَتْ: لِلدَّيْنِ، فَأَرْسَلَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ بِصَكِّهِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي مَالاً وَفَعَالاً، فَإِنَّهُ لاَ تَصْلُحُ الفَعَالُ إِلاَّ بِالمَالِ.

وَلَمْ تُنْجِبْ قُرَيْبَةُ لِقَيْسِ بنِ سَعْدٍ.

٣ ـ أُمُّ عَامِرٍ:

وَتزَوَّجَهَا عَامِرُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَوَلَدَتْ لَهُ بِنْتاً تُدْعَى ضَعِيفَةَ. وَالبَنَاتُ الثَّلَاثُ (أَخَوَاتُ الصِّدِّيقِ) شَقِيقَاتٌ، وَأُمُّهُنَّ هِنْدُ بِنْتُ نُقَيْدِ بنِ بُجَيْرِ بنِ عَبْدِ بنِ قُصَيٍّ.

الفصل الثالث

زَوْجَاتُ الصِّدِّيقِ

تَزَوَّجَ الصِّدِّيقُ قَبْلَ الإِسْلَامِ أُمَّ رُومَانَ مِنْ كِنَانَةَ، وَقُتَيْلَةَ بِنْتَ عَبْدِ العُزَّى مِنْ بَنِي عَامِرٍ مِنْ قُرَيْشٍ.

وَتَزَوَّجَ فِي الإِسْلَامِ أَسْمَاءَ بِنْتَ عُمَيْسٍ الخَثْعَمِيَّةَ، وَحَبِيبَةَ بِنْتَ خَارِجَةَ الخَزْرَجِيَّةَ الأَنْصَارِيَّةَ.

١ ـ أُمُّ رُومَانَ:

وَاخْتُلِفَ فِي اسْمِهَا فَقِيلَ: زَيْنَبُ، وَقِيلَ: دَعْدُ بِنْتُ عَامِرِ بنِ عُوَيْمِرِ بنِ عَبْدِ شَمْسٍ مِنْ بَنِي فِرَاسِ بنِ غَنَمِ بنِ مَالِكِ بنِ كِنَانَةَ.

كَانَتْ أُمُّ رُومَانَ عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بنِ الحَارِثِ الأَزْدِيِّ، وَقَدِمَ بِهَا إِلَى مَكَّةَ، فَحَالَفَ أَبَا بَكْرٍ قَبْلَ الإِسْلَامِ، وَعَاشَ فِي مَكَّةَ، وَأَنْجَبَتْ لَهُ أُمُّ رومَانَ الطُّفَيْلَ بنَ عَبْدِ اللَّهِ، ثُمَّ تُوفِّيَ، وَخَلَفَهُ أَبُو بَكْرٍ عَلَى أُمِّ رُومَانَ، وَأَنْجَبَتْ لَهُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ

وَجَاءَ الإِسْلَامُ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ مِنَ السَّابِقِينَ، وَأَسْلَمَتْ زَوْجُهُ أُمُّ رُومَانَ، وَبَايَعَتْ. وَكَانَتْ عُنْصُرَ بِنَاءٍ لِلدَّعْوَةِ. وَأَنْجَبَتْ لأَبِي بَكْرٍ فِي هَذِهِ المَرْحَلَةِ عَائِشَةَ الصِّدِّيقَةَ.

وَجَاءَتِ الهِجْرَةُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى المَدِينَةِ، وَهَاجَرَ أَبُو بَكْرٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَلَمَّا اسْتَقَرَّتْ إِقَامَةُ أَبِي بَكْرٍ، تَبِعَتْهُ أُسْرَتُهُ مَعَ ابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ، وَمِنَ الأُسْرَةِ زَوْجُهُ أُمُّ رُومَانَ، وَابْنَتُهُ عَائِشَةُ وَبَقِيَّةُ أَهْلِهِ، وَمَعَهُمْ أَيْضاً طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللَّهِ.

تُوفِّيَتْ أُمُّ رُومَانَ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِالمَدِينَةِ فِي ذِي الحِجَّةِ سَنَةَ سِتٍّ مِنَ الهِجْرَةِ. وَلَمَّا دُلِّيَتْ أُمُّ رُومَانَ فِيْ قَبْرِهَا، نَزَلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَبْرِهَا، وَاسْتَغْفَرَ لَهَا وَقَالَ: اللَّهُمَّ لَمْ يَخْفَ عَلَيْكَ مَا لَقِيَتْ أُمُّ رُومَانَ فِيكَ وَفِي رَسُولِكَ. وَقَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى امْرَأَةٍ مِنَ الحُورِ العِينِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى أُمِّ رُومَانَ(١).

٢ ـ قُتَيْلَةُ بِنْتُ عَبْدِ العُزَّى العَامِرِيَّةُ القُرَشِيَّةُ:

وَاخْتُلِفَ فِي إِسْلَامِهَا، وَأَنْجَبَتْ لأَبِي بَكْرٍ عَبْدَ اللَّهِ

(١) طبقات ابن سعد ٨ ص ٢٧٦ - ٢٧٧.

وَأَسْمَاءَ.

٣ ـ حَبِيبَةُ بِنْتُ خَارِجَةَ

ابنِ زَيْدِ بن أَبِي زُهَيْرٍ مِنْ بَنِي الحَارِثِ مِنَ الخَزْرَجِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ قَدْ نَزَلَ فِي دَارِ أَبِيهَا خَارِجَةَ بنِ زَيْدٍ يَوْمَ هِجْرَتِهِ وَنُزُولِهِ المَدِينَةَ، وَبَقِيَ بَيْنَهُمْ بِالسُّنْحِ حَتَّى تُوفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَتُوفِّيَ أَبُو بَكْرٍ، وَزَوْجُهُ حَبِيبَةُ حَامِلٌ، وَقَدْ وَضَعَتْ بَعْدَ وَفَاتِهِ فَتَاةً سُمِّيَتْ أُمَّ كُلْثُومٍ، وَقَدْ تَزَوَّجَ أُمَّ كُلْثُومٍ هَذِهِ طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَأَنْجَبَتْ لَهُ عَائِشَةَ بِنْتَ طَلْحَةَ الَّتِي عُرِفَتْ بِجَمَالِهَا.

أَمَّا حَبِيبَةُ فَقَدْ تَزَوَّجَهَا بَعْدَ وَفَاةِ أَبِي بَكْرٍ خُبَيْبُ بنُ أَسَافٍ الأَوْسِيُّ الأَنْصَارِيُّ.

٤ ـ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ الخَثْعَمِيَّةُ:

أَسْلَمَتْ قَبْلَ دُخُولِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دَارَ الأَرْقَمِ بنِ أَبِي الأَرْقَمِ بِمَكَّةَ، وَبَايَعَتْ، وَهَاجَرَتْ إِلَى أَرْضِ الحَبَشَةِ مَعَ زَوْجِهَا جَعْفَرِ بنِ أَبِي طَالِبٍ، وَوَلَدَتْ لَهُ هُنَاكَ عَبْدَ اللَّهِ، وَمُحَمَّداً، وَعَوْناً.

وَرَجَعَتْ مَعَ زَوْجِهَا جَعْفَرٍ إِلَى المَدِينَةِ، وَرَسُولُ اللَّهِ،

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُحَاصِرُ خَيْبَرَ. وَسُرَّ رَسُولُ اللَّهِ بِعَوْدَتِهِمْ سُرُوراً كَبِيراً. وَقَالَ لَهَا عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ: يَا حَبَشِيَّةُ سَبَقْنَاكُمْ بِالهِجْرَةِ. فَقَالَتْ: أَيْ لَعَمْرِيْ لَقَدْ صَدَقْتَ، كُنْتُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ يُطْعِمُ جَائِعَكُمْ، وَيُعَلِّمُ جَاهِلَكُمْ، وَكُنَّا البُعَدَاءَ الطُّرَدَاءَ، أَمَا وَاللَّهِ لآتِيَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلأَذْكُرَنَّ ذَلِكَ لَهُ. فَأَتَتِ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: لِلنَّاسِ هِجْرَةٌ وَاحِدَةٌ وَلَكُمْ هِجْرَتَانِ.

وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّ أَسْمَاءَ بِنْتَ عُمَيْسٍ قَالَتْ: إِنَّ رِجَالاً يَفْخَرُونَ عَلَيْنَا وَيَزْعُمُونَ أَنَّا لَسْنَا مِنَ المُهَاجِرِينَ الأَوَّلِينَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَلْ لَكُمْ هِجْرَتَانِ، هَاجَرْتُمْ إِلَى أَرْضِ الحَبَشَةِ وَنَحْنُ مَرْهَنُونَ بِمَكَّةَ، ثُمَّ هَاجَرْتُمْ بَعْدَ ذَلِكَ.

وَاسْتُشْهِدَ زَوْجُهَا جَعْفَرُ بنُ أَبِي طَالِبٍ فِي مُؤْتَةَ فِي جُمَادَى الأُولَى مِنَ السَّنَةِ الثَّامِنَةِ لِلْهِجْرَةِ. تَقولُ أَسْمَاءُ: أَصْبَحْتُ فِي اليَوْمِ الَّذِيْ أُصِيبَ فِيْهِ جَعْفَرُ وَأَصْحَابُهُ فَأَتَانِي رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَقَدْ هَنَأْتُ، يَعْنِي دَبَغْتُ، أَرْبَعِينَ إِهَاباً مِنْ أَدَمٍ، وَعَجَنْت عَجِينِي، وَأَخَذْتُ بَنِيَّ فَغَسَلْتُ وُجُوهَهُمْ وَدَهَنْتُهُمْ، فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ فَقَالَ: يَا أَسْمَاءُ أَيْنَ بَنُو جَعْفَرٍ؟. فَجِئْتُ بِهِمْ إِلَيْهِ، فَضَمَّهُمْ وَشَمَّهُمْ، ثُمَّ ذَرَفَتْ عَيْنَاهُ

فَبَكَى، فَقُلْتُ: أَيْ رَسُولَ اللَّهِ لَعَلَّكَ بَلَغَكَ عَنْ جَعْفَرٍ شَيْءٌ. قَالَ: نَعَمْ قُتِلَ اليَوْمَ. قَالَتْ: فَقُمْتُ أَصِيحُ فَاجْتَمَعَتْ إِلَيَّ النِّسَاءُ. قَالَتْ: فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ يَقُولُ: يَا أَسْمَاءُ لاَ تَقُولِي هَجْراً، وَلاَ تَضْرِبِي صَدْراً. قَالَتْ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ حَتَّى دَخَلَ عَلَى ابْنَتِهِ فَاطِمَةَ، وَهِيَ تَقُولُ: وَاعَمَّاهُ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَلَى مِثْلِ جَعْفَرٍ فَلْتَبْكِ البَاكِيَةُ. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: اصْنَعُوا لآلِ جَعْفَرٍ طَعَاماً فَقَد شُغِلُوا عَنْ أَنْفُسِهِمُ اليَوْمَ.

وَبَعْدَ انْقِضَاءِ عِدَّةِ أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ تَزَوَّجَهَا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وَحَمَلَتْ مِنْهُ. وَسَارَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَعَهُ المُسْلِمُونَ إِلَى الحَجِّ، وَذَلِكَ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ، وَبَيْنَمَا هُمْ فِي ذِي الحُلَيْفَةِ إِذْ وَضَعَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ وَلَدَهَا مُحَمَّدَ بنَ أَبِي بَكْرٍ، فَهَمَّ أَبُو بَكْرٍ بِرَدِّهَا فَسَأَلَ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: مُرْهَا فَلْتَغْتَسِلْ ثُمَّ تُحْرِمُ.

وَأَوْصَى أَبُو بَكْرٍ قَبْلَ وَفَاتِهِ أَنْ تُغَسِّلَهُ زَوْجُهُ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ.

وَتَزَوَّجَت أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ بَعْدَ أَبِي بَكْرٍ عَلِيَّ بنَ أَبِي طَالِبٍ، فَوَلَدَتْ لَهُ يَحْيَى وَعَوْناً.

وَيُرْوَى أَنَّهُ تَفَاخَرَ وَلَدَا أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ: مُحَمَّدُ بنُ جَعْفَرٍ، وَمُحَمَّدُ بنُ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا: أَنَا أَكْرَمُ مِنْكَ وَأَبِي خَيْرٌ مِنْ أَبِيكَ، فَقَالَ لَهَا عَلِيٌّ: اقْضِي بَيْنَهُمَا يَا أَسْمَاءُ: قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ شَابّاً مِنَ العَرَبِ خَيْراً مِنْ جَعْفَرٍ، وَلاَ رَأَيْتُ كَهْلاً خَيْراً مِنْ أَبِي بَكْرٍ. فَقَالَ عَلِيٌّ: مَا تَرَكْتِ لَنَا شَيْئاً، وَلَوْ قُلْتِ غَيْرَ الَّذِيْ قُلْتِ لَمَقَتُّكِ. فَقَالَتْ أَسْمَاءُ: إِنَّ ثَلاَثَةً أَنْتَ أَخَسُّهُمْ لَخِيَارٌ.

وَيُرْوَى أَنَّ عَلِيَّ بنَ أَبِي طَالِبٍ قَالَ: كَذَبَتْكُمْ مِنَ النِّسَاءِ الحَارِقَةُ فَمَا ثَبَتَتْ مِنْهُمُ امْرَأَةٌ إِلاَّ أَسْمَاءَ بِنْتَ عُمَيْسٍ[1].

وَيُقَالُ: إِنَّهُ لَمَّا بَلَغَهَا قَتْلُ وَلَدِهَا مُحَمَّدِ بنِ أَبِي بَكْرٍ بِمِصْرَ قَامَتْ إِلَى مَسْجِدِ بَيْتِهَا، وَكَظَمَتْ غَيْظَهَا، حَتَّى شَخَبَ ثَدْيَاهَا دَماً[2].

وَرُبَّمَا يَتَسَاءَلُ بعْضُهُمْ فِي هَذَا العَصْرِ عَنْ هَذَا التَّنَقُّلِ كُلَّمَا مَاتَ زَوْجٌ، وَانْقَضَتْ عِدَّتُهَا انْتَقَلَتْ إِلَى زَوْجٍ آخَرَ، فَأَقُولُ: إِنَّ الخَلْفِيَّةَ غَيْرَ الصَّحِيحَةِ الَّتِي تَأَثَّرْنَا بِهَا فِي هَذَا الوَقْتِ قَدْ جَعَلَتْنَا

---

(١) طبقات ابن سعد.

(٢) الإصابة.

نَنْظُرُ إِلَى الأَمْرِ الطَّبِيعِيِّ السَّلِيمِ الفِطْرِيِّ أَنَّهُ غَلَطٌ، وَالأَمْرِ الشَّاذِ الغَلَطِ أَنَّهُ صَحِيحٌ. فَإِذَا مَاتَتِ المَرْأَةُ قُلْنَا لِلرَّجُلِ تَزَوَّجْ، وَإِذَا مَاتَ الرَّجُلُ قُلْنَا: سَاعِدُوا أَرْمَلَةَ فُلانٍ فَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَحْتَاجُ إِلَى المَرْأَةِ وَالمَرْأَةَ لاَ تَحْتَاجُ إِلَى الرَّجُلِ بَلْ تَحْتَاجُ إِلَى المَالِ، وَالعَكْسُ هُوَ الصَّحِيحُ. فَالمَرْأَةُ لاَ تَحْتَاجُ إِلَى المَالِ وَالمُسَاعَدَةِ فَقَطْ، وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الحَاجَاتُ المَادِيَّةُ أَسَاسِيَّةً لَهَا لِلْبَقَاءِ فَإِنَّهَا بِحَاجَةٍ إِلَى أَشْيَاءٍ مَعْنَوِيَّةٍ أُخْرَى وَهِيَ جَوَانِبُ نَفْسِيَّةٌ مِلِحَّةٌ لاَ تَسْتَقِرُّ دُونَهَا النَّفْسُ، وَلاَ تَجِدُ الرَّاحَةَ وَالطُّمَأْنِينَةَ، وَهِيَ الرَّجُلُ، وَالعَاطِفَةُ الَّتِي قَدْ يَكُونُ الإِنْسَانُ بِحَاجَةٍ إِلَيْهَا فِي مَرْحَلَةِ الشَّيْخُوخَةِ. وَمَا يُؤَدِّيهِ الزَّوْجَانِ بَعْضُهُمَا إِلَى بَعْضٍ لاَ يُمْكِنُ تَأْدِيَتُهُ مِنْ آخَرِينَ، فَالمَرْأَةُ بِحَاجَةٍ إِلَى الزَّوْجِ الَّذِي يُوَاسِيهَا، وَيحْنُو عَلَيْهَا فِي كِبَرِهَا، وَيَحْمِيهَا، وَإِنْ تَجَالَدَتْ وَصَبَرَتْ عَلَى فَقْدِهِ فِي سِنِّ الصِّبَا مُكْرَهَةً. فَالمَرْأَةُ بِحَاجَةٍ إِلَى الرَّجُلِ فِي الشَّيْخُوخَةِ أَكْثَرُ مِنْ حَاجَةِ الرَّجُلِ لِلْمَرْأَةِ. وَمَا يَتَصَرَّفُ النَّاسُ اليَوْمَ عَكْسَ هٰذِهِ الفِطْرَةِ الَّتِي كَانَ المُسْلِمُونَ يَحْرِصُونَ عَلَى مُرَاعَاتِهَا. لِذَا كَانَ إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ، وَانْتَهَتْ عِدَّةُ المَرْأَةِ، أَسْرَعَ أَهْلُ الخَيْرِ لِزَوَاجِ المَرْأَةِ كَيْ لاَ تُحْرَمَ مِمَّا تَطْلُبُهُ، وَغَالِباً مَا يَتَقَدَّمُ إِلَى طَلَبِ المَرْأَةِ الَّتِي تَفْقِدُ زَوْجَهَا مَنْ يَكُونُ فِي مُسْتَوَى مَنْ

فَقَدَتْ، لِأَسْبَابٍ نَفْسِيَّةٍ عِنْدَ المَرْأَةِ وَكَيْ لاَ تَجْرَحَ زَوْجَهَا بِكَلِمَةِ كَانَ زَوْجِي... فَنَرَى أَنَّ أَسْمَاءَ بِنْتَ عُمَيْسٍ قَدْ تَزَوَّجَتْ جَعْفَرَ بنَ أَبِي طَالِبٍ، وَأَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ، وَعَلِيَّ بنَ أَبِي طَالِبٍ، فَكُلُّهُمْ فِي مُسْتَوًى وَاحِدٍ.

وَتُوفِّيَتْ أَسْمَاءُ بَعْدَ اسْتِشْهَادِ عَلِيٍّ بِقَلِيلٍ فِي أَوَاخِرِ سَنَةِ أَرْبَعِينَ مِنَ الهِجْرَةِ.

الفصل الرابع

أَوْلَادُ الصِّدِّيقِ

لأَبِي بَكْرٍ ثَلَاثَةٌ مِنَ البَنِينَ وَثَلَاثٌ مِنَ البَنَاتِ، فَأَمَّا البَنُونَ فَهُمْ:

١ ـ عَبْدُ الرَّحْمَنِ:

وَأُمُّه أُمُّ رُومَانَ، فَهُوَ شَقِيقُ أُمِّ المُؤْمِنِينَ، عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَهُوَ أَكْبَرُ أَوْلَادِ أَبِي بَكْرٍ سِنًّا، وَتَأَخَّرَ فِي إِسْلَامِهِ. كَانَ مِنَ الرُّمَاةِ المَعْدُودِينَ، وَالأَبْطَالِ المَعْرُوفِينَ، لَهُ مَوَاقِفُ فِي الجَاهِلِيَّةِ وَالإِسْلَامِ.

شَهِدَ بَدْراً وَأُحُداً مَعَ المُشْرِكِينَ. وَنَادَى أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ يَوْمَ بَدْرٍ ابْنَهُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ مَعَ المُشْرِكِينَ فَقَالَ: أَيْنَ مَالِي يَا خَبِيثُ؟ فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ:

لَمْ يَبْقَ غَيْرُ شِكَّةٍ وَيَعْبُوبُ   وَصَارِمٌ يَقْتُلُ ضُلَّالَ الشِّيبِ

وَدَعَا إِلَى المُبَارَزَةِ يَوْمَ بَدْرٍ، فَقَامَ إِلَيْهِ أَبُوهُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

لِيُبَارِزَهُ، وَلِيُعْلِنَ لِلدُّنْيَا أَنَّهُ لاَ رَابِطَةَ قُرْبَى وَلاَ صِلَةَ نَسَبٍ، وَلاَ حَنَانَ أُبُوَّةٍ أَمَامَ العَقِيدَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأَبِي بَكْرٍ متِّعْنَا بِنَفْسِكَ.

وَكَانَ إِذَا أَقْبَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فِي القِتَالِ ضِدَّ المُسْلِمِينَ دَعَا عَلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ وَأُمُّهُ بِالهَلاَكِ، وَإِذَا أَدْبَرَ دَعَا بِالتَّوْبَةِ.

وَارْتَحَلَ فِي تِجَارَةٍ إِلَى الشَّامِ، وَرَأَى لَيْلَى ابْنَةَ الجُودِيِّ أَمِيرِ غَسَّانَ فِيْ جِلِّقَ، فَهَامَ بِهَا وَنَظَمَ بِهَا الشِّعْرَ، وَمِمَّا قَالَ:

تَذَكَّرْتُ لَيْلَى وَالسَّمَاوَةُ دُونَهَا   فَمَا لاِبْنَةِ الجودِيِّ لَيْلَى وَمَالِيَا
وَأَنَّى تُعَاطِي قَلْبَهُ حَارِثِيَّةٌ   تَدَمَّنُ بُصْرَى أَوْ تَحِلُّ الجَوَابِيَا
وَأَنَّى تُلاَقِيهَا بَلَى وَلَعَلَّهَا   إِنِ النَّاسُ حَجُّوا قَابِلاً أَنْ تُوَافِيَا

فَلَمَّا كَانَ فَتْحُ دِمَشْقَ، وَسَمِعَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، بِشِعْرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ فِي لَيْلَى بِنْتِ الجُودِيِّ، وَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فِي جَيْشِ الفَتْحِ، طَلَبَ الخَلِيفَةُ مِنْ أَمِيرِ الجَيْشِ أَنْ تَكُونَ لَيْلَى مِنْ نَصِيبِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ مِنَ السَّبَايَا، وَكَانَ ذَلِكَ، وَتَزَوَّجَهَا، وَآثَرَهَا عَلَى بَقِيَّةِ نِسَائِهِ، فَلاَمَتْهُ شَقِيقَتُهُ أُمُّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَلَمْ يُجْدِ اللَّوْمُ، ثُمَّ إِنَّهُ جَفَاهَا حَتَّى شَكَتْهُ إِلَى عَائِشَةَ، فَقَالَتْ لَهُ: أَفْرَطْتَ فِي الأَمْرَيْنِ، فَإِمَّا أَنْ تُنْصِفَهَا، وَإِمَّا أَنْ تُجَهِّزَهَا إِلَى أَهْلِهَا، فَجَهَّزَهَا إِلَى أَهْلِهَا.

وَهَدَى اللَّهُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ لِلإِسلامِ فَأَسْلَمَ فِي هُدْنَةِ الحُدَيْبِيَةِ، وَهَاجَرَ، وَشَهِدَ المَشَاهِدَ بَعْدَهَا، وَهُوَ مِنَ الشُّجْعَانِ البَارِزِينَ. وَقَدْ أَمَرَهُ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ أَنْ يَسِيرَ مَعَ أُخْتِهِ عَائِشَةَ إِلَى التَّنْعِيمِ، لِتُهِلَّ بِالعُمْرَةِ مِنْ هُنَاكَ.

وَحَضَرَ مَعْرَكَةَ اليَمَامَةِ، وَكَانَ مِنْ أَبْطَالِهَا، وَقَتَلَ سَبْعَةً مِنْ كِبَارِ المُرْتَدِّينَ، كَمَا شَارَكَ فِي فُتُوحِ الشَّامِ، وَحَضَرَ فَتْحَ دِمَشْقَ.

وَشَهِدَ مَعْرَكَةَ الجَمَلِ مَعَ أُخْتِهِ عَائِشَةَ، وَكَانَ أَخُوهُمَا مُحَمَّدٌ بِجَانِبِ خَلِيفَةِ المُسْلِمِينَ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ.

وَأَبَى أَخْذَ البَيْعَةِ لِيَزِيدَ عِنْدَمَا حَضَرَ مُعَاوِيَةُ إِلَى المَدِينَةِ لِهَذَا، وَخَرَجَ إِلَى مَكَّةَ قَبْلَ أَنْ تَتِمَّ البَيْعَةُ لِيَزِيدَ. وَذَلِكَ عَام ٥٨هـ [(١)]. وَتُوفِيَ فَجْأَةً فِي نَوْمَةٍ نَامَهَا فِي مَوْضِعٍ عَلَى بُعْدِ عَشْرَةِ أَمْيَالٍ مِنْ مَكَّةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الطَّائِفِ، وَنُقِلَ إِلَى مَكَّةَ وَدُفِنَ بِهَا.

وَلَمَّا بَلَغَ خَبَرُهُ أُخْتَهُ عَائِشَةَ خَرَجَتْ مِنَ المَدِينَةِ حَاجَّةً حَتَّى وَقَفَتْ عَلَى قَبْرِهِ، وَبَكَتْ عَلَيْهِ، وَتَمَثَّلَتْ قَوْلَ مُتَمِّمِ بنِ نُوَيْرَةَ فِي

---

(١) هناك روايات أنه توفي عام ٥٣، وهو غير صحيح.

أَخِيْهِ مَالِكٍ.

وَكُنَّا كَنَدَمَانِي جَذِيمَةَ حُقْبَةً مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ لَنْ يَتَصَدَّعَا

فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكاً لِطُولِ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبِتْ لَيْلَةً مَعَا

ثُمَّ قَالَتْ: وَاللَّهِ لَوْ حَضَرْتُكَ دَفَنْتُكَ حيْث مِتَّ، وَلَمَا بَكَيْتُكَ[1].

وَدَخَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَلَى عَائِشَةَ يَوْمَ تُوفِّيَ سَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ، فَتَوَضَّأَ. فَقَالَتْ لَهُ: أَسْبغِ الوُضُوءَ. سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ[2]». وَقَدْ تُوفِّيَ سَعْدٌ سَنَةَ ٥٥هـ.

رَوَى ثَمَانِيَةَ أَحَادِيثَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اتَّفَقَ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَلَى ثَلَاثَةٍ مِنْهَا. وَرَوَى عنْهُ ابْنَاهُ: عَبْدُ اللَّهِ، وَحَفْصَةُ، وَابْنُ أَخِيْهِ القَاسِمُ بنُ مُحَمَّدٍ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ أَبِي لَيْلَى، وَأَبُو عُثْمَانَ النَّهْدِيُّ، وَابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ، وَعَمْرُو بنُ أَوْسٍ الثَّقَفِيُّ[3].

وَمِنْ أَوْلَادِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: مُحَمَّدٌ، وَعَبْدُ اللَّهِ، وَحَفْصَةُ.

---

(١) الإصابة.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) سير أعلام النبلاء.

٢ - عَبْدُ اللَّهِ:

وَأُمُّهُ قُتَيْلَةُ بِنْتُ عَبْدِ العُزَّى، وَشَقِيقَتُهُ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، أَسْلَمَ مُبَكِّراً، وَلَمَّا كَانَتْ هِجْرَةُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ، كَانَ عَبْدُ اللَّهِ يَأْتِيهِمَا بِأَخْبَارِ قُرَيْشٍ، وَهُوَ غُلَامٌ شَابٌّ فَطِنٌ، فَكَانَ يَبِيتُ عِنْدَهُمَا، وَيَخْرُجُ مِنَ السَّحَرِ فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ، وَلَمَّا رَجَعَ عَبْدُ اللَّهِ بنُ أُرَيْقِطَ دَلِيلُهُمَا فِي الطَّرِيقِ بَعْدَ أَنْ وَصَلَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى المَدِينَةَ أَخْبَرَ عَبْدَ اللَّهِ بنَ أَبِي بَكْرٍ بِوُصُولِ أَبِيهِ إِلَى المَدِينَةِ فَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ بِعِيَالِ أَبِي بَكْرٍ، وَصَحِبَهُمْ طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللَّهِ حَتَّى قَدِمُوا المَدِينَةَ.

شَهِدَ فَتْحَ مَكَّةَ وَحُنَيْناً وَالطَّائِفَ مَعَ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأُصِيبَ بِسَهْمٍ فَجُرِحَ، فَانْدَمَلَ جُرْحُهُ، ثُمَّ انْتَقَضَ فَمَاتَ فِي خِلَافَةِ أَبِيهِ فِي شَوَّالَ سَنَةَ إِحْدَى عَشَرَةَ، وَدُفِنَ بَعْدَ الظُّهْرِ، وَصَلَّى عَلَيْهِ أَبُوهُ، وَنَزَلَ فِي قَبْرِهِ أَخُوهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَعُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، وَطَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللَّهِ. وَيُعَدُّ مِنْ شُهَدَاءِ الطَّائِفِ.

وَبَقِيَ السَّهْمُ الَّذِي أُصِيبَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ لَدَى الصِّدِّيقِ حَتَّى جَاءَ وَفْدُ ثَقِيفٍ إِلَى المَدِينَةِ فِي رَمَضَانَ مِنَ العَامِ التَّاسِعِ لِلْهِجْرَةِ فَسَأَلَهُمْ أَبُو بَكْرٍ: هَلْ فِيكُمْ مَنْ يَعْرِفُ هَذَا السَّهْمَ؟ فَقَالَ

سَعِيدُ بنُ عُبَيْدِ اللَّهِ بنِ أَبِي أُسَيْدٍ الثَّقَفِيُّ: أَنَا بَرَيْتُهُ وَرِشْتُهُ وَأَنَا رَمَيْتُ بِهِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: الحَمْدُ لِلَّهِ أَكْرَمَ اللَّهُ عَبْدَ اللَّهِ بِيَدِكَ، وَلَمْ يُهِنْكَ بِيَدِهِ[1].

وَيُقَالُ: إِنَّ أَبَا مِحْجَنٍ الثَّقَفِيَّ هُوَ الَّذِي رَمَى عَبْدَ اللَّهِ بنَ أَبِي بَكْرٍ.

وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بنُ أَبِي بَكْرٍ قَدْ تَزَوَّجَ عَاتِكَةَ بِنْتَ زَيْدِ بنِ عَمْرٍو العَدَوِيَّةَ، أُخْتَ سَعِيدِ بنِ زَيْدٍ أَحَدِ المُبَشَّرِينَ بِالجَنَّةِ، وَهِيَ ابْنَةُ عَمِّ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ، وَكَانَتْ امْرَأَةً ذَاتَ جَمَالٍ وَعَقْلٍ، وَكَانَ مُعْجَباً بِهَا فَشَغَلَتْهُ عَنْ أُمُورِهِ، فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ طَلِّقْهَا، فَطَلَّقَهَا، ثُمَّ نَدِمَ فَقَالَ:

أَعَاتِكُ لاَ أَنْسَاكِ مَا ذَرَّ شَارِقٌ وَمَا لاَحَ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ مُحَلِّقُ
أَعَاتِكُ قَلْبِي كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ لَدَيْكِ بِمَا تُخْفِي النُّفُوسُ مُعَلَّقُ
لَهَا خُلُقٌ جَزْلٌ وَرَأْيٌ وَمَنْصِبُ وَخُلْقٌ سَوِيٌّ فِي الحَيَاءِ وَمَنْطِقُ
فَلَمْ أَرَ مِثْلِي طَلَّقَ اليَوْمَ مِثْلَهَا وَلاَ مِثْلَهَا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ تُطَلَّقُ

وَلَمَّا عَلِمَ أَبُو بَكْرٍ بِهَذَا رَقَّ، لَهُ وَأَمَرَهُ بِمُرَاجَعَتِهَا، فَرَاجَعَهَا، وَقَالَ بَعْدَئِذٍ:

أَعَاتِكُ قَدْ طُلِّقْتِ مِنْ غَيْرِ رِيبَةٍ وَرُجِعْتِ لِلأَمْرِ الَّذِي هُوَ كَائِنُ
كَذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ غَادٍ وَرَائِحُ عَلَى النَّاسِ فِيهِ إِلْفَةٌ وَتَبَايُنُ
وَمَا زَالَ قَلْبِي لِلتَّفَرُّقِ طَائِراً وَقَلْبِي لِمَا قَدْ قَرَّبَ اللَّهُ سَاكِنُ
لِيُهْنِكِ إِنِّي لاَ أَرَى فِيكِ سَخْطَةً وَإِنَّكَ قَدْ تَمَّتْ عَلَيْكِ المَحَاسِنُ

---

(1) الإصابة.

فَإِنَّكِ مِمَّنْ زَيَّنَ اللَّهُ وَجْهَهُ   وَلَيْسَ لِـوَجْهٍ زَيَّـنَ اللَّهُ شَائِنُ

وَمَاتَ وَهِيَ عِنْدَهُ، فَرَثَتْهُ بِقَوْلِهَا:

فَلِلَّهِ عَيْنَا مَنْ رَأَى مِثْلَهُ فَتًـى   أَكَرَّ وَأَحْمَى فِي الهِيَاجِ وَأَصْبَرَا

إِذَا شُرِعَتْ فِيْهِ الأَسِنَّةُ خَاضَهَـا   إِلَى المَوْتِ حَتَّى يَتْرُكَ الرُّمْحَ أَحْمَرَا

فَـأَقْسَمْتُ لاَ تَنْفَكُّ عَيْنِي سَخِينَةً   عَلَيْكَ وَلاَ يَنفَكُّ جِلْدِي أَغْبَرَا

مَدَى الدَّهْرِ مَا غَنَّتْ حَمَامَةُ أَيْكَةٍ   وَمَا طَرَدَ اللَّيْلُ الصَّبَاحَ المُنَوَّرَا

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ لِعَاتِكَةَ عِنْدَمَا دَنَتْ مَنِيَّتُهُ لَكِ بُستَانِي وَلاَ تَتَزَوَّجِي بَعْدِيْ، فَأَبْدَتْ مُوَافَقَتَهَا، فَلَمَّا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا خَطَبَهَا ابنُ عَمِّهَا عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، فَذَكَرَتْ لَهُ بِمَا وَعَدَتْ عَبْدَ اللَّهِ، فَعَاتَبَهَا عَلَى ذَلِكَ، وَأَبَى عَلَيْهَا هَذِهِ المُخَالَفَةَ. وَتَزَوَّجَهَا.

قَالَتْ أُمُّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كُفِّنَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي بُرْدَيْ حَبِرَةٍ حَتَّى مَسَّا جِلْدَهُ، ثُمَّ نَزَعَهُمَا، فَأَمْسَكَهُمَا عَبْدُ اللَّهِ، لِيُكَفَّنَ فِيْهِمَا، ثُمَّ قَالَ: وَمَا كُنْتُ لِأُمْسِكَ شَيْئاً مَنَعَ اللَّهُ رَسُولَهُ مِنْهُ، فَتَصَدَّقَ بِهِمَا.

لَمْ يُنجِبْ عَبْدُ اللَّهِ إِلاَّ إِسْمَاعِيلَ، وَتُوفِّيَ إِسْمَاعِيلُ وَلاَ عَقِبَ لَهُ.

٣ ـ مُحَمَّدٌ:

أُمُّهُ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ، وُلِدَ فِي السَّنَةِ العَاشِرَةِ فِي ذِي الحُلَيْفَةِ وَقْتَ الإِحْرَامِ، والمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى الحَجِّ «حَجَّةِ الوَدَاعِ». وَبَعْدَ حَوَالَيْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ تُوفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَبَعْدَ سَنَتَيْنِ وَنِصْفٍ وَعَدَّةِ أَيَّامٍ تُوفِّيَ الصِّدِّيقُ.

تَزَوَّجَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ، أَسْمَاءَ بِنْتَ عُمَيْسٍ بَعْدَ انْقِضَاءِ عِدَّتِهَا، وَانْتَقَلَ مَعَهَا وَلَدُهَا مُحَمَّدٌ لِصِغَرِهِ إِلَى بَيْتِ عَلِيٍّ، وَتَرَعْرَعَ فِيْهِ.

أُعْطِيَ مُحَمَّدٌ إِحدَى بَنَاتِ يَزْدَجِرْدَ، كَمَا أُعْطِيَ عَبْدُ اللَّهِ بنُ عُمَرَ، وَالحُسَيْنُ بنُ عَلِيٍّ مِثْلَهُ. فَأَنْجَبْنَ لَهُمْ. فَكَانَ القَاسِمُ بنُ مُحَمَّدٍ، وَسَالِمُ بنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَعَلِيُّ زَيْنُ العَابِدِينَ بنِ الحُسَيْنِ، فَهُمْ أَبْنَاءُ خَالَةٍ، وَمِنْ أَعْلاَمِ عَصْرِهِمْ. وَكَانَ القَاسِمُ وَسَالِمُ مِنْ فُقَهَاءِ المَدِينَةِ السَّبْعَةِ الَّذِينَ هُمْ: سَعِيدُ بنُ المُسَيِّبِ، وَسُلَيْمَانُ بنُ يَسَارٍ، وَعُبَيْدُ اللَّهِ بنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَخَارِجَةُ بنُ زَيْدِ بنِ ثَابِتٍ، وَعُرْوَةُ بنُ الزُّبَيْرِ، وَالقَاسِمُ، وَسَالِمُ.

وُلِدَ القَاسِمُ بنُ مُحَمَّدٍ فِي خِلاَفَةِ عَلِيٍّ بنِ أَبِي طَالِبٍ،

وَقُتِلَ وَالِدُهُ فِي مِصْرَ، فَتَعَهَّدَتْهُ عَمَّتُهُ أُمُّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَتَعَلَّمَ مِنْهَا الكَثِيرَ. وَتُوفِّيَ القَاسِمُ عَامَ ١٠٨هـ، وَأَنْجَبَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ وأُمَّ فَرْوَةِ.

أَرْسَلَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ بِنَاءً عَلَى طلَبِ المِصْرِيينَ مُحَمَّدَ بنَ أَبِي بَكْرٍ وَالِياً عَلَى مِصْرَ، وَلَمَّا سَارَ إِلَيْهَا مَعَ بَعْضِهِمْ لَمْ يَلْبَثُوا أَنْ عَادُوا إِلَى المَدِينَةِ بِحُجَّةِ إِرْسَالِ كِتَابٍ مِنَ الخَلِيفَةِ يَدْعُو فِيهِ إِلَى قَتْلِ الوَالِي الجَدِيدِ وَعَدَدٍ مِنْهُمْ، وَأَثَارُوا الفِتْنَةَ مِنْ جَدِيدٍ فِي المَدِينَةِ. وَقُتِلَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عُثْمَانُ شَهِيداً، وَاسْتَمَرَّتِ الفِتْنَةُ حَتَّى قَامَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ بِالأَمْرِ.

شَهِدَ مُحَمَّدُ بنُ أَبِي بَكْرٍ مَعَ الخَلِيفَةِ عَلِيٍّ مَعْرَكَةَ الجَمَلِ، وَصِفِّينَ. ثُمَّ أَرْسَلَهُ وَالِياً عَلَى مِصرَ مِنْ قِبَلِهِ بَعْدَ أَنْ غَادَرَهَا قَيْسُ بنُ سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ رَاجِعاً إِلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ.

لَمْ يُحْرِزْ مُحَمَّدُ بنُ أَبِي بَكْرٍ النَّصْرَ عَلَى المُعَارِضِينَ فِي مِصْرَ، لِذَا أَرْسَلَ عَلِيٌّ وَالِياً مَكَانَهُ هُوَ الأَشْتَرُ النَّخْعِيُّ غَيْرَ أَنَّهُ قُتِلَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ مِمَّا جَعَلَ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ يَسْتَبْقِي مُحَمَّدَ بنَ أَبِي بَكْرٍ فِي وِلاَيَتِهِ.

سَارَ عَمْرُو بنُ العَاصِ إِلَى مِصْرَ، وَاسْتَطَاعَ دُخُولَهَا، وَهُزِمَ مُحَمَّدُ بنُ أَبِي بَكْرٍ، فَاخْتَفَى بِبَيْتِ امْرَأَةٍ، فَعُلِمَ مَكَانُهُ، فَأُخِذَ، وَقَتَلَهُ مُعَاوِيَةُ بنُ حُدَيْجٍ، وَدُفِنَ حَيْثُ قُتِلَ وَذَلِكَ عَامَ ٣٨هـ، وَبِذَا لَمْ يَتَجَاوَزْ الثَّامِنَةَ وَالعِشْرِينَ مِنَ العُمْرِ. وَقَدْ حَزِنَتْ عَلَيْهِ أُخْتُهُ أُمُّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ حُزْناً شَدِيداً. وَكَانَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ يُثْنِي عَلَيْهِ إِذْ كَانَ صَاحِبَ عِبَادَةٍ وَتَقْوَى.

أَمَّا بَنَاتُ أَبِي بَكْرٍ فَهُنَّ:

١ ـ أَسْمَاءُ: وَأُمُّهَا قُتَيْلَةُ بِنْتُ عَبْدِ العُزَّى فَهِيَ شَقِيقَةُ عَبْدِ اللَّهِ.

وُلِدَتْ فِي السَّنَةِ الرَّابِعَةِ عَشْرَةَ قَبْلَ البِعْثَةِ، وَأَسْلَمَتْ فِي الأَيَّامِ الأُولَى لِلْبِعْثَةِ. وَكَانَ لَهَا دَورُهَا بِالهِجْرَةِ مِنْ مَكَّةَ إِلَى المَدِينَةِ إِذْ كَانَتْ تَأْتِي بِالطَّعَامِ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلأَبِيهَا، وَبِمَا يَصْلُحُ لَهُمَا مِنْ ثِيَابٍ وَغَيْرِهَا، وَذَلِكَ كُلَّ يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ الثَّلاثَةِ الَّتِي قَضَيَاهَا فِي غَارِ ثَوْرٍ، وَعِنْدَمَا قَرَّرَا المُغَادَرَةَ جَاءَتْ إِلَيْهِمَا بِطَعَامِ الطَّرِيقِ، غَيْرَ أَنَّهَا نَسِيَتْ أَنْ تَجْعَلَ لِغِلافِ ذَلِكَ الطَّعَامِ عِصَاماً كَيْ يُعَلَّقَ بِرَحْلِ البَعِيرِ، فَلَمَّا ارْتَحَلا ذَهَبَتْ لِتُعَلِّقَ الطَّعَامَ فَإِذَا لَيْسَ لَهُ عِصَامٌ، فَأَخَذَتْ نِطَاقَها فَجَعَلَتْ نِصْفَهُ عِصَاماً، وَالنِّصْفَ الآخَرَ نِطَاقاً، فَسُمِّيَتْ ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ.

وَعَنْ أَسْمَاءَ أَنَّهَا قَالَتْ: أَتَى أَبُو جَهْلٍ فِي نَفَرٍ، فَخَرَجْتُ إِلَيْهِمْ فَقَالُوا: أَيْنَ أَبُوكِ؟ قُلْتُ: لاَ أَدْرِي ـ وَاللَّهِ ـ أَيْنَ هُوَ؟ فَرَفَعَ أَبُو جَهْلٍ يَدَهُ وَلَطَمَ خَدِّي لَطْمَةً خَرَّ فِيهَا قُرْطِي ثُمَّ ٱنْصَرَفُوا.

وَعَنْ أَسْمَاءَ: تَزَوَّجَتْ الزُّبَيْرَ بنَ العَوَّامِ، وَهَاجَرَتْ وَهِيَ حَامِلٌ مِنْهُ، وَوَضَعَتْ فِي قِبَاءَ وَلَدَهَا عَبْدَ اللَّهِ بنَ الزُّبَيْرِ فَكَانَ أَوَّلَ مَوْلُودٍ لِلْمُهَاجِرِينَ فِي المَدِينَةِ، أَوْ أَوَّلَ مَوْلُودٍ فِي الإِسْلاَمِ أَيْ بَعْدَ أَنْ تَأَسَّسَتْ لِلإِسلاَمِ دَوْلَةٌ.

تَقُولُ أَسْمَاءُ: تَزَوَّجَنِي الزُّبَيْرُ وَمَالَهُ فِي الأَرْضِ مَالٌ، وَلاَ مَمْلُوكٌ، وَلاَ شَيْءٌ غَيْرَ فَرَسِهِ. فَكُنْتُ أَعْلِفُ فَرَسَهُ، وأَكْفِيهِ مَؤُونَتَهُ وَأَسُوسُهُ، وَأَدَقُّ النَّوَى لِنَاضِحِهِ، وَأَعْلِفُهُ، وَأَسْقِيهِ المَاءَ، وَأَخْرِزُ غَرْبَهُ، وَأَعْجِنُ، وَلَمْ أَكُنْ أُحْسِنُ الخُبْزَ، فَكَان يَخْبِزُ لِي جَارَاتٌ لِي مِنَ الأَنْصَارِ، وَكُنَّ نِسْوَةَ صِدْقٍ. وُكُنْتُ أَنْقُلُ النَّوَى مِنْ أَرْضِ الزُّبَيْرِ الَّتِي أَقْطَعَهُ إِيَّاهَا رَسُولُ اللَّهِ عَلَى رَأَسِي، وَهِيَ عَلَى ثُلُثَيْ فَرْسَخٍ. قَالَتْ: فَجِئْتُ يَوْماً وَالنَّوَى عَلَى رَأْسِي، فَلَقِيتُ رَسُولَ اللَّهِ، وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَدَعَا لِي ثُمَّ قَالَ: إِخّ إِخّ، لِيَحْمِلَنِي خَلْفَهُ، فَاسْتَحْيَيْتُ أَنْ أَسِيرَ مَعَ الرِّجَالِ، وَذَكَرْتُ الزُّبَيْرَ، وَغِيْرَتَهُ. قَالَتْ: وَكَانَ مِنْ أَغْيَرِ النَّاسِ. قَالَتْ: فَعَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ أَنِّي قَدِ اسْتَحْيَيْتُ، فَمَضَى، فَجِئْتُ الزُّبَيْرَ، فَقُلْتُ:

لَقِيَنِي رَسُولُ اللَّهِ، وَعَلَى رَأْسِي النَّوَى، وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَأَنَاخَ لأَرْكَبَ مَعَهُ، فَاسْتَحْيَيْتُ، وَعَرَفْتُ غِيْرَتَكَ. فَقَالَ: وَاللَّهِ لَحَمْلُكِ النَّوَى كَانَ أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ رُكُوبِكِ مَعَهُ. قَالَتْ: حَتَّى أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَ ذَلِكَ بِخَادِمٍ فَكَفَتْنِي سِيَاسَةَ الفَرَسِ، فَكَأَنَّما أَعْتَقَنِي[1].

وَكَانَ الزُّبَيْرُ شَدِيداً عَلَى أَسْمَاءَ، فَأَتَتْ أَبَاهَا فَشَكَتْ ذَلِكَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّةُ اصْبِرِي فَإِنَّ المَرْأَةَ إِذَا كَانَ لَهَا زَوْجٌ صَالِحٌ ثُمَّ مَاتَ عَنْهَا فَلَمْ تَتَزَوَّجْ بَعْدَهُ جُمِعَ بَيْنَهُمَا فِي الجَنَّةِ[2].

وَعَنْ أَسْمَاءَ أَنَّهَا جَاءَتِ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ لَيْسَ فِي بَيْتِي شَيْءٌ إِلاَّ مَا أَدْخَلَ عَلَيَّ الزُّبَيْرُ فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ أَنْ أَرْضَخَ مِمَّا أَدْخَلَ عَلَيَّ؟ قَالَ: ارْضَخِي مَا اسْتَطَعْتِ وَلاَ تُوكِي فَيُوكِي اللَّهُ عَلَيْكِ.

وَكَانَ فِي عُنُقِهَا وَرَمٌ فَجَعَلَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَمْسَحُهَا وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ عَافِهَا مِنْ فُحْشِهِ وَأَذَاهُ.

وَكَانَتْ تَصَدَّعُ فَتَضَعُ يَدَهَا عَلَى رَأْسِهَا وَتَقُولُ: بَدَنِي وَمَا يَغْفِرُ اللَّهُ أَكْثَرُ.

---

(١) طبقات ابن سعد.

(٢) المصدر السابق نفسه.

وَكَانَتْ كَرِيمَةً سَخِيَّةَ النَّفْسِ، وَتقُولُ لأَهْلِهَا وَبَنَاتِهَا: أَنْفِقْنَ وَتَصَدَّقْنَ وَلاَ تَنْتَظِرْنَ الفَضْلَ، فَإِنَّكُنَّ إِنِ انْتَظَرْتُنَّ الفَضْلَ لَمْ تُفْضِلْنَ شَيْئاً، وَإِنْ تَصَدَّقْتُنَّ لَمْ تَجِدْنَ فَقْدَهُ.

وَيَقُولُ ابْنُ الزُّبَيْرِ: مَا رَأَيْتُ امْرَأَةً قَطُّ أَجْوَدَ مِنْ عَائِشَةَ وَأَسْمَاءَ، وَجُودُهُمَا مُخْتَلِفٌ: أَمَّا عَائِشَةُ، فَكَانَتْ تَجْمَعُ الشَّيْءَ إِلَى الشَّيْءِ حَتَّى إِذَا اجْتَمَعَ عِنْدَهَا وَضَعَتْهُ فِي مَوَاضِعِهِ، وَأَمَّا أَسْمَاءُ فَكَانَتْ لاَ تَدَّخِرُ شَيْئاً لِغَدٍ[١].

وَشَهِدَتْ أَسْمَاءُ اليَرْمُوكَ مَعَ زَوْجِهَا وَابْنِهَا.

قَدِمَتْ قُتَيْلَةُ بِنْتُ عَبْدِ العُزَّى بنِ عَبْدِ أَسْعَدَ أَحَدِ بَنِي مَالِكِ ابنِ حِسْلٍ عَلَى ابْنَتِهَا أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ طَلَّقَهَا فِي الجَاهِلِيَّةِ، بِهَدَايَا زَبِيبٍ، وَسَمْنٍ، وَقُرْظٍ فَأَبَتْ أَنْ تَقْبَلَ هَدِيَّتَهَا أَوْ تُدْخِلَهَا إِلَى بَيْتِهَا، وَأَرْسَلَتْ إِلَى عَائِشَةَ: سَلِي رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَ: «لِتُدْخِلْهَا، وَلِتَقْبَلْ هَدِيَّتَهَا». وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ

(١) سير أعلام النبلاء.

﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾ [1] .

وَكَانَتْ أَسْمَاءُ تَمْرَضُ المَرْضَةَ فَتُعْتِقُ كُلَّ مَمْلُوكٍ لَهَا.

وَعَنْ عُرْوَةَ أَنَّهُ قَالَ: ضَرَبَ الزُّبَيْرُ أَسْمَاءَ فَصَاحَتْ بِعَبْدِ اللَّهِ ابْنِهَا، فَأَقْبَلَ، فَلَمَّا رَآهُ، قَالَ: أُمُّكَ طَالِقٌ إِنْ دَخَلْتَ. فَقَالَ: أَتَجْعَلُ أُمِّي عُرْضَةً لِيَمِينِكَ، فَاقْتَحَمَ، وَخَلَّصَهَا. قَالَ: فَبَانَتْ مِنْهُ.

وَعَنْ هِشَامِ بنِ عُرْوَةَ: أَنَّ الزُّبَيْرَ طَلَّقَ أَسْمَاءَ، فَأَخَذَ عُرْوَةَ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ صَغِيرٌ. (وُلِدَ عُرْوَةُ عَامَ ٢٢هـ، وَمَعنَى هَذَا أَنَّ الطَّلَاقَ كَانَ حَوَالَيْ عَامَ ٢٥هـ، وَذَهَبَتْ أَسْمَاءُ، وَعَاشَتْ فِي مَكَّةَ مَعَ ابْنِهَا عَبْدِ اللَّهِ).

قَالَتْ أَسْمَاءُ لِابْنِهَا: يَا بُنَيَّ عِشْ كَرِيماً، وَمُتْ كَرِيماً، لاَ يَأْخُذْكَ القَوْمُ أَسِيراً.

قَالَ عُرْوَةُ: دَخَلْتُ أَنَا وَأَخِي، قَبْلَ أَنْ يُقْتَلَ، عَلَى أُمِّنَا بِعَشْرِ لَيَالٍ، وَهِيَ وَجِعَةٌ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: كَيْفَ تَجِدِينَكِ؟ قَالَتْ: وَجِعَةٌ. قَالَ: إِنَّ فِي المَوْتِ لَعَافِيَةٌ (عَنَى عَبْدُ اللَّهِ أَنْ يُقْتَلَ فَيُحْزِنُهَا ذَلِكَ). قَالَتْ: لَعَلَّكَ تَشْتَهِي مَوْتِي فَلاَ تَفْعَلْ،

(١) سورة الممتحنة، الآيتان: ٨ ـ ٩.

وَضَحِكَتْ، وَقَالَتْ: وَاللَّهِ، مَا أَشْتَهِي أَنْ أَمُوتَ، حَتَّى تَأْتِيَ عَلَى أَحَدِ طَرَفَيْكَ، إِمَّا أَنْ تُقْتَلَ فَأَحْتَسِبُكَ، وَإِمَّا أَنْ تَظْفَرَ فَتَقَرَّ عَيْنِي. إِيَّاكَ أَنْ تُعْرَضَ عَلَى خِطَّةٍ فَلاَ تُوَافِقُ، فَتَقَبَلَهَا كَرَاهِيَةَ المَوْتِ(١).

لَمَّا قَتَلَ الحَجَّاجُ ابْنَ الزُّبَيْرِ، دَخَلَ عَلَى أَسْمَاءَ وَقَالَ لَهَا: يَا أُمَّهُ، إِنَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ وَصَّانِي بِكِ، فَهَلْ لَكِ مِنْ حَاجَةٍ؟ قَالَتْ: لَسْتُ لَكَ بِأُمٍّ، وَلَكِنِّي أُمُّ المَصْلُوبِ عَلَى رَأْسِ الثَّنِيَّةِ، وَمَالِي مِنْ حَاجَةٍ، وَلَكِنْ أُحَدِّثُكَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «يَخْرُجُ مِنْ ثَقِيفٍ كَذَّابٌ وَمُبِيرٌ»، فَأَمَّا الكَذَّابُ فَقَدْ رَأَيْنَاهُ ـ تَعْنِي المُخْتَارَ ـ وَأَمَّا المُبِيرُ فَأَنْتَ. فَقَالَ لَهَا: مُبِيرُ المُنَافِقِينَ.

وَفِي رِوَايَةٍ، أَنَّ أَسْمَاءَ قَالَتْ لِلْحَجَّاجِ بَعْدَ أَنْ مَرَّتْ أَيَّامٌ ثَلاثٌ عَلَى صَلْبِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ الزُّبَيْرِ: أَمَا آنَ لِلرَّاكِبِ أَنْ يَنْزِلَ؟ فَقَالَ: المُنَافِقُ؟ قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا كَانَ مُنَافِقاً، كَانَ صَوَّاماً قَوَّاماً بَرّاً. قَالَ: انْصَرِفِي يَا عَجُوزُ، فَقَدْ خَرِفْتِ. قَالَتْ: لاَ ـ وَاللَّهِ ـ مَا خَرِفْتُ مُنْذُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «فِي ثَقِيفٍ كَذَّابٌ وَمُبِيرٌ».

---

(١) سير أعلام النبلاء.

قِيلَ لابْنِ عُمَرَ: إِنَّ أَسْمَاءَ فِي نَاحِيَةِ المَسْجِدِ ـ وَذَلِكَ حِينَ صُلِبَ ابنُ الزُّبَيْرِ ـ فَمَالَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ الجُثَثَ لَيْسَتْ بِشَيْءٍ، وَإِنَّمَا الأَرْوَاحُ عِنْدَ اللَّهِ، فَاتَّقِي اللَّهِ وَاصْبِرِي. فَقَالَتْ: وَمَا يَمْنَعُنِي، وَقَدْ أُهْدِيَ رَأْسُ يَحْيَى بنِ زَكَرِيَّا إِلَى بَغِيٍّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ.

وَعَنِ ابنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى أَسْمَاءَ بَعْدَمَا أُصِيبَ ابْنُ الزُّبَيْرِ، فَقَالَتْ: بَلَغَنِي أَنَّ هَذَا صَلَبَ عَبْدَ اللَّهِ. اللَّهُمَّ لاَ تُمِتْنِي حَتَّى أُوتَى بِهِ، فَأُحَنِّطَهُ وَأُكَفِّنَهُ. فَأُتِيَتْ بِهِ بَعْدُ، فَجَعَلَتْ تُحَنِّطُهُ بِيَدِهَا، وَتُكَفِّنُهُ، بَعْدَمَا ذَهَبَ بَصَرُهَا. وَصَلَّتْ عَلَيْهِ، وَمَا أَتَتْ جُمْعَةٌ إِلاَّ مَاتَتْ.

وَكَانَ قَتْلُهُ لِسَبْعَ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ جُمَادَى الأُولَى سَنَةَ ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ.

وَأَوْصَتْ أَسْمَاءُ فَقَالَتْ لأَهْلِهَا: إِذَا أَنَا مِتُّ فَأَجْمِرُوا ثِيَابِي، وَحَنِّطُونِي، وَلاَ تَجْعَلُوا عَلَى كَفَنِي حُنُوطاً، وَلاَ تَتْبَعُونِي بِنَارٍ.

وَعَنْ هِشَامِ بنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ أَسْمَاءَ عَاشَتْ مِائَةَ سَنَةٍ لَمْ يَسْقُطْ لَهَا سِنٌّ، وَلَمْ يُنْكَرْ لَهَا

عَقْلٌ[1].

رَوَتْ ثَمَانِيَةً وَخَمْسِينَ حَدِيثاً، اتَّفَقَ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَلَى ثَلاَثَةَ عَشَرَ حَدِيثاً، وَانفَرَدَ البُخَارِيُّ بِخَمْسٍ، وَمُسْلِمٌ بأَرْبَعٍ.

وَلَدَتْ أَسْمَاءُ لِلزُّبَيْرِ: عَبْدَ اللَّهِ، وَعَاصِماً، وَالمُنْذِرَ، وَالمُهَاجِرَ، وَعُرْوَةَ مِنَ البَنِينِ، وَمِنَ البَنَاتِ: خَدِيجَةَ الكُبْرَى، وَأُمَّ الحَسَنِ، وَعَائِشَةَ.

نَشَأَتْ أَسْمَاءُ فِي بَيْتِ الصِّدِّيقِ فَكَانَتْ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْ بَيْتِ النُّبُوَّةِ، ثُمَّ انْتَقَلَتْ إِلَى بَيْتِ الزُّبَيْرِ، ابْنِ عَمَّةِ رَسُولِ اللَّهِ، وَحَوَارِيهِ، وَأَحَدِ المُبَشَّرِينَ بِالجَنَّةِ فَبَقِيَتْ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْ بَيْتِ النُّبُوَّةِ فَتَذَوَّقَتِ الإِسْلاَمَ، وَعَرَفَتْ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ، وَتَمَثَّلَتْ ذَلِكَ، فَكَانَتْ فِيْهَا القُوَّةُ، وَالثَّبَاتُ عَلَى الحَقِّ، وَعَدَمُ المُبَالاَةِ بِالدُّنْيَا وَمَنْ عَلَيْهَا. وَرَبَّتْ أَوْلاَدَهَا عَلَى ذَلِكَ فَكَانُوا مِثَالَ الشَّجَاعَةِ، وَالوُقُوفِ إِلَى جَانِبِ الحَقِّ، وَعَدَمِ الانْزِلاَقِ عَنِ المَوْقِفِ الصَّحِيحِ كَرَاهِيَةً لِلْمَوْتِ. وَعَلَى الصَّبْرِ وَالشَّدَائِدِ، وَعَدَمِ الجَزَعِ عِنْدَ رُؤْيَةِ الأَهْلِ قَتْلَى، بَلْ وَيُمَثَّلُ بِهِمْ، مَا دَامُوا عَلَى الحَقِّ. وَإِنَّ التَّارِيخَ لِيُسَجِّلُ لَهَا كَلاَمَهَا البُطُولِيَّ لاِبْنِهَا

---

(1) الإصابة.

عَبْدِ اللَّهِ عِنْدَمَا قَالَ لَهَا: أُمَّاهُ، خَذَلَنِي النَّاسُ حَتَّى أَهْلِي وَوَلَدِي، وَلَمْ يَبْقَ مَعِي إِلاَّ اليَسِيرُ مِنْ جُنْدِي، وَالنَّاسُ يُعْطُونَنِي مَا أَرَدْتُ مِنَ الدُّنْيَا، فَمَا رَأْيُك؟ فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ أَنْتَ أَعْلَمُ بِنَفْسِكَ، إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ عَلَى حَقٍّ، وَإِلَيْهِ تَدْعُو، فَاصْبِرْ عَلَيْهِ، فَقد قُتِلَ عَلَيْهِ أَصْحَابُكَ، وَلاَ تُمَكِّنْ مِنْ رَقَبَتِكَ، يَلْعَبُ بِهَا غِلْمَانُ بَنِي أُمَيَّةَ، وَإِنْ كُنْتَ تعلمُ أَنَّكَ إِنَّمَا أَرَدْتَ الدُّنْيَا، فَبِئْسَ العَبْدُ أَنْتَ، أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ، وَأَهْلَكْتَ مَنْ قُتِلَ مَعَكَ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى حَقٍّ فَمَا وَهَنَ الدِّينُ، وَإِلَى كَمْ خُلُودُكَ فِي الدُّنْيَا؟ القَتْلُ أَحْسَنُ، فَدَنَا فَقَبَّلَ رَأْسَهَا، وَقَالَ: هَذَا وَاللَّهِ رَأْيِي، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ مَا رَكَنْتُ إِلَى الدُّنْيَا وَلاَ أَحْبَبْتُ الحَيَاةَ فِيهَا، وَمَا دَعَانِي إِلَى الخُرُوجِ إِلاَّ الغَضَبُ لِلَّهِ أَنْ تُسْتَحَلَّ حُرْمَتُهُ، وَلَكِنِّي أَحَبَبْتُ أَنْ أَعْلَمَ رَأْيَكِ فَزِدْتِينِي بَصِيرَةً مَعَ بَصِيرَتِي، فَانْظُرِي يَا أُمَّاهُ، فَإِنِّي مَقْتُولٌ فِي يَوْمِي هَذَا، فَلاَ يَشْتَدُّ حُزْنُكِ، وَسَلِّمِي الأَمْرَ لِلَّهِ، فَإِنَّ ابْنَكِ لَمْ يَتَعَمَّدْ إِتْيَانَ مُنْكَرٍ، وَلاَ عَمِلَ بِفَاحِشَةٍ قَطُّ، وَلَمْ يَجُرْ فِي حُكْمِ اللَّهِ، وَلَمْ يَغْدُرْ فِي أَمَانٍ، وَلَمْ يَتَعَمَّدْ ظُلَمَ مُسْلِمٍ أَوْ مُعَاهِدٍ، وَلَمْ يَبْلُغْنِي ظُلْمٌ عَنْ عَامِلٍ فَرَضِيتُهُ بَلْ أَنْكَرْتُهُ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدِي آثَرُ مِنْ رِضَى رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ. اللَّهُمَّ إِنِّي لاَ أَقُولُ هَذَا تَزْكِيَةً لِنَفسي، اللَّهُمَّ أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي وَمِنْ غَيْرِي،

وَلَكِنِّي أَقُولُ ذَلِكَ تَعْزِيَةً لِأُمِّي لِتَسْلُوَ عَنِّي. فَقَالَتْ أُمُّهُ: إِنِّي لأَرْجُو مِنَ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ عَزَائِي فِيْكَ حَسَناً، إِنْ تَقَدَّمْتَنِي أَوْ تَقَدَّمْتُكَ، فَفِي نَفْسِي أَخْرُجُ يَا بُنَيَّ حَتَّى أَنْظُرَ مَا يَصِيرُ إِلَيْهِ أَمْرُكَ، فَقَالَ: جَزَاكِ اللَّهُ يَا أُمَّه خَيْرَاً فَلاَ تَدَعِي الدُّعَاءَ قَبْلُ أَوْ بَعْدُ. فَقَالَتْ: لاَ أَدَعُهُ أَبَدَاً لِمَنْ قُتِلَ عَلَى بَاطِلٍ، فَلَقَدْ قُتِلْتَ عَلَى حَقٍّ، ثُمَّ قَالَتْ: اللَّهُمَّ ارْحَمْ ذَلِكَ القِيَامَ، وَذَلِكَ النَّحِيبَ، وَالظَّمَأَ فِي هَوَاجِرِ المَدِينَةِ وَمَكَّةَ وَبَرَّهُ بِأَبِيهِ وَبِي. اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ سَلَّمْتُهُ لأَمْرِكَ فِيْهِ، وَرَضِيتُ بِمَا قَضَيْتَ، فَقَابِلْنِي فِي عَبْدِ اللَّهِ بنِ الزُّبَيْرِ بِثَوَابِ الصَّابِرِينَ الشَّاكِرِينَ. ثُمَّ أَخَذَتْهُ إِلَيْهَا فَاحْتَضَنَتْهُ لِتُوَدِّعَهُ وَاعْتَنَقَهَا لِيُوَدِّعَهَا ـ وَكَانَتْ قَدْ عَمِيَتْ فِي آخِرِ عُمْرِهَا ـ فَوَجَدَتْهُ لاَبِساً دِرْعَاً مِنْ حَدِيدٍ، فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ مَا هَذَا لِبَاسُ مَنْ يُرِيدُ مَا تُرِيدُ مِنَ الشَّهَادَةِ! فَقَالَ: يَا أُمَّاهُ إِنَّمَا لَبِسْتُهُ لأُطَيِّبَ خَاطِرَكِ، وَأُسَكِّنَ قَلْبَكِ بِهِ، فَقَالَتْ: لاَ، يَا بُنَيَّ وَلَكِنِ انْزَعْهُ فَنَزَعَهُ، وَجَعَلَ يَلْبَسُ بَقِيَّةَ ثِيَابِهِ، وَيَتَشَدَّدُ، وَهِيَ تَقُولُ: شَمِّرْ ثِيَابَكَ، وَجَعَلَ يَتَحَفَّظُ مِنْ أَسْفَلِ ثِيَابِهِ لِئَلاَ تَبْدُو عَوْرَتُهُ إِذَا قُتِلَ. وَجَعَلَتْ تُذَكِّرُهُ بِأَبِيهِ الزُّبَيْرِ، وَجَدِّهِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيق، وَجَدَّتِهِ صَفِيَّةَ بِنْتِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَخالَتِهِ عَائِشَةَ، زَوْجِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتُرَجِّيهِ القُدُومَ عَلَيْهِمْ إِذَا هُوَ قُتِلَ

شَهِيداً. ثُمَّ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا فَكَانَ آخِرَ عَهْدِهِ بِهَا.

أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ امْرَأَةٌ مُؤْمِنَةٌ رَبَّتَ أَبْنَاءَهَا، وَمِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ هَذَا الَّذِي عَرَفْنَاهُ مِنْ خِلَالِ حَدِيثِهِ مَعَ أُمِّهِ وَهُوَ يَسْتَعِدُّ لِلْمَوْتِ، فَكَانَ أَبْنَاءُ تِلْكَ النِّسَاءِ ذَلِكَ الرَّكْبُ الَّذِيْ انْطَلَقَ لِلْجِهَادِ، وَفَتْحَ الفُتُوحَ، وَرَفَعَ رَايَةَ الإِسْلَامِ عَالِيَةً فَنَهَضَتِ الأُمَّةُ وَقَادَتِ الدُّنْيَا نَحْوَ الخَيْرِ. وَحَرِيٌّ بِنِسَاءِ الأُمَّةِ اليَوْمَ أَنْ يَقْرَأْنَ سِيرَةَ تِلْكَ النِّسَاءِ، وَيَقْتَدِينَ بِهِنَّ بِتَرْبِيَةِ أَبْنَائِهِنَّ عَسَى أَنْ تَعُودَ لِلأُمَّةِ رِفْعَتُهَا، وَنَعُودَ لِقِيَادَةِ العَالَمِ وَنَحْمِلَهُ إِلَى السَّعَادَةِ، وَنُخَلِّصَهُ مِمَّا رَانَ عَلَيْهِ، فَالأَبْنَاءُ اليَوْمَ رِجَالُ الغَدِ.

٢ - عَائِشَةُ: وَأُمُّهَا أُمُّ رُومَانَ فَهِيَ شَقِيقَةُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وُلِدَتْ فِي السَّنَةِ الرَّابِعَةِ لِلْبِعْثَةِ أَيْ فِي السَّنَةِ التَّاسِعَةِ قَبْلَ الهِجْرَةِ، فَنَشَأَتْ فِي الإِسْلَامِ حَيْثُ تَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ إِلاَّ وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ.

وَخَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَائِشَةَ، وَكَانَتْ أَوَّلُ مَرَاحِلِ هَذِهِ الخِطْبَةِ المُبَارَكَةِ وَحْياً مِنَ السَّمَاءِ. أَخْبَرَ هَذَا رَسُولُ اللَّهِ حِينَ قَالَ لِعَائِشَةَ: «أُرِيتُكِ فِي المَنَامِ ثَلَاثَةَ لَيَالٍ، جَاءَ بِكِ المَلَكُ فِي سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ، فَيَقُولُ: هَذِهِ امْرَأَتُكَ، فَأَكْشِفُ عَنْ وَجهِكِ فَإِذَا أَنْتِ فِيهِ، فَأَقُولُ: إِنْ يَكُ هَذَا مِنْ عِنْدِ

اللَّهِ يُمْضِهِ»[1].

وَتُوُفِّيَتْ زَوْجُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ فِي السَّنَةَ العَاشِرَةِ مِنْ البِعْثَةِ أَيْ قَبْلَ الهِجْرَةِ بِثَلَاثِ سَنَوَاتٍ، وَجَاءَتْ خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيمٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلاَ تَتَزَوَّجُ؟ قَالَ: وَمَنْ؟ قَالَتْ: إِنْ شِئْتَ بِكْرَاً وَإِنْ شِئْتَ ثَيِّبَاً، قَالَ: «مَنِ البِكْرُ وَمَنِ الثَّيِّبُ؟» قَالَتْ: أَمَّا البِكْرُ، فَعَائِشَةُ ابْنَةُ أَحَبِّ خَلْقِ اللَّهِ إِلَيْكَ، وَأَمَّا الثَّيِّبُ فَسَوْدَةُ بِنْتُ زَمعَةَ، قَدْ آمَنَتْ بِكَ وَاتَّبَعَتْكَ. قَالَ: اذْكُرِيهِمَا عَلَيَّ. قَالَتْ: فَأَتَيْتُ أُمَّ رُومَانَ فَقُلْتُ: يَا أُمَّ رُومَانَ، مَاذَا أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنَ الخَيْرِ وَالبَرَكَةِ، قَالَتْ: مَاذَا؟ قَالَتْ: رَسُولُ اللَّهِ يَذْكُرُ عَائِشَةَ. قَالَتْ: انْتَظِرِي فَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ آتٍ. فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ، فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: أَوَ تَصْلُحُ لَهُ وَهِيَ ابْنَةُ أَخِيهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا أَخُوهُ وَهُوَ أَخِي، وَابْنَتُهُ تَصْلُحُ لِي». فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ. فَقَالَتْ لي أُمُّ رُومَانَ: إِنَّ المُطْعِمَ بنَ عَدِيٍّ كَانَ قَدْ ذَكَرَهَا عَلَى ابْنِهِ، وَوَاللَّهِ مَا أَخْلَفُ وَعْدَاً قَطُّ. قَالَتْ: فَأَتَى أَبُو بَكْرٍ المُطْعَمَ. فَقَالَ: مَا تَقُولُ فِي أَمْرِ

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري ٧/ ١٧٥ في مناقب الأنصار و ٩/ ١٥٦ في النكاح و ١٢/ ٣٥٣ في التعبير. وأخرجه مسلم ٢٤٣٨.

هَذِهِ الجَارِيَةِ؟ قَالَ: فَأَقْبَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ، فَقَالَ: مَا تَقُولِينَ؟ فَأَقْبَلَتْ فَقَالَتْ: لَعَلَّنَا إِنْ أَنْكَحْنَا هَذَا الفَتَى إِلَيْكَ تُدْخِلُهُ فِي دِينِكَ! فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: مَا تَقُول أَنْتَ؟ قَالَ: إِنَّهَا لَتَقُولُ مَا تَسْمَعُ. فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ وَلَيْسَ فِي نَفْسِهِ مِنَ المَوْعِدِ شَيْءٌ، فَقَالَ لَهَا: قُولِي لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلْيَأْتِ. فَجَاءَ فَمَلَكَهَا، وَذَلِكَ فِي شَوَّالَ سَنَةَ عَشْرٍ مِنَ النُّبُوَّةِ قَبْلَ الهِجْرَةِ لِثَلَاثِ سِنِينَ. وَهِيَ ابْنَةُ سِتِّ سِنِينَ. وَلَكِنْ لَمْ يَبْنِ بِهَا، لِصِغَرِ سِنِّهَا.

وَأَمَّا سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ فَكَانَتْ مُهَاجِرَةً إِلَى الحَبَشَةِ مَعَ زَوْجِهَا السَّكْرَانِ بنِ عَمْرٍو، فَلَمَّا عَادَ بَعْضُ المُهَاجِرِينَ كَانَا مِنْهُمْ، وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ تُوُفِّيَ زَوْجُهَا بِمَكَّةَ، وَعِنْدَمَا حَلَّتْ أَرْسَلَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَخَطَبَهَا، فَقَالَتْ: أَمْرِي إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مُرِي رَجُلاً مِنْ قَوْمِكِ يُزَوِّجُكِ، فَأَمَرَتْ حَاطِبَ بنَ عَمْرٍو (أَخَا زَوْجِهَا) فَزَوَّجَهَا، فَكَانَتْ أَوَّلَ امْرَأَةٍ تَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَعْدَ خَدِيجَةَ.

وَسُئِلَتْ عَائِشَةُ مَتَى بَنَى بِكِ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: لَمَّا هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

إِلَى المَدِينَةِ خَلَّفَنَا وَخَلَّفَ بَنَاتِهِ، فَلَمَّا قَدِمَ المَدِينَةَ بَعَثَ إِلَيْنَا زَيْدَ بنَ حَارِثَةَ، وَبَعَثَ مَعَهُ أَبَا رَافِعٍ مَوْلاَهُ، وَأَعْطَاهُمَا بَعِيرَيْنِ وَخَمْسَمِائَةِ دِرْهَمٍ أَخَذَهَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ أَبِي بَكْرٍ يَشْتَرِيَانِ بِهَا مَا يَحْتَاجَانِ إِلَيْهِ مِنَ الظَّهْرِ، وَبَعَثَ أَبُو بَكْرٍ مَعَهُمَا عَبْدَ اللَّهِ بنَ أُرَيْقِطٍ الدَّيْلِيَّ بِبَعِيرَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةٍ، وَكَتَبَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بنِ أَبِي بَكْرٍ يَأْمُرُهُ أَنْ يَحْمِلَ أَهْلَهُ أُمَّ رُومَانَ وَأَنَا وَأُخْتِي أَسْمَاءَ امْرَأَةَ الزُّبَيْرِ. فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَى قُدَيدٍ اشْتَرَى زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ بِتِلْكَ الخَمْسَمِائَةِ ثَلاَثَةَ أَبْعِرَةٍ، ثُمَّ رَحَلُوا مِنْ مَكَّةَ جَمِيعاً، وَصَادَفُوا طَلْحَةَ بنَ عُبَيْدِ اللَّهِ يُرِيدُ الهِجْرَةَ بِآلِ أَبِي بَكْرٍ فَخَرَجْنَا جَمِيعاً، وَخَرَجَ زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ وَأَبُو رَافِعٍ بِفَاطِمَةَ، وَأُمِّ كُلْثُومٍ، وَسَوْدَةَ بِنْتِ زَمْعَةَ، وَحَمَلَ زَيْدُ أُمَّ أَيْمَنَ وَأُسَامَةَ بنَ زَيْدٍ، وَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ بنُ أَبِي بَكْرٍ بِأُمِّ رُومَانَ وَأُخْتَيْهِ، وَخَرَجَ طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَاصْطَحَبْنَا جَمِيعاً حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالبِيضِ مِنْ مِنًى نَفَرَ بَعِيرِي وَأَنَا فِي مَحَفَّةٍ مَعِي فِيهَا أُمِّي، فَجَعَلَتْ أُمِّي تَقُولُ: وَابِنْتَاهُ، وَاعَرُوسَاهُ! حَتَّى أُدْرِكَ بَعِيرُنَا وَقَدْ هَبَطَ مِنْ لَفْتٍ، فَسَلَّمَ اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ. ثُمَّ إِنَّا قَدِمْنَا المَدِينَةَ فَنَزَلْتُ مَعَ عِيَالِ أَبِي بَكْرٍ، وَنَزَلَ آلُ رَسُولِ اللَّهِ، وَرَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَوْمَئِذٍ يَبْنِي المَسْجِدَ وَأَبْيَاتاً حَوْلَ المَسْجِدِ فَأَنْزَلَ -فِيهَا أَهْلَهُ،

وَمَكَثْنَا أَيَّاماً فِي مَنْزِلِ أَبِي بَكْرٍ. ثُمَّ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا يَمْنَعُكَ مِنْ أَنْ تَبْنِيَ بِأَهْلِكَ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الصِّدَاقُ. فَأَعْطَاهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدَاقَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أُوقِيَّةً وَنَشّاً (نِصْفاً)، فَبَعَثَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَيْنَا. وَبَنَى بِي رَسُولُ اللَّهِ فِي بَيْتِي هَذَا الَّذِي أَنَا فِيهِ، وَهُوَ الَّذِي تُوفِّيَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ، وَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ لِنَفْسِهِ بَاباً فِي المَسْجِدِ وَجَاهَ بَابِ عَائِشَةَ. قَالَتْ: وَبَنَى رَسُولُ اللَّهِ بِسَوْدَةَ فِي أَحَدِ تِلْكَ البُيُوتِ الَّتِي إِلَى جَنْبِي[١].

وَمَهْرُ عَائِشَةَ يُعَادِلُ خَمْسُمِائَةِ دِرْهَمٍ، وَهُوَ مَبْلَغٌ زَهِيدٌ، وَهِيَ مِنْ سَيِّدَاتِ نِسَاءِ العَالَمِ، وَزَوْجُهَا سَيِّدُ الخَلْقِ، وَكَذَا كَانَ مَهْرُ بَقِيَّةِ نِسَائِهِ، وَلْنُقَارِنْ هَذَا مَعَ المُغَالاَةِ فِي المُهُورِ اليَوْمَ، وَالظَّنُّ أَنَّ المَهْرَ الكَبِيرَ دَلِيلُ قِيْمَةِ العَرُوسِ، وَهَذَا ظَنٌّ خَاطِىءٌ، وَنَتَجَ عَنْهُ أُمُورٌ خَطِيرَةٌ فِي تَأْخِيرِ الزَّوَاجِ، وَانْتِشَارِ العُنُوسَةِ، وَالعُقَدِ النَّفْسِيَّةِ، وَضِيقِ ذَاتِ اليَدِ عِنْدَ الزَّوْجِ بَعْدَ العُرْسِ مِمَّا يَجْعَلُ نَفْسَهُ غَيْرَ مُرْتَاحَةٍ، بَلْ يَعِيشُ فِي قَلَقٍ دَائِمٍ، فَالدَّيْنُ ذُلٌّ فِي النَّهَارِ وَهَمٌّ فِي اللَّيْلِ.

لَمْ يَكُنْ مُنَاخُ المَدِينَةِ مُنَاسِباً عِنْدَ وُصُولِ المُهَاجِرِينَ بَلْ

---

(١) طبقات ابن سعد.

كَانَ مُوبُوءاً، إِضَافَةً إِلَى تَغَيُّرِ المُنَاخِ عَلَى المُنْتَقِلِ وَمَشَقَّةِ السَّفرِ، لِذَا فَقَدْ أَصَابَ المَرَضُ بَعْضَ المُهَاجِرِينَ، وَمِنْهُمْ عَائِشَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَمَرِضَتْ مَا يَزِيدُ عَلَى الشَّهْرِ، وَأَخَذَ شَعْرُهَا يَتَسَاقَطُ عَلَى كَتِفَيْهَا، وَقَلَّ حَتَّى لَمْ يَعُدْ يَصِلْ إِلَى أُذُنَيْهَا، ثُمَّ شُفِيَتْ ـ بِإِذْنِ اللَّهِ ـ . وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رَبَّهُ أَنْ يَجْعَلَ مُنَاخَ المَدِينَةِ صِحِّيًّا لِسَاكِنِيها فَقَالَ: «اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا المَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، وَصَحِّحْهَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِهَا وَمُدِّهَا، وَانْقُلْ حُمَّاهَا فَاجْعَلْهَا بِالجُحْفَةِ». فَاسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَ نَبِيِّهِ فَطَيَّبَ مُنَاخَ المَدِينَةِ وَطَهَّرَهَا مِنْ وَبَائِهَا الَّذِي كَانَ فِيْهَا.

وَأَخَذَتِ الأُمُّ تُهَيِّءُ ابْنَتَهَا لِلزَّوَاجِ بَعْدَ أَنْ عَافَاهَا اللَّهُ، وَتَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَصِحَّ جِسْمُهَا وَيَزْدَادَ لَحْمُهَا بَعْدَمَا حَلَّ بِهَا مِنَ الضَّعَفِ لِيَقْوَى بَدَنُهَا، فَتَقُولُ عَائِشَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كَانَتْ أُمِّي تُعَالِجُنِي لِلسُّمْنَةِ، تُرِيدُ أَنْ تُدْخِلَنِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَا اسْتَقَامَ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى أَكَلْتُ القِثَّاءَ بِالرُّطَبِ، فَسَمِنْتُ كَأَحْسَنِ سُمْنَةٍ[١].

وَكَانَتْ غَزْوَةُ بَدْرٍ فِي رَمَضَانَ، وَهِيَ أَوَّلُ لِقَاءٍ كَبِيرٍ بَيْنَ المُسْلِمِينَ وَبَيْنَ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ، وَانْتَصَرَ المُسْلِمُونَ ـ بِإِذْنِ اللَّهِ ـ

---

(١) رواه ابن ماجه.

نَصْراً مُؤَزَّراً، وَانْتَهى رَمَضَانُ، وَجَاءَ شَوَّالُ وَهُوَ الشَّهْرُ الَّذِيْ تَمَّتْ فِيْهِ خُطُوبَتُهَا قَبْلَ خمسِ سَنَوَاتٍ، وَالآنَ تَمَّ فِيْهِ زَوَاجُهَا. وَكَانَتْ لاَ تَزَالُ صَغِيرَةً تلْعَبُ بِالأُرْجُوحَةِ مَعَ أَتْرَابِهَا، وَبَيْنَمَا هِيَ تَلْعَبُ إِذْ جَاءَتْ أُمُّهَا وَمَعَها بَعْضُ النِّسْوَةِ، وَأَخَذْنَهَا لِلزِّفَافِ، فَتَقُولُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فَأَتَتْنِي أُمُّ رُومَانَ، وَأَنَا عَلَى أُرْجُوحَةٍ وَمَعِي صَوَاحِبِي، فَصَرَخَتْ بِي، فَأَتَيْتُهَا وَمَا أَدْرِيْ مَا تُرِيدُ بِي، فَأَخَذَتْ بِيَدِي، فَأَوْقَفَتْنِي عَلَى البَابِ، فَقُلْتُ: هَهْ، هَهْ حَتَّى ذَهَبَ نَفَسِيْ، فَأَدْخَلَتْنِي بَيْتاً، فَإِذَا نِسْوَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَقُلْنَ: عَلَى الخَيْرِ وَالبَرَكَةِ، وَعَلَى خَيْرِ طَائِرٍ، فَأَسْلَمَتْنِي إِلَيْهِنَّ، فَغَسَلْنَ رَأْسِي وَأَصْلَحْنَنِي فَلَمْ يَرُعْنِي إِلاَّ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ضُحَى، فَأَسْلَمْنَنِي إِلَيْهِ(١).

وَلَمَّا كَانَتِ الخُطُوبَةُ فِي شَوَّالَ وَالزِّفَافُ فِي شَوَّالَ لِذَا فَإِنَّ هَذَا الشَّهْرَ كَانَ لَهُ أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي نَفْسِ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَلَمْ تَكُنْ هُنَاكَ وَلِيمَةُ عُرْسٍ فَاخِرَةٌ كَمَا يُفْعَلُ اليَوْمَ فِي الأَعْرَاسِ، وَإِنَّمَا أَرْسَلَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ جَفْنَةَ الطَّعَامِ الَّتِي اعْتَادَ أَنْ يَبْعَثَ بِهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ الطَّعَامَ، وَاللَّبَنَ لِضُيُوفِهِ، لَيْسَ أَكْثَرَ، وَذَلِكَ حَسْبَ

---

(١) رواه الشيخان.

الإِمْكَانَاتِ، حَيْثُ لاَ يَصِحُّ التَّكَلُّفُ وَالإِنْفَاقُ أَكْثَرُ مِنَ الإِمْكَانَاتِ، وَعِنْدَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ عَوْفٍ: «أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ» لأَنَ وَضْعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ يَسْمَحُ لَهُ بِذَلِكَ. أَمَّا الفَقِيرُ فَحَسْبَ اسْتِطَاعَتِهِ، وَفِي الوَقْتِ نَفْسِهِ لاَ يَصِحُّ التَّبْذِيرُ كَمَا يَحْدُثُ فِي بَعْضِ الأَمْكِنَةِ، وَرُبَّمَا مِنْ غَيْرِ إِمْكَانِيَّةٍ وَإِنَّمَا مِنْ بَابِ المُبَاهَاةِ وَمُحَاكَاةِ الآخَرِينَ. وَفِي كُلِّ الأَحْوَالِ فَالتَّبْذِيرُ لاَ يَصِحُّ.

تَقُولُ أَسْمَاءُ بِنْتُ يَزِيدَ بنِ السَّكَنِ الأَنْصَارِيَّةُ الأَشْهَلِيَّةُ، وَهِيَ مِنْ بَيْنِ النِّسَاءِ الَّتِي أَصْلَحَتْ شَأْنَ عَائِشَةَ وَزَيَّنَتْهَا لِلزَّفَافِ: إِنِّي قَيَّنْتُ[1] عَائِشَةَ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ جِئْتُهُ فَدَعَوْتُهُ لِجِلْوَتِهَا، فَجَاءَ فَجَلَسَ إِلَى جَنْبِهَا، فَأُتِيَ بِعُسٍّ لَبَنٍ فَشَرِبَ، ثُمَّ نَاوَلَهَا النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَخَفَضَتْ رَأْسَهَا وَاسْتَحْيَتْ، قَالَتْ أَسْمَاءُ: فَنَهَرْتُهَا، وَقُلْتُ لَهَا: خُذِي مِنْ يَدِ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ: فَأَخَذَتْ، فَشَرِبَتْ شَيْئاً، ثُمَّ قَالَ لَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَعْطِي تِرْبَكِ[2]».

---

(١) قينت: زينت.

(٢) مسند الإمام أحمد.

وَلَمْ يَكُنْ بَيْتُ الزَّوْجِيَّةِ سِوَى حُجْرَةٍ وَاحِدَةٍ مَبْنِيَّةٍ مِنْ سُعُفِ النَّخْلِ، وَكَذَا بُيُوتِ بَقِيَّةِ نِسَاءِ رَسُولِ اللَّهِ، وَقَدْ ضُمَّتِ الحُجُراتُ إِلَى المَسْجِدِ فِيمَا بَعْدُ، وَمَكَانُ حُجْرَةِ عَائِشَةَ هُوَ المَكَانُ الَّذِيْ فِيْهِ الآنَ قَبْرُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَيْثُ دُفِنَ فِي بَيْتِهَا.

وَلَمْ يَكُنْ أَثَاثُ البَيْتِ بِأَكْثَرَ أَهَمِّيَةً مِنْهُ، إِذْ كَانَ يَضُمَّ فِرَاشَ رَسُولِ اللَّهِ، وَهُوَ مِنْ جِلْدٍ حَشْوُهُ لِيْفٌ. ثُمَّ أَصْبَحَ يُرْفَعُ عَلَى سَرِيرٍ، وَوُجِدَتْ بَعْدَ ذَلِكَ بَعْضُ الوَسَائِدِ. وَحَبَّذَا لَوْ يَنْتَبِهُ إِلَى ذَلِكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُغَالُونَ فِي الأَثَاثِ حَتَّى أَصْبَحَتْ ثرَوَاتُ بِلاَدِ المُسْلِمِينَ مُلْقَاةً فِي البُيُوبِ كَأَثَاثٍ، أَوْ مَكْنُوزَةً فِي رِقَابِ وَأَيْدِي النِّسَاءِ كَحُلِيٍّ، وَلاَ يُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ شَيْءٌ، وَلاَ تُسْتَثْمَرُ الثَّرَوَاتُ فِيمَا يَخْدُمُ الأُمَّةَ.

وَلَمْ تَكُنْ الحَيَاةُ فِي تِلْكَ الحُجُرَاتِ بِأَفْضَلَ مِمَّا فِيْهَا مِنْ أَثَاثٍ، وَيَرْوِي عُرْوَةُ بنُ الزُّبَيْرِ عَنْ خَالَتِهِ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ لَهُ: ابْنَ أُخْتِي إِنَّا كُنَّا نَنْظُرُ إِلَى الهِلاَلِ، ثُمَّ الهِلاَلِ، ثُمَّ الهِلاَلِ، ثَلاَثَةِ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوقِدَتْ فِي أَبْيَاتِ رسوُل اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نَارٌ، فَقُلْتُ: يَا خَالَةُ مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ؟ قَالَتْ: الأَسْوَدَانِ: التَّمْرُ وَالمَاءُ إِلاَّ أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جِيْرَانٌ مِنَ الأَنْصارِ، وَكَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ، يَمْنَحُونَ رَسُولَ اللَّهِ مِنْ أَلْبَانِهِمْ فَيَسْقِينَا.

وَكَانَتْ عَائِشَةُ أَحَبَّ نِسَاءِ رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْهِ لِرَجَاحَةِ عَقْلِهَا، وَحِدَّةِ ذَكَائِهَا، وإِمْكَانِيَّتِهَا عَلَى الاسْتِنْبَاطِ وَلِمَكَانَةِ أَبِيهَا عِنْدَهُ.

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا أَرَادَ سَفَراً أَوْ غَزْوَاً أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا مَعَهُ. وَهَذَا مَا جَعَلَهُنَّ يُسَاهِمْنَ فِي الجِهَادِ، إِذَا كَانَ الخُرُوجُ لِلْجِهَادِ، فَقَدْ خَرَجَتْ إِلَى أُحُدٍ، وَكَانَتْ هِيَ وأُمُّ سُلَيْمٍ تَنْقُلاَنِ القُرَبَ عَلَى مُتُونِهِمَا ثُمَّ تُفْرِغَانِهَا فِي أَفْوَاهِ القَوْمِ، ثُمَّ تَرْجِعَانِ فَتَمْلآنِهَا، ثُمَّ تَجِيئَانِ فَتُفْرِغَانِهَا. وَكَانَتْ يَوْمَ الخَنْدَقِ فِي الحِصْنَ الَّذِيْ وُضِعَ فِيْهِ النِّسَاءُ وَالأَطْفَالُ، فَأَحَسَّتْ بِحَرَكَةٍ أَمَامَ الحِصْنِ أَنْكَرَتْهَا، فَأَسْرَعَتْ وَتَقَدَّمَتِ الصُّفُوفَ تَسْتَجْلِي الخَبَرَ. وَكَذَلِكَ كَانَتْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فِي غَزْوَةِ بَنِي المُصْطَلِقِ، حَيْثُ أُشِيعَتْ حَادِثَةُ الإِفْكِ، وَكَانَتْ المِحْنَةُ الَّتِي ابْتُلِيَتْ بِهَا أُمُّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

السِّهَامُ المَسْمُومَةُ: كَانَتِ السِّهَامُ الَّتِي وُجِّهَتْ فِي حَادِثَةِ الإِفْكِ إِلَى أُمِّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، تَهْدِفُ فِي الحَقِيقَةِ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَلِ الإِسْلاَمَ،

فَعَائِشَةُ زَوْجُ النَّبِيِّ، وَأَحَبُّ النِّسَاءِ إِلَيْهِ، وَأَبُوهَا أَحَبُّ الرِّجَالِ إِلَيْهِ، فَمَا يَنَالُ عَائِشَةَ يَنَالُ رَسُولَ اللَّهِ، وَهَذَا مَا قَصَدَهُ المُنَافِقُونَ الَّذِينَ أَشَاعُوا الحَادِثَةَ، وَإِنْ وَقَعَ بَعْضُ المُسْلِمِينَ فِيهَا عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ. وَمُلَخَصُ الحَادِثَةِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سَارَ لِغَزْوِ بَنِي المُصْطَلِقِ مِنْ خُزَاعَةَ فِي شَعْبَانَ مِنَ السَّنَةِ السَّادِسَةِ لِلْهِجْرَةِ. وَأَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ فَخَرَجَ سَهْمُ عَائِشَةَ فَخَرَجَتْ فِي تِلْكَ الغَزْوَةِ مَعَهُ، وَتَرْوِي الحَادِثَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَتَقُولُ: وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ إِنَّمَا يَأْكُلْنَ العُلَقَ[1] لَمْ يَهِجْنَ اللَّحْمَ فَيَثْقُلْنَ وَكُنْتُ إِذَا رُحِّلَ لِي بَعِيرِي جَلَسْتُ فِي هَوْدَجِي، ثُمَّ يَأْتِي القَوْمُ الَّذِينَ يُرَحِّلُونَ لِي، وَيَحْمِلونَنِي، فَيَأْخُذُونَ بِأَسْفَلِ الهَوْدَجِ، فَيَرْفَعُونَهُ، فَيَضَعُونَهُ عَلَى ظَهْرِ البَعِيرِ، فَيَشُدُّونَهُ بِحِبَالِهِ، ثُمَّ يَأْخُذُونَ بِرَأْسِ البَعِيرِ، فَيَنْطَلِقُونَ بِهِ. قَالَتْ: فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ سَفَرِهِ ذَلِكَ، وَجَّهَ قَافِلاً، حَتَّى إِذَا كَانَ قَرِيباً مِنَ المَدِينَةِ نَزَلَ مَنْزِلاً، فَبَاتَ بِهِ بَعْضَ اللَّيْلِ، ثُمَّ أَذَّنَ فِي النَّاسِ بِالرَّحِيلِ، فَارْتَحَلَ النَّاسُ، وَخَرَجْتُ لِبَعْضِ حَاجَتِي، وَفِي عُنُقِي عِقْدٌ لِي، فِيهِ جَزْعُ ظِفَارٍ، فَلَمَّا فَرَغْتُ انسَلَّ مِنْ عُنُقِي وَلاَ أَدْرِيْ، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى الرَّحْلِ ذَهَبْتُ أَلْتَمِسُهُ فِي

(١) العُلَقُ: الطعام القليل الذي يبلغ صاحبه إلى وقت الغداء.

عُنُقِي فَلَمْ أَجِدْهُ، وَقَدْ أَخَذَ النَّاسُ فِي الرَّحِيلِ، فَرَجَعْتُ إِلَى مَكَانِي الَّذِي ذَهَبْتُ إِلَيْهِ، فَالْتَمَسْتُهُ حَتَّى وَجَدْتُهُ، وَجَاءَ القَوْمُ خِلاَفِي، الَّذِينَ كَانُوا يُرَحِّلُونَ لِيَ البَعِيْرَ، وَقَدْ فَرَغُوا مِنْ رَحْلَتِهِ، فَأَخَذُوا الهَوْدَجَ، وَهُمْ يَظُنُّونَ أَنِّي فِيْهِ، كَمَا كُنْتُ أَصْنَعُ، فَاحْتَمَلُوهُ، فَشَدُّوهُ عَلَى البَعِيرِ، وَلَمْ يَشُكُّوا أَنِّي فِيْهِ، ثُمَّ أَخَذُوا بِرَأْسِ البَعِيرِ، فَانْطَلَقُوا بِهِ، فَرَجَعْتُ إِلَى العَسْكَرِ وَمَا فِيْهِ مِنْ دَاعٍ وَلاَ مُجِيبٍ، وَقَدِ انْطَلَقَ النَّاسُ.

قَالَتْ: فَتَلَفَّفْتُ بِجِلْبَابِي، ثُمَّ اضْطَجَعْتُ فِي مَكَانِي، وَعَرَفْتُ أَنْ لَوْ افْتُقِدْتُ لَرُجِعَ إِلَيَّ. قَالَتْ: فَوَاللَّهِ إِنِّي لَمُضْطَجِعَةٌ إِذْ مَرَّ بِي صَفْوَانُ بنُ المُعَطِّلِ السُّلَمِيُّ، وَقَدْ كَانَ تَخَلَّفَ عَنِ العَسْكَرِ لِبَعْضِ حَاجَتِهِ، فَلَمْ يَبِتْ مَعَ النَّاسِ، فَرَأَى سَوَادِي، فَأَقْبَلَ حَتَّى وَقَفَ عَلَيَّ، وَقَدْ كَانَ يَرَانِي قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ عَلَيْنَا الحِجَابُ، فَلَمَّا رَآنِي، قَالَ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، ظَعِينَةُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَا مُتَلَفِّفَةٌ فِي ثِيَابِي، قَالَ: مَا خَلَّفَكَ، يَرْحَمُكِ اللَّهُ؟ قَالَتْ: فَمَا كَلَّمْتُهُ، ثُمَّ قَرَّبَ البَعِيرَ، فَقَالَ: ارْكَبِي وَاسْتَأْخَرَ عَنِّي، قَالَتْ: فَرَكِبْتُ، وَأَخَذَ بِرَأْسِ البَعِيرِ، فَانْطَلَقَ سَرِيعاً، يَطْلُبَ النَّاسَ، فَوَاللَّهِ مَا أَدْرَكْنَا النَّاسَ، وَمَا افْتُقِدْتُ حَتَّى أَصْبَحْتُ، وَنَزَلَ النَّاسُ، فَلَمَّا اطْمَأَنُّوا طَلَعَ

الرَّجُلُ يَقُودُ بِي، فَقَالَ أَهْلُ الإِفْكِ مَا قَالُوا، فَارْتَعَجَ العَسْكَرُ، وَوَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ.

ثُمَّ قَدِمْنَا المَدِينَةَ، فَلَمْ أَلْبَثْ أَنِ اشْتَكَيْتُ شَكْوَى شَدِيدَةً، وَلاَ يَبْلُغُنِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، وَقَدِ انْتَهَى الحَدِيثُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِلَى أَبَوَيَّ، وَلاَ يَذْكُرُونَ لِي مِنْهُ قَلِيلاً وَلاَ كَثِيراً، إِلاَّ أَنِّي أَنْكَرْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَعْضَ لُطْفِهِ بِي، كُنْتُ إِذَا اشْتَكَيْتُ رَحِمَنِي، وَلَطَفَ بِي، فَلَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ بِي فِي شَكْوَايَ تِلْكَ، فَأَنْكَرْتُ ذَلِكَ مِنْهُ، حَتَّى إِذَا دَخَلَ عَلَيَّ، وَعِنْدِي أُمِّي تُمَرِّضُنِي، قَالَ: «كَيْفَ تِيكُمْ، لاَ يَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ.

قَالَتْ: حَتَّى وَجَدْتُ فِي نَفْسِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حِينَ رَأَيْتُ مَا رَأَيْتُ مِنْ جَفَائِهِ لِي: لَوْ أَذِنْتَ لِي، فَانْتَقَلْتُ إِلَى أُمِّي، فَمَرَّضَتْنِي؟ قَالَ: لاَ عَلَيْكِ. قَالَتْ: فَانْتَقَلْتُ إِلَى أُمِّي، وَلاَ عِلْمَ لِي بِشَيْءٍ مِمَّا كَانَ، حَتَّى نَقِهْتُ مِنْ وَجَعِي بَعْدَ بِضْعٍ وَعِشْرِينَ لَيْلَةً، وَكُنَّا قَوْماً عَرَباً، لاَ نَتَّخِذُ فِي بُيُوتِنَا هَذِهِ الكُنُفَ الَّتِي تَتَّخِذُهَا الأَعَاجِمُ، نَعَافُهَا وَنَكْرَهُهَا، إِنَّمَا كُنَّا نَذْهَبُ فِي فُسَحِ المَدِينَةِ، وَإِنَّمَا كَانَتِ النِّسَاءُ يَخْرُجْنَ كُلَّ لَيْلَةٍ فِي حَوَائِجِهِنَّ، فَخَرَجْتُ لَيْلَةً لِبَعْضِ حَاجَتِي وَمَعِي أُمُّ مِسْطَحٍ بِنْتُ

أَبِي رُهْمِ بنِ المُطَّلِبِ بنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَكَانَتْ أُمُّهَا بِنْتَ صَخْرِ بنِ عَامِرِ بنِ كَعْبِ بنِ سَعْدِ بنِ تَيْمٍ، خَالَةَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَتْ: فَوَاللَّهِ إِنَّهَا لَتَمْشِي معي إِذْ عَثَرَتْ فِي مِرْطِهَا، فَقَالَتْ تَعِسَ مِسْطَحُ، وَمِسْطَحُ لَقَبٌ وَاسْمُهُ عَوْفٌ، قَالَتْ: قُلْتُ: بِئْسَ لَعَمْرُ اللَّهِ مَا قُلْتِ لِرَجُلٍ مِنَ المُهَاجِرِينَ قَدْ شَهِدَ بَدْرَاً، قَالَتْ: أَوَ مَا بَلَغَكِ الخَبَرُ يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ؟ قَالَتْ: قُلْتُ: وَمَا الخَبَرُ؟ فَأَخْبَرَتْنِي بِالَّذِيْ كَانَ مِنْ قَوْلِ أَهْلِ الإِفْكِ. قَالَتْ: قُلْتُ: أَوَ كَانَ هَذَا؟ قَالَتْ: نَعَمْ وَاللَّهِ، لَقَدْ كَانَ. قَالَتْ: فَوَاللَّهِ مَا قَدِرْتُ عَلَى أَنْ أَقْضِيَ حَاجَتِي، وَرَجَعْتُ؛ فَوَاللَّهِ مَا زِلْتُ أَبْكِي حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّ البُكَاءَ سَيَصْدَعُ كَبِدِي، قَالَتْ: قُلْتُ لأُمِّي: يَغْفِرُ اللَّهُ لَكِ، تَحَدَّثَ النَّاسُ بِمَا تَحَدَّثُوا بِهِ، وَلاَ تَذْكُرِينَ لِي مِنْ ذَلِكَ شَيْئَاً! قَالَتْ: أَيْ بُنَيَّةُ، خَفِّضِي عَلَيْكِ الشَّأْنَ، فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتِ امْرَأَةٌ حَسْنَاءُ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا، لَهَا ضَرائِرُ إِلاَّ كَثَّرْنَ وَكَثَّرَ النَّاسُ عَلَيْهَا.

قَالَتْ: وَقَدْ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي النَّاسِ يَخْطُبُهُمْ، وَلاَ أَعْلَمُ بِذَلِكَ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاس مَا بَالُ رِجَالٍ يُؤْذُونَنِي فِي أَهْلِي، وَيَقُولُونَ عَلَيْهِمْ غَيْرَ الحَقِّ، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُمْ إِلاَّ خَيْرَاً، وَيَقُولُونَ ذَلِكِ

لِرَجُلٍ وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُ إلاَّ خَيْرَاً، وَمَا يَدْخُلُ بَيْتَاً مِنْ بُيُوتِي إلاَّ وهُوَ مَعِي[1].

وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَ (إِثْمَ) ذَلِكَ كَبِيرُ المُنَافِقِينَ عَبْدُ اللَّهِ بنُ أُبَيِّ بنِ سَلُولٍ مَعَ رِجَالٍ مِنَ الخَزْرَجِ، وَوَقَعَ فِي ذَلِكَ مِسْطَحُ بنُ أُثَاثَةَ، وَحَسَّانُ بنُ ثَابِتٍ، وَحَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ، وَجَرَتْ مُشَادَّةٌ بَعْدَ خُطْبَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَيْنَ سَيِّدِ الأَوْسِ أُسَيْدِ بنِ الحُضَيْرِ وَسيِّدِ الخَزْرَجِ سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ، لأَنَّ رَأْسَ المُنَافِقِينَ هُوَ مِنَ الخَزْرَجِ.

وَاسْتَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلِيَّ بنَ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأُسَامَةَ بنَ زَيْدٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ عَلِيٌّ: إنَّ النِّسَاءَ لَكَثِيرٌ. وَأَثْنَى أُسَامَةُ خَيْرَاً، وَأَكَّدَ أَنَّ مَا قِيلَ كَذِبٌ وَبَاطِلٌ.

قَالَتْ عَائِشَةُ: ثُمَّ دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعِنْدِي أَبَوَايَ، وَعِنْدِي امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ، وَأَنَا أَبْكِي وَهِيَ تَبْكِي مَعِي، فَجَلَسَ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا عَائِشَةُ، إنَّهُ قَدْ كَانَ مَا قَدْ بَلَغَكَ مِنْ قَوْلِ النَّاسِ، فَاتَّقِي اللَّهَ، وَإِنْ كُنْتِ قَدْ قَارَفْتِ سُوءَاً مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ فَتُوبِي إِلَى اللَّهِ، فَإِنَّ

---

(١) سيرة ابن هشام.

اللَّهَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ، قَالَتْ: فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلاَّ أَنْ قَالَ لِي ذَلِكَ، فَقَلَصَ دَمْعِي، حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ شَيْئاً، وانْتَظَرْتُ أَبَوَايَ أَنْ يُجِيبَا عَنِّي رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، فَلَمْ يَتَكَلَّمَا قَالَتْ: وَأَيْمِ اللَّهِ لأَنَا كُنْتُ أَحْقَرَ فِي نَفْسِي، وَأَصْغَرَ شَأْناً مِنْ أَنْ يُنْزِلَ اللَّهُ فِيَّ قُرْآناً يُقْرَأُ بِهِ فِي المَسَاجِدِ، وَيُصَلَّى بِهِ، وَلَكِنِّي قَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي نَوْمِهِ شَيْئاً يُكَذِّبُ بِهِ اللَّهُ عَنِّي، لِمَا يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَتِي، أَوْ يُخْبِرُ خَبَراً، فَأَمَّا قُرْآنٌ يَنْزِلُ فِيَّ، فَوَاللَّهِ لَنَفْسِي كَانَتْ أَحْقَرَ عِنْدِي مِنْ ذَلِكَ. قَالَتْ: فَلَمَّا لَمْ أَرَ أَبَوَيَّ يَتَكَلَّمَانِ، قَالَتْ: قُلْتُ لَهُمَا: أَلاَ تُجِيبَانِ رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَتْ: فَقَالاَ: وَاللَّهِ مَا نَدْرِي بِمَاذَا نُجِيبُهُ، قَالَتْ: وَوَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَهْلَ بَيْتٍ دَخَلَ عَلَيْهِمْ مَا دَخَلَ عَلَى آلِ أَبِي بَكْرٍ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ. قَالَتْ: فَلَمَّا اسْتَعْجَمَا عَلَيَّ، اسْتَعْبَرْتُ فَبَكَيْتُ، ثُمَّ قُلْتُ: وَاللَّهِ لاَ أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مِمَّا ذَكَرْتَ أَبَداً. وَاللَّهِ إِنِّي لأَعْلَمُ لَئِنْ أَقْرَرْتُ بِمَا يَقُولُ النَّاسُ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ، لأَقُولَنَّ مَا لَمْ يَكُنْ. وَلَئِنْ أَنَا أَنْكَرْتُ مَا يَقُولُونَ لاَ تُصَدِّقُونَنِي. قَالَتْ: ثُمَّ الْتَمَسْتُ اسْمَ «يَعْقُوبَ» فَمَا أَذْكُرُهُ، فَقُلْتُ: وَلَكِنْ سَأَقُولُ كَمَا قَالَ أَبُو يُوسُفَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾[1].

قَالَتْ: فَوَاللَّهِ مَا بَرِحَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَجْلِسَهُ حَتَّى تَغَشَّاهُ مِنَ اللَّهِ مَا كَانَ يَتَغَشَّاهُ، فَسُجِّيَ بِثَوْبِهِ، وَوُضِعَتْ لَهُ

---

(١) سورة يوسف، الآية ١٨.

وِسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ تَحتَ رَأْسِهِ، فَأَمَّا أَنَا حِينَ رَأَيْتُ مِنْ ذَلِكَ مَا رَأَيْتُ، فَوَاللَّهِ مَا فَزِعْتُ وَلاَ بَالَيْتُ، قَدْ عَرَفْتُ أَنِّي بَرِيئَةٌ، وَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ غَيْرُ ظَالِمِي. وَأَمَّا أَبَوَايَ، فَوَالَّذِيْ نَفْسُ عَائِشَةَ بِيَدِهِ، مَا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى ظَنَنْتُ لَتَخْرُجَنَّ أَنْفُسُهُمَا، فَرَقاً مِنْ أَنْ يَأْتِيَ مِنَ اللَّهِ تَحْقِيقُ مَا قَالَ النَّاسُ. قَالَتْ: ثُمَّ سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجَلَسَ، وَإِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الجُمَانِ فِي يَوْمٍ شَاتٍ، فَجَعَلَ يَمْسَحُ العَرَقَ عَنْ جَبِينِهِ، وَيَقُولُ: أَبْشِرِي يَا عَائِشَةُ، فَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ بَرَاءَتَكِ، قَالَتْ: قُلْتُ: بِحَمْدِ اللَّهِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى النَّاسِ، فَخَطَبَهُمْ، وَتَلاَ عَلَيْهِمْ مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مِنَ القُرْآنِ فِي ذَلِكَ، ثُمَّ أَمَرَ بِمِسْطَحِ بنِ أُثَاثَةَ، وَحَسَّانَ بنِ ثَابِتٍ، وَحَمْنَةَ بِنْتِ جَحْشٍ، وَكَانُوا مِمَّنْ أَفْصَحَ بِالفَاحِشَةِ، فَضُرِبُوا حَدَّهُمْ[1]. وَكَانَ مَا نَزَلَ مِنَ القُرْآنِ فِي ذَلِكَ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾[2].

فَلَمَّا نَزَلَ فِي عَائِشَةَ، وَفِيمَنْ قَالَ لَهَا مَا قَالَ، قَالَ أَبُو

(١) سيرة ابن هشام.
(٢) سورة النور، الآية: ١١.

بَكْرٍ، وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ لِقَرَابَتِهِ وَحَاجَتِهِ: وَاللَّهِ لاَ أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئَاً أَبَدَاً، وَلاَ أَنْفَعُهُ بِنَفْعٍ أَبَدَاً بَعْدَ الَّذِيْ قَالَ لِعَائِشَةَ، وَأَدْخَلَ عَلَيْنَا، قَالَتْ: وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾[1].

قَالَتْ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى وَاللَّهِ، إِنِّي لأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ نَفَقَتَهُ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: لاَ أَنْزِعُهَا مِنْه أَبَدَاً.

وَتُعَدُّ مِحْنَةُ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، دَرْسَاً لِنِسَاءِ العَالَمِينَ لِيَصْبِرْنَ إِذَا ابْتُلِينَ وَيَعْفُونَ إِذَا امْتُحِنَّ، وَالمِحْنَةُ لاَ تَخْتَصُّ بِفِئَةٍ، وَالاِبْتِلاَءُ لاَ يَنْحَصِرُ فِي جَمَاعَةٍ، فَكُلُّ امْرَأَةٍ فِي الدُّنْيَا تَجِدُ أَمَامَهَا مِحْنَةَ مَنْ هِيَ أَفْضَلُ مِنْهَا، بَلْ أَحَبُّ النِّسَاءِ إِلَى أَفْضَلِ خَلْقِ اللَّهِ، وَزَوْجِ حَبِيبِ اللَّهِ، وَكَانَ أَبُوهَا أَحَبَّ الرِّجَالِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَمَعَ ذَلِكَ امْتُحِنَتْ فَصَبَرَتْ، وَأُشِيعَ عَلَيْهَا فَعَفَتْ، وَاللَّهُ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الصَّابِرِينَ.

وَكَانَتْ عَائِشَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، شَدِيدَةَ الغِيرَةِ مِنْ نِسَاءِ

---

(١) سورة النور، الآية: ٢٢.

النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الأُخْرَيَاتِ، بَلْ وَمِنْ خَدِيجَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، الَّتِي تُوفِّيَتْ قَبْلَ أَنْ يَتِمَّ زَوَاجُ عَائِشَةَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، بِخَمْسِ سَنَوَاتٍ، وَذَلِكَ لِكَثْرَةِ ذِكْرِ رَسُولِ اللَّهِ لِخَدِيجَةَ، وَتُقِرُّ عَائِشَةُ بِهَذَا فَتَقُولُ: اسْتَأْذَنَتْ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، أُخْتُ خَدِيجَةَ، عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيجَةَ، فَارْتَاحَ لِذَلِكَ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ»، فَقُلْتُ: وَمَا تَذْكُرُ مِنْ عَجُوزٍ مَنْ عَجَائِزِ قُرَيْشٍ، حَمْرَاءِ الشِّدْقَيْنِ، هَلَكَتْ فِي الدَّهْرِ، فَأَبْدَلَكَ اللَّهُ خَيْرَاً مِنْهَا، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَبْدَلَنِي اللَّهُ خَيْرَاً مِنْهَا، قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِيَ النَّاسُ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِيَ النَّاسُ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِيَ النَّاسُ، وَرَزَقَنِيَ اللَّهُ أَوْلَادَهَا، وَحَرَمَنِي أَوْلَادَ النَّاسِ»(١). وَقَالَتْ فِي حَدِيثٍ آخَرَ: مَا غِرْتُ مِنِ امْرَأَةٍ مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ - وَلَقَدْ مَاتَتْ قَبْلَ أَنْ يَتَزَوَّجَنِي بِثَلَاثِ سِنِينَ - لِمَا كُنْتُ أَسْمَعُهُ يَذْكُرُهَا، وَلَقَدْ أَمَرَهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُبَشِّرَهَا بِبَيْتٍ مِنْ قَصَبٍ فِي الجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ لَيَذْبَحُ الشَّاةَ ثُمَّ يَهْدِيهَا إِلَى خَلَائِلِهَا(٢).

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

عَائِشَةُ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ:

تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهِيَ فِي مُقْتَبَلِ العُمْرِ، لَمْ تَتَجَاوَزِ العِشْرِينَ سَنَةً، وَلَكِنَّهَا قَدْ جَمَعَتْ عِلْماً غَزِيراً، وَسَمِعَتْ حَدِيثاً كَثِيراً، وَشَاهَدَتْ عَمَلاً وَفِيراً مِنْ أَعْمَالِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ مَا لاَ يُمْكِنُ أَنْ تَعْرِفَهُ سِوَى الزَّوْجَةِ، لِذَا فَقَدْ حَصَلَتْ عَلَى فِقْهٍ وَاسِعٍ، إِضَافَةً إِلَى قُدْرَتِهَا عَلَى الاسْتِنْبَاطِ وَمَعْرِفَةِ الأَحْكَامِ لِذَا كَانَتْ مَصْدَراً لِلْعِلْمِ، وَمَحَطًّا لِلسُّؤَالِ عَنْ عَمَلِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَبْلُغُ مُسْنَدُ عَائِشَةَ أَلْفَيْنِ وَمِائَتَيْنِ وَعَشْرَةَ أَحَادِيثَ، اتَّفَقَ الشَّيْخَانِ عَلَى مِائَةٍ وَأَرْبَعَةٍ وَسَبْعِينَ حَدِيثاً، وَانْفَرَدَ البُخَارِيُّ بِأَرْبَعَةٍ وَخَمْسِينَ، وَانْفَرَدَ مُسْلِمٌ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ حَدِيثاً.

وَقَدْ فَقَدَتْ عَائِشَةُ بِوَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَا كَانَتْ تَجِدُهُ مِنْ عَطْفِ النَّبِيِّ، عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، وَتَقْدِيمِهَا عَلَى بَقِيَّةِ نِسَائِهِ، وَهَذَا مَا جَعَلَهَا بَعْدَ ذَلِكَ تَفْخَرُ عَلَيْهِنَّ، بِمَا كَانَ لَهَا مِنْ فَضْلٍ. فَيُرْوَى أَنَّهَا قَالَتْ: لَقَدْ أُعْطِيتُ تِسْعاً مَا أُعْطِيَتْهَا امْرَأَةٌ بَعْدَ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ: لَقَدْ نَزَلَ جِبْرِيلُ بِصُورَتِي فِي رَاحَتِهِ حَتَّى أَمَرَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ يَتَزَوَّجَنِي، وَلَقَدْ تَزَوَّجَنِي بِكْراً، وَمَا تَزَوَّجَ بِكْراً غَيْرِي، وَلَقَدْ

قُبِضَ وَرَأْسُهُ فِي حِجْرِي، وَلَقَدْ قَبْرْتُهُ فِي بَيْتِي، وَلَقَدْ حَفَّتِ المَلاَئِكَةُ بِبَيْتِي، وَإِنْ كَانَ الوَحْيُ لَيَنْزِلُ عَلَيْهِ وَإِنِّي لَمَعَهُ فِي لِحَافِهِ، وَإِنِّي لاَبْنَةُ خَلِيفَتِهِ وَصِدِّيقِهِ، وَلَقَدْ نَزَلَ عُذْرِي مِنَ السَّمَاءِ، وَلَقَدْ خُلِقْتُ طَيِّبَةً عِنْدَ طَيِّبٍ، وَلَقَدْ وُعِدْتُ مَغْفِرَةً وَرِزْقاً كَرِيماً.

وَكَانَتْ أُمَّهَاتُ المُؤْمِنِينَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ، مَحَطَّ كَثِيرٍ مِنْ أَسْئِلَةِ المُسْلِمِينَ وَخَاصَّةً فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالنِّسَاءِ أَوْ عَلاَقَتِهِنَّ بِالرِّجَالِ، بَلْ إِنَّ الخَلِيفَتَيْنِ الرَّاشِدَيْنِ عُمَرَ وعُثْمَانَ كَانَا يُرْسِلاَنِ المُسْلِمِينَ لِسُؤَالِ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ، وَكَانَتْ عَائِشَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَعْلَمَهُنَّ بِذَلِكَ، ثُمَّ أُمُّ سَلَمَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وَمِنْ ذَلِكَ مَا وَقَعَ مِنْ خِلاَفٍ بَيْنَ الصَّحَابَةِ فِي وُجُوبِ الغُسْلِ عِنْدَ مُخَالَطَةِ الرَّجُلِ زَوْجَتَهُ دُونَ إِنْزَالٍ، فَقَالَ أَبُو مُوسَى: أَنَا أَشْفِيكُمْ مِنْ ذَلِكَ، فَقُمْتُ فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَى عَائِشَةَ، فَأَذِنَ لِي، فَقُلْتُ: يَا أُمَّ المُؤْمِنِينَ - أَوْ يَا أُمَّاهُ - إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكِ عَنْ شَيْءٍ، وَإِنِّي اسْتَحْيِيكِ، فَقَالَتْ: لاَ تَسْتَحْيِي أَنْ تَسْأَلَنِي عَمَّا كُنْتَ سَائِلاً عَنْهُ أُمَّكَ الَّتِي وَلَدَتْكَ فَإِنَّما أَنَا أُمُّكَ، قُلْتُ: فَمَا يُوجِبُ الغُسْلَ؟ قَالَتْ: عَلَى الخَبِيرِ سَقَطْتَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا جَلَسَ بَيْنَ شُعَبِهَا الأَرْبَعِ وَمَسَّ الخِتَانُ الخِتَانَ فَقَدْ

وَجَبَ الغُسْلُ»[1].

وَكَانَ لِأُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ مَكَانَةٌ رَفِيعَةٌ عِنْدَ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَخَاصَّةً عَائِشَةَ لِمَكَانَتِهَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلِمَكَانَةِ أَبِيهَا، وَلِمَا تَعْلَمُ مِنْ أَحَادِيثَ، وَلِمَا تعْرِفُ مِنْ فِقْهٍ، وَسَبَقَ أَنْ ذَكَرْنَا أَنَّهَا كَانَتْ مَحَطَّ أَنْظَارِ السَّائِلِينَ، وَأَنَّ مَا أُشِيعَ عَنِ الخِلَافِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ عُثْمَانَ، ثُمَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَ عَلِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جَمِيعاً، إِنَّمَا هُو مِنْ وَضْعِ المُغْرِضِينَ، وَيُمْكِنُ الانْتِبَاهُ إِلَى هَذَا بِسُهُولَةٍ عِنْدَ التَّفْكِيرِ المُجَرَّدِ، وَالبَحْثِ المُنْصِفِ، إِذْ عَدُّوهَا مُخَالِفَةً لِعُثْمَانَ، مُعَارِضَةً لِإِدَارَتِهِ، مُنْتَقِدَةً لِوُلَاتِهِ، فَلَمَّا اسْتُشْهِدَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَصْبَحَتْ عِنْدَهُمْ مطَالِبَةً بِدَمِهِ، مُدَافِعَةً عَنْهُ وَعَنْ سَابِقِ أَعْمَالِهِ، مُنَابِذَةً لِعَلِيٍّ، مُحَرِّضَةً عَلَيْهِ، مُوَاجِهَةً لَهُ، وَبِذَا حَقَّقَ المُغْرِضُونَ أَهْدَافَهُمُ الخَبِيثَةَ بِالطَّعْنِ بِالخَلِيفَةِ الرَّاشِدِيِّ الثَّالِثِ عَلَى لِسَانِهَا، ثُمَّ بِالطَّعْنِ بِهَا، قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ. وَإِذَا رَجَعْنَا إِلَى مَنَاقِبِ عُثْمَانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، نَجِدُ أَنَّ أَكْثَرَ تِلْكَ المَنَاقِبِ مِنْ رِوَايَتِهَا، أَوْ أَنَّهَا كَانَتْ أَكْثَرَ رِوَايَةً مِنْ غَيْرِهَا لِتلْكَ المَنَاقِبِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى كَذِبِ مَنْ نَالَ مِنْ عُثْمَانَ أَوْ مِنْها أَوْ مَنْ تَنَاوَلَهُمَا بِسُوءٍ.

---

(١) رواه مسلم.

الفِتْنَةُ:

لمَّا رَأَتْ عَائِشَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ شَوْكَةَ أَهْلِ الفِتْنَةِ قَدْ قَوِيَتْ فِي المَدِينَةِ، وَقَدْ أَصْبَحُوا يَتَعَرَّضُونَ لِلنَّاسِ وَيَنَالُونَ مِمَّن يُرِيدُونَ، وَلاَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَقِفَ فِي وَجْهِهِمْ، فَقَدْ ضَرَبُوا وَجهَ بَغْلَةِ أُمِّ المُؤْمِنِينَ أُمِّ حَبِيبَةَ رَمْلَةَ بِنْتِ أَبِي سُفْيَانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَهِيَ فِي طَرِيقِهَا لإِسْعَافِ الخَلِيفَةِ بِالمَاءِ، وَهُوَ مَحْصُورٌ فِي بَيْتِهِ، فَنَدَّتِ البَغْلَةُ بِصَاحِبَتِهَا أُمِّ المُؤْمِنِينَ فَسَقَطَتْ أَوْ كَادَتْ. لَمَّا رَأَتْ عَائِشَةُ ذَلِكَ، وَكَانَ مَوْسِمُ الحَجِّ قَدِ اقْتَرَبَ، فَانْطَلَقَتْ إِلَى المَوْسِمِ، وَعَلِمَتْ أَنَّهَا لَوْ بَقِيَتْ فِي المَدِينَةِ لَوُجِّهَتْ لَهَا أَسْئِلَةٌ، وَرُبَّمَا تعَرَّضَتْ إِلَى مَا تَعرَّضَ إِلَيْهِ غَيْرُهَا. وَحَجَّ بِالنَّاسِ فِي هَذَا العَامِ عَبْدُ اللَّهِ بنُ عَبَّاسٍ بِنَاءً عَلَى طَلَبِ الخَلِيفَةِ وَإِلحَاحِهِ، وَقَدْ كَانَ عَلَى بَابِهِ يُدَافِعُ عَنْهُ مَعَ بَقِيَّةِ الصَّحَابَةِ وَأَبْنَائِهِمْ.

وَانْتَهَى المَوْسِمُ، وَعَادَتْ عَائِشَةُ إِلَى المَدِينَةِ، وَفِي طَرِيقِ العَوْدَةِ عَلِمَتْ بِقَتْلِ الخَلِيفَةِ، فَرَجَعَتْ أَدْرَاجَهَا إِلَى مَكَّةَ، فَاجْتَمَعَ النَّاسُ فَقَالَتْ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الغَوْغَاءَ مِنْ أَهْلِ الأَمْصَارِ، وَأَهْلِ المِيَاهِ، وَعَبِيدِ أَهْلِ المَدِينَةِ اجْتَمَعُوا أَنْ عَابَ الغَوْغَاءُ عَلَى هَذَا المَقْتُولِ بِالأَمْسِ الإِرْبِ[1]، واسْتِعْمَالِ مَنْ حَدُثَتْ سِنُّهُ، وَقَدِ

---

(١) الإِرْبِ: الداهية، ذو العقل.

اسْتُعْمِلَ أَسْنَانُهُمْ قَبْلَهُ، وَمَوَاضِعَ مَنْ مَوَاضِعِ الحِمَى حَمَاهَا لَهُمْ، وَهِيَ أُمُورٌ قَدْ سُبِقَ بِهَا لاَ يَصْلُحُ غَيْرُهَا، فَتَابَعَهُمْ وَنَزَعَ لَهُمْ عَنْهَا اسْتِصْلاَحاً لَهُمْ، فَلَمَّا لَمْ يَجِدُوا حُجَّةً وَلاَ عُذْراً خَلَجُوا[1] وَبَادَوْا بِالعُدْوَانِ، وَنَبَا فِعْلُهُمْ عَنْ قَوْلِهِمْ، فَسَفَكُوا الدَّمَ الحَرَامَ، وَاسْتَحَلُّوا البَلَدَ الحَرَامَ، وَأَخَذُوا المَالَ الحَرَامَ، وَاسْتَحَلُّوا الشَّهْرَ الحَرَامَ. وَاللَّهِ لأُصْبَعُ عُثْمَانَ خَيْرٌ مِنْ طِبَاقِ الأَرْضِ أَمْثَالَهُمْ. فَنَجَاةٌ مِنِ اجْتِمَاعِكُمْ عَلَيْهِمْ حَتَّى يُنْكَلَ بِهِمْ غَيْرُهُمْ وَيُشَرَّدَ مَنْ بَعْدَهُمْ. وَوَاللَّهِ لَوْ أَنَّ الَّذِي اعْتَدُّوا بِهِ عَلَيْهِ كَانَ ذَنْباً لَخُلِّصَ مِنْهُ كَمَا يُخَلَّصُ الذَّهَبُ مِنْ خَبَثِهِ أَوْ الثَّوْبُ مِنْ دَرَنِهِ إِذْ مَاصُوهُ كَمَا يُمَاصُ الثَّوْبُ بِالمَاءِ[2].

عَائِشَةُ أَيَّامَ عَلِيٍّ:

بُويِعَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ بِالخِلاَفَةِ عَلَى غَيْرِ رَغْبَةٍ فِيْهَا، وَأَرَادَ أَنْ يَقْتَصَّ مِنْ قَتَلَةِ الخَلِيفَةِ السَّابِقِ، غَيْرَ أَنَّهُ وَجَدَهُمْ مِنَ الكَثْرَةِ، وَالتَّرَابُطِ، وَالسَّيْطَرَةِ بِصُورَةٍ لاَ يَسْتَطِيعُ مَعَهَا القِصَاصَ مِنْهُمْ قَبْلَ بَيْعَةِ الوِلاَيَاتِ، وَهُدُوءِ الأَوْضَاعِ، وَلَكِنْ فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ هُنَاكَ مَنْ يُطَالِبُهُ بِسُرْعَةِ القِصَاصِ مِنْ هَؤُلاَءِ المُجْرِمِينَ

---

(١) خلجوا: طاروا.

(٢) أرادت أن أصحاب الفتنة استتابوا الخليفة عما نقموا منه فلما أعطاهم ما طلبوا قتلوه لأنهم أصحاب فتنة لا أهل إصلاح.

الأَمْرُ الَّذِيْ سَادَتْ فِيْهِ الفَوْضَى فِي مَدِينَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاسْتَأْذَنَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ الخَلِيفَةَ فِي السَّفَرِ إِلَى مَكَّةَ لأَدَاءِ العُمْرَةِ فَأَذِنَ لَهُمَا، فَسَافَرَا. وَلَكِنَّهُمَا وَجَدَا مَكَّةَ قَدْ غَدَتْ تَزْدَحِمُ بِالقَادِمِينَ إِلَيْهَا كَبَلَدٍ آمِنٍ مِمَّا جَعَلَ الاسْتِقْرَارَ فِيْهَا صَعْباً، وَقَرَّرَا التَّوَجُّهَ إِلَى البَصْرَةِ، وَسَارَتْ مَعَهُمَا أُمُّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ، فَطَلْحَةُ زَوْجُ أُخْتِهَا أُمِّ كُلْثُومٍ، وابن أُخْتِهَا أسماء، عَبْدُ الله، في الرَّكْبِ، وَالزُّبَيْرُ وَالِدُ أَبْنَائِهَا. وَكَادَتْ تَسِيرُ مَعَهُمْ أُمُّ المُؤْمِنِينَ حَفْصَةُ لَوْلاَ أَنْ مَنَعَهَا أَخُوهَا عَبْدُ اللَّهِ.

سَارَ الرَّكْبُ وَلَمْ يَكُنْ فِي نِيَّتِهِ القِتَالُ، وَلاَ خِلاَفُ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بَلِ العَمَلُ عَلَى تَهْدِئَةِ الأَوْضَاعِ وَرَأْبِ الصَّدْعِ، وَكَانَتْ أُمُّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ تَظُنُّ أَنَّ وُجُودَهَا قَدْ يُخَفِّفُ مِنْ غَلْوَاءِ الأَطْرَافِ المُتَنَازِعَةِ.

وَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى مِيَاهِ بَنِي عامِرٍ لَيلاً، نَبَحتِ الكِلاَبُ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: أَيُّ مِياهٍ هٰذَا؟ قَالُوا: مَاءُ الحَوْأَبِ. قَالَتْ: مَا أَظُنُّنِي إِلاَّ أَنَّنِي رَاجِعَةٌ. قَالَ بَعْضُ مَنْ كَانَ مَعَهَا: بَلْ تَقْدَمِينَ فَيَرَاكِ المُسْلِمُونَ، فَيُصْلِحُ اللَّهُ ذَاتَ بَيْنِهِمْ، قَالَتْ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمِ، قَالَ: «كَيْفَ بِإِحْدَاكُنَّ تَنْبَحُ عَلَيْهَا كِلاَبُ الحَوْأَبِ».

وَوَصَلَ الرَّكْبُ إِلَى البَصْرَةِ، وَعَلَيْهَا عُثْمَانُ بنُ حُنَيْفٍ وَالِيَاً مِنْ قِبَلِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ، وَلَكِنَّ المُجْتَمَعَ كَانَ عَلَى خِلاَفٍ، وَدَخَلَ الرَّكْبُ البَصْرَةَ وَمَعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بنُ عَامِرٍ الوَالِي السَّابِقُ لِلْبَصْرَةِ، فتهَيَّأَ عُثْمَانُ بنُ حُنَيْفٍ، لَكِنَّ النَّاسَ مُخْتَلِفُونَ فتكَلَّمَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَرَدَّ عَلَيْهِمْ عُثْمَانُ بنُ حُنَيْفٍ، وَتكَلَّمَتْ عَائِشَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَكَادَ يَنْجَلِي الخِلاَفُ إِلاَّ أَنَّ أَمِيرَ خَيْلِ البَصْرَةِ حَكِيمَ بنَ جَبَلَةَ، وَهُوَ أَحَدُ الغَوْغَائِيِّينَ الَّذِينَ تَكَلَّمُوا عَنْ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بنِ عَفَّانَ قَدْ أَنْشَبَ القِتَالَ، إِذْ خَافَ الصُّلْحَ الَّذِيْ يَعُودُ عَلَيْهِ بِالوَيْلِ لِمَا سَبَقَ أَنْ فَعَلَ. وَلَمْ يَتَسِعِ القِتَالُ إِذْ اتفَقَ الطَّرَفَانِ أَنْ يُرْسِلاَ رَسُولاً إِلَى المَدِينَةِ لِيَرَى هَلْ بَايَعَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ عَلِيًّا مُكْرَهَيْنِ؟ فَإِنْ كَانَا بَايَعَا مُكْرَهَيْنِ غَادَرَ عُثْمَانُ بنُ حُنَيْفٍ البَصْرَةَ، وَإِنْ كَانَا غَيْرَ مُكْرَهَيْنِ تَرَكَ البَصْرَةَ الرَّكْبُ المَكِّيُّ، وَحَتَّى يَعُودَ الرَّسُولُ يُصَلِّي بِالنَّاسِ عُثْمَانُ بنُ حُنَيْفٍ، وَيَبْقَى بَيْتُ المَالِ تَحْتَ يَدِهِ، أَيْ هُوَ الأَمِيرُ.

سَارَ الرَّسُولُ، وَهُوَ كَعْبُ بنُ سَوْرٍ الأَزْدِيُّ، وَلَمْ يَحْصَلْ عَلَى الخَبَرِ بِسُهُولَةٍ حَتَّى أَخْبَرَهُ أُسَامَةُ بنُ زَيْدٍ أَنَّهُمَا بَايَعَا مُكْرَهَيْنِ خَوْفَاً مِنَ الفِتْنَةِ. وَرَجَعَ كَعْبُ بِالخَبَرِ إِلَى البَصْرَةِ، وَلَمَّا أَعْطَاهُمُ الجَوَابَ عَادَتِ الفِتْنَةُ مِنْ جَدِيدٍ، وَاسْتَغَلَّهَا الغَوْغَائِيُّونَ ثَانِيَةً،

فَأَلْحَقُوا الأَذَى بِعُثْمَانَ بن حُنَيْفٍ الَّذِي تَرَكَ البَصْرَةَ، وَالْتَحَقَ بِمُعَسْكَرِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ الَّذِي قَدْ أَصْبَحَ فِي ذِيْ قَارٍ قُرْبَ الكُوفَةِ. وَلَم يُقْتَلْ عُثْمَانُ مَعَ أَنَّهُ رَأْسُ الخَصْمِ - حَسْبَ تَصَوُّرِ المُغْرِضِينَ - لَمْ يُقْتَلْ لأَنَّهُ لَيْسَ بِعَدُوٍّ وَإِنَّمَا كَانَ أَخاً ضَعُفَتْ حُجَّتُهُ أَمَامَ مُنَاظِرِيهِ فَقَلَّ أَتْبَاعُهُ فَغَادَرَ البَلَدَ بِحُرِّيَّةٍ وَأَصْبَحَتِ البَصْرَةُ بِيَدِ الرَّكْبِ المَكِّيِّ فَاقْتَصُّوا مِنْ قَتَلَةِ الخَلِيفَةِ عُثْمَانَ بنِ عَفَّانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ حَكِيمُ بنُ جَبَلَةَ مِنْ بَيْنِ الَّذِينَ قُتِلُوا، فَثَارَتْ قَبِيلَتُهُ بَنُو عَبْدِ القَيْسِ، وَنَقَمُوا عَلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ، وَلَمْ يَنْجُ مِنَ القِصَاصِ سِوَى حُرْقُوصِ بنِ زُهَيْرٍ العَبْدِيِّ.

كَانَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ فِي المَدِينَةِ يَسْتَعِدُّ لِلسَّيْرِ إِلَى الشَّامِ لَمَّا بَلَغَهُ خَبَرُ مَسِيرِ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَأُمِّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ إِلَى البَصْرَةِ، فَخَرَجَ إِلَى الرَّبَذَةِ يُرِيدُ رَدَّهُمْ، وَلَكِنْ وَجَدَ أَنَّهُمْ قَدْ فَاتُوهُ، فَتَبِعَهُمْ حَتَّى وَصَلَ إِلَى ذِي قَارٍ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنَ الكُوفَةِ، حَيْثُ عَسْكَرَ هُنَاكَ، وَكَانَ عَلِيٌّ قَدْ أَقَرَّ أَبَا مُوسَى الأَشْعَرِيَّ وَالِياً عَلَى الكُوفَةِ، وَلَكِنْ عِنْدَمَا اسْتَنْهَضَهُ لِلْقِتَالِ لَمْ يَنْهَضْ، وَأَرْسَلَ لَهُ الوَفْدَ إِثْرَ الوَفْدِ لِلنُّهُوضِ فَلَمْ يُفِدْ ذَلِكَ شَيْئاً، فَتَسَلَّمَ الأَشْتَرُ النَّخَعِيُّ الكُوفَةَ، وَخَرَجَ أَبُو مُوسَى إِلَى مَكَّةَ وَأَقَامَ بِهَا.

وَعِنْدَمَا وَصَلَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ إِلَى ذِي قَارٍ وَعَسْكَرَ هُنَاكَ

بَلغَهُ قَتْلُ قتَلَةِ الخَلِيفَةِ عُثْمَانَ الَّذِينَ كَانُوا فِي البَصْرَةِ، فَلَمْ يَتكَلَّمْ شَيْئَاً لأَنَّ هَذَا الَّذِي يَرْغَبُهُ هُوَ، وَيُرِيدُ أَنْ يُنَفِّذَهُ عِنْدَمَا تَسْتَقِرُّ الأَوْضَاعُ، وَيَتَمَكنُّ مِنَ التنْفِيذِ.

أَرْسَلَ الخَلِيفَةُ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ القَعْقَاعَ بنَ عَمْروٍ التَّمِيمِيَّ مِنْ عَسْكَرِهِ فِي ذِي قَارٍ إِلَى البَصْرَةِ فَكَلَّم طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ وَأُمَّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ، وَبَيَّنَ لَهُمْ تفَرُّقَ القَوْمِ عَنْهُمْ بِسَبَبِ القِصَاصِ مِنْ قتَلَةِ الخَلِيفَةِ عُثْمَانَ، وَمَاذَا سَيكُونُ لَوْ حَدَثَ هَذَا فِي كُلِّ إِقْلِيمٍ؟ فقَالُوا: فَمَا الرَّأْيُ؟ قَالَ: إِنَّ هَذَا أَمْرٌ دَوَاؤُهُ التَّسْكِينُ وَاجْتِمَاعُ الشَّمْلِ، حَتَّى إِذَا صَلَحَ الأَمْرُ، وَهَدَأَتِ الثَّائِرَةُ، وَأَمِنَ النَّاسُ، وَاطْمَأَنَّ بَعْضُهُمِ إِلَى بَعْضٍ نَظَرْنَا فِي أَمْرِ الَّذِينَ أَحْدَثُوا هَذِهِ الفِتْنَةَ. فَاسْتَحْسَنَ القَوْمُ هَذَا الرَّأْيَ، وَقَالُوا: إِنْ وَافَقَ عَلِيٌّ عَلَى هَذَا الرَّأْيِ وَافَقْنَا، وَرَجَعَ القَعْقَاعُ إِلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ رَاضِياً، وَأَخْبَرَهُ بِمَا حَدَثَ فَسُرَّ الخَلِيفَةُ بَالِغَ السُّرُورِ، وَأَصْبَحَتِ الزِّيَارَاتُ تتِمُّ مِنَ البَصْرَةِ إِلَى مُعَسْكَرِ عَلِيٍّ، وَالجَمِيعُ يَتَحَدَّثُونَ عَنِ الصُّلْحِ. وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ أَصْبَحَ قَرِيباً. وَدَعَا أَهْلُ البَصْرَةِ عَلِيًّا لِلْقُدُوم عَلَيْهِمْ، فَوَافَقَ، وَعِنْدَمَا أَرَادَ التَّحَرُّكَ نَحْوَ البَصْرَةِ قَالَ: أَلاَ مَنْ أَعَانَ عَلَى عُثْمَانَ بنِ عَفَّانَ فَلاَ يَرْتَحِلْ مَعَنَا، وَهُنَا شَعَرَ أَصْحَابُ الفِتْنَةِ أَنَّ الصُّلْحَ إِنْ تَمَّ فَلَنْ يَكُونَ إِلاَّ

ضِدَّهُمْ، لِذَا يَجِبُ ألاَّ يَكُونَ، وَتَداوَلُوا الرَّأْيَ، فَوَجَدُوا أَنَّ الحَلَّ الوَحِيدَ هُوَ العَمَلُ عَلَى اقْتِتَالِ الطَّرَفَيْنِ.

مَعْرَكَةُ الجَمَلِ:

رَحَلَ أَمِيرُ المُؤْمِنينَ إِلَى البَصْرَةِ، وَعَسْكَرَ بِجَانِبِ مُعَسْكَرِ الرَّكْبِ المَكِّيِّ وَمَا إِنِ اقْتَرَبَ المُعَسْكَرَانِ حَتَّى بَدَأَتْ إِثَارَةُ أَصْحَابِ الفِتْنَةِ، وَتوارَى كِبَارُهُمْ حَتَّى لاَ يُعْرَفَ كَيْدُهُمْ، وَتَفْسُدَ خِطَّتُهُمْ، ثُمَّ أَوْقَدُوا النَّارِ وَتَصافَّ الفَرِيقَانِ لِلْقِتَالِ. وَخَرَجَ عَلِيٌّ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ، وَنَادَى طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ، وَكَلَّمَهُمَا، وَقَالَ لِلزُّبَيْرِ: أَتَذْكُرُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَكَ: «... وَلَكِنَّكَ سَتُقَاتِلُهُ وَأَنْتَ لَهُ ظَالِمٌ». قَالَ: تَذَكَّرْتُ ذَلِكَ، وَلَوْ كُنْتُ أَذْكُرُ مَا خَرَجْتُ، وَأَرَادَ تَرْكَ الأَمْرِ، وَخَرَجَ عَلَى وَجْهِهِ، وَعِنْدَمَا وَصَلَ إِلَى وَادِي السِّبَاعِ غَدَرَ بِهِ ابنُ جُرْمُوزٍ وَقَتَلَهُ.

اسْتَطَاعَتِ السَّبَئِيَّةُ أَنْ تُنْشِبَ القِتَالَ، وَطَلَبَ عَلِيٌّ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَكُفُّوا عَنِ القِتَالِ إِلاَّ أَن الأَمْرَ قَدْ خَرَجَ مِنْ يَدِهِ، وَالْتَحَمَ الفَرِيقَانِ فِي مُنْتَصَفِ شَهْرِ جُمَادَى الأُولَى مِنْ عَامِ ٣٦هـ. وَكَانَ جَيْشُ البَصْرَةِ يَزِيدُ عَلَى الثَّلاَثِينَ أَلْفاً، وَيَزِيدُ جَيْشُ عَلِيٍّ عَلَى عِشْرِينَ أَلْفاً.

الْتحَمَ الطَّرَفَانِ وَاشْتَدَّ القِتَالُ أَمَامَ الجَمَلِ الَّذِي عَلَيْهِ هَوْدَجُ أُمِّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ، ثُمَّ عُقِرَ الجَمَلُ، وَهُزِمَ أَهْلُ البَصْرَةِ، وَجُرِحَ طَلْحَةُ جُرْحاً بَلِيغاً، وَحُمِلَتْ عَائِشَةُ بِهَوْدَجِهَا إِلَى دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ خَلَفٍ.

وَجَدَ المُغْرِضُونَ فِي هَذِهِ الحَادِثَةِ ثَغْرَةً فَأَعْمَلُوا أَقْلامَهُمْ حَسْبَ أَهْوَائِهِمْ حَتَّى غَدَتْ هَذِهِ المَعْرَكَةُ إِحْدَى مُشْكِلاتِ التَّارِيخِ الإِسْلَامِيِّ يَتَسَاءَلُ عَنْهَا الصَّدِيقُ وَالعَدُوُّ، وَيَضَعُ إِشَارَاتِ اسْتِفْهَامٍ كُلُّ حَاقِدٍ.

وَرُبَّمَا فِي إِيرَادِ بَعْضِ مَا حَدَثَ فِيهَا يُبَيِّنُ الحَقَّ، وَيَرْفَعُ السِّتْرَ عَنِ الوَاقِعِ الَّذِي حُجِبَ عَنِ الكَثِيرِ.

التَقَى القَعْقَاعُ بنُ عَمْرٍو التَّمِيمِيُّ أَحَدُ قَادَةِ جَيْشِ عَلِيٍّ أَثْنَاءَ المَعْرَكَةِ مَعَ طَلْحَةَ بنِ عُبَيْدِ اللَّهِ أَحَدِ قَادَةِ جَيْشِ البَصْرَةِ وَهُوَ يُقَاتِلُ جَرِيحاً فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ إِنَّكَ جَرِيحٌ فَحَبَذَا لَوْ دَخَلْتَ أَحَدَ البُيُوتَاتِ. هَلْ يَقُولُ خَصْمٌ لِخَصْمِهِ مِثْلَ هَذَا الكَلَامِ؟ لاَ، بَلْ يَقْضِي عَلَيْهِ، غَيْرَ أَنَّه لَيْسَ بِخَصْمٍ وَلَكِنَّهُ أَخٌ اخْتَلَفَ مَعَهُ فِي الرَّأْيِ.

وَجَاءَ ابنُ جَرْمُوزٍ بَعْدَ المَعْرَكَةِ يَسْتَأْذِنُ عَلَى عَلِيٍّ، وَقَالَ:

قُلْ لَهُ: قَاتِلُ الزُّبَيْرِ، وَظَنَّ أَنَّ هَذَا التَّعْرِيفَ سَيُقَرِّبُهُ مِنْ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ، غَيْرَ أَنَّهُ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، إِذْ قَالَ عَلِيٌّ: إِئْذَنْ لَهُ، وَبَشِّرْهُ بِالنَّارِ.

كَمَا طَلَبَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ مِنْ جُنْدِهِ أَلاَّ يُجْهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ، وَلاَ يَتْبَعُوا هَارِباً، وَلاَ يَدْخُلُوا دَاراً، وَلاَ يَحُوزُوا مَالاً، وَلاَ يُؤْذُوا امْرَأَةً وَلاَ طِفْلاً، وَلاَ غَيْرَ مُقَاتِلٍ مُصِرٍّ مُعَانِدٍ.

عِنْدَمَا تَصَافَّ الفَرِيقَانِ، وَنَشَبَ القِتَالُ بَيْنَهُمَا لَمْ تَكُنْ عَائِشَةُ فِي السَّاحَةِ كَمَا يَتَوَهَّمُ بَعْضُهُمْ بَلْ كَانَتْ فِي البَيْتِ، وَلَكِنْ عِنْدَمَا خَرَجَ الأَمْرُ مِنْ يَدِ عَلِيٍّ، أَسْرَعَ قَاضِي البَصْرَةِ كَعْبُ بنُ سَوْرٍ الأَزْدِيُّ إِلَى البَيْتِ الَّذِي فِيهِ عَائِشَةُ، وَقَالَ لَهَا: أَبَى القَوْمُ إِلاَّ القِتَالَ، لَعَلَّ اللَّهَ يُصْلِحُ بِكِ، فَدَخَلَتِ الهَوْدَجَ، وَوُضِعَ الهَوْدَجُ عَلَى الجَمَلِ، وَأَخَذَ كَعْبٌ بِزِمَامِ الجَمَلِ، وَأَصْبَحَ يَدْعُو إِلَى كَفِّ القِتَالِ، فَطَلَبَتْ عَائِشَةُ مِنْهُ تَرْكَ الجَمَلِ، وَأَعْطَتْهُ مِصْحَفاً، وَقَالَتْ لَهُ: تَقَدَّمْ إِلَى النَّاسِ بِهِ، غَيْرَ أَنَّ أَصْحَابَ الفِتْنَةِ لَمْ يُبَالُوا بِشَيْءٍ بَلِ اسْتَمَرُّوا عَلَى انْدِفَاعِهِمْ، وَأَمِيرُ المُؤْمِنِينَ يُحَاوِلُ رَدْعَهُمْ مِنَ الخَلْفِ فَلَمْ يَهْتَمُّوا، وَرَشَقُوا كَعْباً فَقَتَلُوهُ، وَرَمُوا عَائِشَةَ وَهِيَ فِي الهَوْدَجِ، فَجَعَلَتْ تُنَادِي: يَا بَنِيَّ البَقِيَّةَ، البَقِيَّةَ - وَيَعْلُو صَوْتُهَا كَثْرَةً - اللَّهَ، اللَّهَ، اذْكُرُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ،

وَاذْكُرُوا الحِسَابَ فَيَأْبَوْنَ إِلاَّ إِقْدَاماً[1]. وَأَدْرَكَتْ عَائِشَةُ أَنَّ قَتَلَةَ عُثْمَانَ أَصْحَابَ الفِتْنَةِ هُمْ وَرَاءَ الفِتْنَةِ الآنَ، إِذْ لاَ يَزَالُونَ يُثِيرُونَهَا، وَهُمُ الَّذِينَ أَوْقَدُوا النَّارَ، وَهُمُ الَّذِينَ يُسْعِرُونَهَا فَأَصْبَحَتْ تُنَادِي إِلْعَنُوا قَتَلَةَ عُثْمَانَ وَأَشْيَاعَهُمْ، فَضَجَّ النَّاسَ مِنْ أَهْلِ البَصْرَةِ بِلَعْنِهِمْ وَتَرْدِيدِ كَلاَمِهَا، وَسَمِعَ عَلِيٌّ تِلْكَ الضَّجَّةَ، فَسَأَلَ عَنْ سَبَبِهَا، فَقِيلَ لَهُ: عَائِشَةُ تَلْعَنُ قَتَلَةَ عُثْمَانَ وَأَشْيَاعَهُمْ فَأَخَذَ يَلْعَنُهُمْ. وَاشْتَدَّتِ المَعْرَكَةُ عِنْدَ الجَمَلِ ذَلِكَ أَنَّ أَصْحَابَ الفِتْنَةِ اسْتَهْدَفُوهَا وَاسْتَبْسَلَ النَّاسُ لِلدِّفَاعِ عَنْهَا حَيْثُ قُتِلَ الكَثِيرُ إِذْ مَا أَخَذَ بِزِمَامِ الجَمَلِ أَحَدٌ إِلاَّ قُتِلَ حَتَّى قِيلَ أَنَّهُ قُتِلَ سَبْعُونَ مِمَّنْ أَخَذُوا بِرَأْسِ الجَمَلِ، وَلَمَّا رَأَى أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ ذَلِكَ أَمَرَ بِعَقْرِ الجَمَلِ فَعُقِرَ، وَحُمِلَ الهَوْدَجُ وَمَنْ فِيهِ إِلَى دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ خَلَفٍ ـ كَمَا قُلْنَا ـ فَهَدَأَتْ حِدَّةُ القِتَالِ. إِذَنْ خَرَجَتْ عَائِشَةُ لِلصُّلْحِ وَإِيقَافِ القِتَالِ فَكَانَ غَيْرُ مَا أَرَادَتْ.

وَقَفَ القِتَالُ فَنَدَبَ عَلِيٌّ النَّاسَ إِلَى مَوْتَاهُمْ، فَجَهَّزُوهُمْ، وَصَلَّى عَلَى قَتْلَى الفَرِيقَيْنِ، وَدَعَا لَهُمْ، وَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنِّي لأَرْجُو أَلاَّ يَكُونَ أَحَدٌ نَقِيَ قَلْبُهُ إِلاَّ أَدْخَلَهُ الجَنَّةَ[2]. ـ وَكَانَ

---

(١) تاريخ الطبري.

(٢) تاريخ الطبري.

هَذَا لِلفَرِيقَيْنِ ـ وَدَفَنَ النَّاسُ مَوْتَاهُمْ. وَدَخَلَ عَلِيٌّ البَصْرَةَ، وَاتَّجَهَ إِلَى مَسْجِدِهَا فَصَلَّى فِيْهِ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى عَائِشَةَ.

اسْتَأْذَنَ عَلِيٌّ عَلَى عَائِشَةَ، فَأَذِنَتْ لَهُ، فَسَلَّمَ عَلَيْهَا، وَجَهَّزَهَا بِكُلِّ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ، كَمَا جَهَّزَ مَعَهَا كُلَّ مَنْ خَرَجَ مَعَهَا إِلاَّ مَنْ أَرَادَ الإِقَامَةَ فِي البَصْرَةِ، وَأَعْطَاهَا اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفاً، وَأَمَرَ أَخَاهَا مُحَمَّدَ بنَ أَبِي بَكْرٍ أَنْ يَسِيرَ مَعَهَا.

وَجَاءَ عَلِيٌّ يَوْمَ رَحِيلِ عَائِشَةَ فَوَدَّعَهَا، وَوَدَّعَتِ النَّاسَ، وَقَالَتْ: يَا بَنِيَّ تَعَتَّبَ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ اسْتِبْطَاءً وَاسْتِزَادَةً، فَلاَ يَعْتَدَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ عَلَى أَحَدٍ بِشَيْءٍ بَلَغَهُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَلِيٍّ فِي القَدِيمِ إِلاَّ مَا يَكُونُ بَيْنَ المَرْأَةِ وَأَحْمَائِهَا، وَإِنَّهُ عِنْدِي عَلَى مَعْتَبَتِي لَمِنَ الأَخْيَارِ. وَقَالَ عَلِيٌّ: صَدَقَتْ وَاللَّهِ وَبَرَّتْ، مَا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذَلِكَ، وَإِنَّهَا لَزَوْجَةُ نَبِيِّكُمْ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

وَخَرَجَتْ يَوْمَ السَّبْتِ لِغُرَّةِ رَجَبٍ سَنَةَ سِتٍّ وَثَلاَثِينَ، وَشَيَّعَهَا عَلِيٌّ أَمْيَالاً، وَسَرَّحَ بَنِيهِ مَعَهَا يَوْماً. وَقَصَدَتْ مَكَّةَ وَبَقِيَتْ فِيْهَا إِلَى المَوْسِمِ، فَحَجَّتْ، ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى المَدِينَةِ.

وَهَذَا كُلُّهُ يَدلُّ عَلَى الأُخُوَّةِ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ، وَلَكِنْ أَوْقَعَ

الشَّيْطَانُ بَيْنَهُمْ، وَلِكُلٍّ وِجْهَةُ نَظَرٍ، وَاجْتِهَادٌ، وَهُوَ مَأْجُورٌ عَلَيْهِ بِإِذْنِ اللَّهِ. وَكَانَ الخِلَافُ مَحْصُوراً فِي نَقْطَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ أَنَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ عَلِيًّا يَرَى أَنَّ القِصَاصَ مِنْ قَتَلَةِ عُثْمَانَ يَصْعُبُ تَنْفِيذُهُ قَبْلَ اسْتِتْبَابِ الأَوْضَاعِ، عَلَى حِينِ يَرَى مُخَالِفُوهُ أَنَّ القِصَاصَ يَجِبْ أَنْ يَكُونَ مِبَاشَرَةً.

وَلَقَدْ نَدِمَتْ عَائِشَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، نَدَماً شَدِيداً، لاَ يَكَادُ يُعَادِلُهُ نَدَمٌ عَلَى خُرُوجِهَا إِلَى البَصْرَةِ، وَذَلِكَ لِمَا حَدَثَ. فَكَانَتْ تَقُولُ: «يَا لَيْتَنِي كُنْتَ شَجَرَةً أُسَبِّحُ وَأَقْضِي مَا عَلَيَّ، لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ يَوْمِ الجَمَلِ بِعِشْرِينَ سَنَةً». وَتَقُولُ أَيْضاً: «لأَنْ أَكُونَ قَعَدْتُ فِي مَنْزِلِي عَنْ سَيْرِي إِلَى البَصْرَةِ أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ يَكُونَ لِي عَشْرَةٌ مِنَ الوَلَدِ كُلُّهُمْ مِثْلُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ الحَارِثِ بنِ هِشَامٍ[1]. وَكَانَتْ تَبْكِي كُلَّمَا مَرَّتْ بِآيَةِ ﴿وَقَرْنَ فِي

(١) عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة المخزوميّ. أبو محمد. من الطبقة الأولى من التابعين من أهل المدينة، كان عمره عشر سنين يوم قبض رسول الله، صلّى الله عليه وسلم. أمّه فاطمة بنت الوليد بن المغيرة أخت خالد بن الوليد، وهو أحد الأربعة الذين نسخوا المصحف لأمير المؤمنين عثمان بن عفان، وشهد الجمل مع عائشة، وتوفي في خلافة معاوية.

بُيُوتِكُنَّ ﴿٣٣﴾[1] تبكِي حَتَّى تَبُلَّ خِمَارَهَا. وَتَبْكِي أَيْضاً كُلَّما مَرَّتْ عَلَى ذَاكِرَتِهَا أَحْدَاثُ يَوْمِ الجَمَلِ.

أَخْلاَقُ المُسْلِمِ:

قَتَلَ مُعَاوِيَةُ بنُ حُدَيْجٍ أَخَاهَا مُحَمَّدَ بنَ أَبِي بَكْرٍ فِي مِصْرَ، فَحَزِنَتْ حُزْناً شَدِيداً، وَضَمَّتْ عِيَالَ أَخِيهَا المَقْتُولِ إِلَيْهَا. وَجَاءَهَا يَوْماً عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ شُمَاسَةَ، فَاسْتَأْذَنَ، فَأَذِنتْ لَهُ، فَقَالَتْ لَهُ: مِمَّنْ أَنْتَ؟ قَالَ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ، فَقَالَتْ: كَيْفَ كَانَ صَاحِبُكُمْ لَكُم فِي غَزَاتِكُمْ هَذِهِ؟ وَتَقْصُدُ مُعَاوِيَةَ بنَ حُدَيْجٍ، فَقَالَ: مَا نَقَمْنَا مِنْهُ شَيْئَاً، إِنْ كَانَ لَيَمُوتُ لِلرَّجُلِ مِنَّا البَعِيرُ فَيُعْطِيهِ البَعِيرَ، وَالعَبْدُ فَيُعْطِيه العَبْدَ، وَيَحتَاجُ إِلَى النَّفَقَةِ فَيُعْطِيهُ النَّفَقَةَ. فَقَالَتْ: أَمَا إِنَّهُ لاَ يَمْنَعُنِي الَّذِي فَعَلَ فِي مُحَمَّدِ بنِ أَبِي بَكْرٍ أَخِي أَنْ أُخْبِرَكَ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ فِي بَيْتِي هَذَا: «اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئَاً فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئَاً فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ»[2]. فَهِيَ تُثْنِي عَلَى ابْنِ حُدَيْجٍ رَغَمَ مَا نَالَهَا مِنْهُ.

وَكَانَ مُعَاوِيَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَتَرَضَّاهَا وَيَصِلُهَا بِصِلاَتٍ،

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

(٢) رواه مسلم.

فَقَدْ بَعَثَ لَهَا مَرَّةً بِمَائَةِ أَلْفٍ، فَمَا أَمْسَى عِنْدَهَا دِرْهَماً، فَقَالَتْ لَهَا جَارِيَتُهَا: فَهَلاَ اشْتَرَيْتِ لَنَا مِنْهُ لَحْماً بِدِرْهَمٍ؟ قَالَتْ: لَوْ ذَكَّرتِينِي لَفَعَلْتُ.

كَمَا كَانَ مُعَاوِيَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَكْتُبُ لَهَا يَستَنْصِحُهَا، فَكَتَبَتْ لَهُ مَرَّةً: إِلَى مُعَاوِيَةَ: سَلاَمٌ عَلَيْكَ، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «مَنِ التَمَسَ رِضَاءَ اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مَؤُونَةَ النَّاسِ، وَمَنِ التَمَسَ رِضَاءَ النَّاسِ بِسَخَطَ اللَّهِ، وَكَّلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ».

وَكَانَتْ إِنْ أَنْكَرَتْ عَلَيْهِ شَيْئاً لاَمَتْهُ وَحَذَّرَتْهُ.

وَكَانَتْ تُكَنَّى «أُمَّ عَبْدِ اللَّهِ» فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ النِّسَاءَ قَدِ اكْتَنَيْنَ فَكَنِّنِي. قَالَ: «تَكَنِّيْ بِابْنِ أُخْتِكِ عَبْدِ اللَّهِ».

وَتُوُفِّيَتْ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فِي خِلاَفَةِ مُعَاوِيَةَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ لَيْلَةَ سَبْعَ عَشْرَةَ مِنْ رَمضَانَ بَعْدِ الوِتْرِ. وَدُفِنَتْ مِنْ لَيْلَتِهَا بِالبَقِيعِ حَسْبَ وَصِيَّتِهَا، وَأَوْصَتْ فَقَالَتْ: لاَ تُتْبِعُوا سَرِيرِي بِنَارٍ، وَلاَ تَجْعَلُوا تَحْتِي قَطِيفَةً حَمْرَاءَ.

وَصَلَّى عَلَيْهَا أَبُو هُرَيْرَةَ، وَنَزَلَ فِي قَبْرِهَا. عُرْوَةُ بنُ

الـزُّبَيْـرِ، وَالقَـاسِـمُ بـنُ مُحَمَّـدِ بـنِ أَبِـي بَكْـرٍ، وَعَبْـدُ اللَّـهِ بـنُ عَبْـدِ الـرَّحْمَـنِ بـنِ أَبِـي بَكْـرٍ، وَعَبْـدُ اللَّـهِ بـنُ مُحَمَّـدِ بـنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ أَبِي بَكْرٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بنُ الزُّبَيْرِ.

٣ ـ أُمُّ كُلْثُومٍ:

وَأُمُّهَا حَبِيبَةُ بِنْتُ خَارِجَةَ بنِ زَيْدٍ الأَنْصَارِيَّةُ، وُلِدَتْ بَعْدَ وَفَاةِ أَبِيهَا أَبِي بَكْرٍ، وَتَزَوَّجَهَا طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، فَوَلَدَتْ لَهُ: زَكَرِيَّا، وَيُوسُفَ (مَاتَ صَغِيرًا)، وَعَائِشَةَ. وَقُتِلَ طَلْحَةُ عَنْهَا يَوْمَ الجَمَلِ. وَعَائِشَةُ بِنْتُ طَلْحَةَ هِيَ الَّتِي اشْتَهَرَتْ بِجَمَالِهَا، وَذَكَرَهَا عُمَرُ بنُ عَبْدِ اللَّهِ بنُ أَبِي رَبِيعَةَ، وَقَدْ تَزَوَّجَتْ مُصْعَبَ بنَ الزُّبَيْرِ.

تَزَوَّجَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ بَعْدَ طَلْحَةَ بنِ عُبَيْدِ اللَّهِ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ أَبِي رَبِيعَةَ فَوَلَدَتْ لَهُ: إِبْرَاهِيمَ الأَحْوَلَ، وَمُوسَى، وَأُمَّ حُمَيْدٍ، وَأُمَّ عُثْمَانَ. وَكَانَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَدْ أَرْسَلَتْ سَالِمَ بنِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ عُمَرَ إِلَى أُمِّ كُلْثُومٍ لِتُرْضِعَهُ لِيَدْخُلَ عَلَيْهَا، فَأَرْضَعَتْهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ مَرِضَتْ.

المحتوى

الباب الثاني
أسرة الصِّدّيق